البحث عن الذات
قراءة في معلقة طرفة بن العبد

د. ماجد الجعافرة
كلية الآداب - جامعة اليرموك

ملخص

يبدو طرفة في معلقته شاباً قوياً معتزاً بفتوّته وانتمائه إلى قبيلته ، محباً للحياة ، مقبلاً عليها ، ناظراً إلى الموت على أنه المنغّص لصفوها ، ولهذا فهو يحاول استباقه والتربع على كرسي الدنيا بما فيها من ملذات .

واللذة الكبرى التي كانت تشغل باله هي الوصول إلى سلطة القبيلة ، وإحداث التغيير فيها ولو بالقوة ، ذلك التغيير نحو مجتمع مستقر متحضّر يكون هو سيده ، ولكنه اصطدم بعقبتين كبيرتين الأولى صغَر سنه - مما جعل المجتمع يزوّر عنه ، والثانية عوزه وفقره وهما عاملان شكلا عائقاً كبيراً أمام محاولته الوصول للسلطة في القبيلة ، فكانت النتيجة أن تهاوت أحلامه مرة واحدة وترك أمر التغيير إلى الزمن ، بعد أن فشل في إقناع المجتمع بشخصه .

* أعدّ هذا البحث بدعم من عمادة البحث العلمي بجامعة اليرموك (الأردن) .

Abstract

Tarafa showed himself in his Mou'alaka youth, strong, and proud of his strength, youthfulness and his tribe. He showed himself, also, as lover of life, going for it and looking at death as turbulence of its purity. Therefore, he tried to avoid death and sit on the chair of life ejoying its bounty pleasures.

Holding authority over his tribe, was the grand pleasure he was going after, in order to perform a change in it, even by force. He was looking for upgrading his tribe to a settled and civilized society, in which he is the master. In his search for that goal, he was confronted by two big obstacles, the first obstacle was his young age, which made his society to neglect him, and the second obstacle was his poverty and need.

The two obstacles failed him to hold authority over his tribe, thus his dreams were vanished, once and all. But he trusted change to time, after he trusted change to time, after he failed in convincing his society with himself.

مقدمة

لاقت معلقة طرفة استحساناً كبيراً عند القدماء والمحدثين ، فوصف ابن سلام الجمحي طرفة في طبقاته بأنه أشعر الناس واحدة[(١)] . وكثيراً ما نلاحظ القدماء يطلقون على معلقته ألفاظاً توحي بتميزّها وتفرّدها ، كقولهم أفضل الناس واحدة[(٢)] أو هو أجودهم طويلة[(٣)] وهكذا .

وتباينت وجهات نظر المحدثين حولها ، نظراً لما تتميز به القصيدة من رؤى مختلفة في الحياة والمجتمع والكون . عدّها كمال أبو ديب نصّ التوتر المطلق بين الشهوة للانتماء واستحالة الانتماء ، بين رغبة الدخول في طقوس القبيلة والتشرنق داخل عالمها ، وتحقيق المكانة والسؤدد من خلالها وفي إطار نظام القيم الاجتماعية والفكرية الذي به تحيا وبه تدير وجودها ، وسعير التبريح الداخلي الذي يصعقه التناقض المطلق بين هذا النظام المصنوع اجتماعياً والمتمثل لمصالحة عملية مع الوجود وبين الحقيقة الكلية الباهرة التي تخلق قيمها الخاصة بها : الموت[(٤)] .

ويرى فيها مصطفى ناصف تفكير طرفة ، الشاعر الشاب الذي يريد أن يكتشف فكرة المصير التي تطرق وجدان الشعوب[(٥)] . وإن المجتمع في رأي طرفة هو تعاقد مضمر بين الناس على تجاهل مشكلة المصير[(٦)] .

وتلفت كثرة التشبيهات فيها نظر يوسف خليف ، فيعدّ انتشار التشبيه في المعلقة دليلاً على أنه ظاهرة فنية مميّزة للشعر الجاهلي في مرحلة النضج الطبيعي ، ذاكراً أن طرفة يستمدّ تشبيهاته ـ وبالذات في وصف الناقة ـ من البيئة الصحراوية التي يعيش فيها ـ وما يراه فوقها من مناظر الطبيعة ومظاهر الحياة[(٧)] .

ولا يتجاهل المعلقة دارسو الصورة الفنية في الشعر العربي ، فيقف نصرت عبد الرحمن عند صوره ، فيدهش لحضرية الصورة عنده فيقول : «لعل من الغريب أن أقول : إن شاعر الناقة حضريّ الصورة ، يغترف صوره من جداول حضريّة ، وقد تزول هذه الغرابة إذا أحصينا صوره في الأبيات الثلاثين من المعلقة التي وصف فيها ناقته ، ونجد في هذه الأبيات الثلاثين إحدى عشرة صورة حضريّة ، تقف قبالتها خمس صور . . . نستطيع أن نعد هذه الصور الخمس ـ ما عدا القريبة الخلق ـ من الصور الطبيعية»[(٨)] .

ويرى علي البطل تصوير طرفة لناقته على هذا النحو التفصيلي لم يكن وراءه رموز مقدّسة . إذ إن طرفة بهذا التصوير يقيم ناقته أمامنا هيكلاً جسدياً كامل الخلق ، وهو لا يقيمها ساكنة بل يعرضها في كل حال : مرتبعة في المرعى ، وسائرة على الطرق ، وتعدو رافعة رأسها أو مسفّة بأنفها الى الأرض ، شائلة بذنبها أو مرخيّة على فخديها ، كل هذا في لوحة جميلة ، ولكنها لوحة تستند إلى الواقع المعاش ، لا إلى الموروث الديني القديم .(٩)

ودرس أنور أبو سويلم المعلقة على أنها بحث عن الحضارة ، ورأى أن الرغبة في الاستقرار في الوطن وبناء الحضارة هو ما يشغل عقل الشاعر الجاهلي وهو يصف الناقة ويقيم صروحها ومناظرها واعمدتها في خياله ، وهذا البناء تجسيد دقيق لأمانيه في وقف حياة التشرد والضياع والهجرات المستمرة ، لأنهم بحاجة إلى استقرار في الوطن وإلى حضارة راسخة دائمة حيث الأمن من الطبيعة ، والحبّ غير المهدّد بالرحيل» (١٠) .

ويفهم وهب رومية معلقة طرفة على أنها تسمح لنا بوضع أيدينا على واقع الشاعر ، فطرفة شاب جاهلي استقرت في نفسه رغبة الحياة والعبٌ منها على قدر ما تسمح به ألفاظه ، وهو بعدئذ عاشق مفتون بالمثل يضع كل شيء في خدمتها ، ولا يلقى بالاً لما يتعارض معها ، بل يهاجمه في شيء غير يسير من القسوة ، وهو أيضاً ، يشعر الى حد ما بضآلة الحياة عندما يقف أمام حقيقة الموت المرعبة ، ولكنه يتعزى ـ ولو قليلاً ـ في أنه لن يندب كما يندب الوغل من الرجال(١١) .

ويقف طه حسين عند القصيدة فينكر الجزء الخاص بوصف الناقة ، قائلاً : إن أكثر هذه الأوصاف أقرب إلى أن يكون من صنعة العلماء باللغة منه إلى أي شيء آخر (١٢) .

وعرض لها بدوي طبانة في ضمن دراسته عن معلقات العرب (١٣) .

ووقف عند المعلقة باحثون ، مثل : عبد الله التطاوي (١٤) ومحمد الهاشمي (١٥) ومحمد عبد القادر أحمد (١٦) وغيرهم .

ويبدو أن النص الذي يحمل رؤى معمّقة ، ويعالج قضايا مثيرة للجدل ، تتعدد قراءاته وبخاصة إذا صادف قُرّاءَ يختلفون في ثقافاتهم وإحساساتهم وتعاطفهم مع النص ، وهذا بدوره يخلق نصاً جديداً . تقول سيزا قاسم : «ولكن التغير الجوهري الذي ساد دراسة

النصوص الفنية هو الدور الجوهري الذي أخذ يلعبه القارىء في تلقي النص الفني بحيث أمكن أن يقال إن القارىء هو الذي ينتج النص ، مثل العازف الذي يؤدي القطعة الموسيقية ، ويصبح هناك عدد من النصوص بقدر القراء الذين يتلقون النص(١٧) .

ومن هنا وجدت نفسي مشدوداً لقراءة طرفة من خلال واحدته ، محاولاً إلقاء الضوء على ما يريده وما يفكر به من خلال النص نفسه .

لوحة الطلل والنسيب :

يفتتح الشاعر القصيدة بقوله :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد ... تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد(١٨)
وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم ... يقولون لا تهلك أسىً وتجلدّ(١٩)

وتتراءى له أطلال خولة كبقايا الوشم في ظاهر اليد ، ويروي ابن الأنباري عجز المطلع بقوله :ـ (٢٠)

«ظللت بها أبكي وأُبكي الى الغد»

أي إنه افتتح القصيدة بالبكاء ، وراح يضمّن معلقته بيتاً لا مرىء القيس يقع في نهاية مقدمته للمعلقة . ومن يتأمل مقدمة امرىء القيس الطلَلية في معلقته يجده يفتتحها بالبكاء «قفا نبكِ» والبكاء مياه مالحة فهو رمز للجفاف والجدب(٢١) .

ويظهر الحبيب والمنزل عنده مجرد ذكرى ، وتضحي الطبيعة تقوم بدور المجتمع ، فنلاحظها تنسج ، والنسيج عبارة عن الحضارة(٢٢) ويشبه بعر الآرام بحب الفلفل ، التوابل هي أيضاً مما يعبّر عن الحضارة أو عملية التحضر(٢٣) .

فالشاعر الجاهلي كان يراقب هذه المفارقة المرعبة أو قل هذا الانقلاب في المفاهيم ، من خلال رؤيته للطلل ، فالإنسان الذي كان ينسج بالأمس أفسح مكانه للطبيعة كي تقوم بهذا الدور . وتراءت له مخلفات الوحش صوراً متحضرة .

فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشمأل
ترى بعر الآرام في عرصاتها ... وقيعانها كأنه حبُّ فلفل

إنه قانون القلب المتناسق[٢٤] الذي راح يتهكم منه الشاعر الجاهلي ويسخر قائلاً :

«فهل عند رسم دارس من معوّل»[٢٥]

ونعتقد أن طرفة بهذا التضمين من أمرىء القيس[٢٦] .

وقـوفـاً بهـا صـحـبي عليّ مطيـهـم يقـولون لا تهلك أسىً وتجـمـل

كانت عينه على صوره ، التي رسم من خلالها الطبيعة وهي تمحو ما يفعله الأنسان ، وهذا ما فعله طرفة تماماً حينما صور الطلل كبقايا الوشم» .

إن عملية النسج والوشم هنا تشيران ـ بالإضافة الى عملية محو الطبيعة للحضارة ـ إلى ما لا يمحى ولا مفرّ منه أي القدر ، والرسالة الخالدة وهي عدم خلود الإنسان[٢٧] فبقدر ما تُمحى سمات الحضارة تصبح الرسالة أوضح وأثبت[٢٨] .

ومن جانب آخر قد يكون للتضمين دور أوسع وأشمل ، إذ لا يتعلق بالمقدمة الطلليّة وحسب ، ولكن يتسع ليشمل قصة الشاعر نفسه أو ما اشتهر به ، فيكون مجيء التضمين تماماً كما نذكر طرفاً من اسطورة او جزءاً من قصة تكون معروفة تماماً من مجرد اشارة ذلك الجزء إليها .

ولا أكون مغالياً إذا قلت إن البيت المضمن من امرىء القيس قد يكون مفتاحاً مهماً لفهم قصيدة طرفة . فكلنا يعرف ـ ومن ضمننا طرفة ـ قصة امرىء القيس ، وهلكه في سبيل استرداد ملك أبيه ، الملك الضائع . والعرب تقول : «إذهب فإمّا هُلْك وإما مُلك ، أي إمّا أن تهلك وإما أن تملك»[٢٩] .

فهل كان طرفة يبحث عن مُلك في قومه ، كما كان امرؤ القيس يبحث عن ملك أبيه الضائع ؟ ! ألا يمكن أن نلاحظ وجود خيط رفيع يربط بين إخراج قوم حجر الملك والد امرىء القيس لحجر وقتله ، وبين إخراج قوم طرفة له وإبعاده من القبيلة «وأفردت إفراد البعير المعبّد» .

كـأنّ حُـدوجَ المالكيّـةِ غُـدوةً خـلايا سـفين بالنواصف من دَدِ[٣٠]
عَدَوْليّةٌ أو من سـفينِ ابن يامنٍ يجوزُ بهـا الملاح طَـوْراً ويهتـدي[٣١]
يشـقُّ حَبابَ المـاءِ حيـزومُها بهـا كمـا قسم التُرْبَ المفـايلُ باليـد[٣٢]

الطلل يعبر عن الهدم وعن المحو وعن فعل القدر وهجوم الطبيعة على الإنسان ، وإشارته له أنه ليس بخالد ، ويظل يذكره ، بماضيه القاسي «كباقي الوشم في ظاهر اليد» ، وهو ماض اراد طرفة الهروب منه في هذه الرحلة البحرية التي تراءت له من خلالها هوادج المالكية سفناً مبحرة .

ـ وفي اعتقادي ـ ان السفن رمز للقبيلة نفسها وهي تسير في رحلة نحو المجهول ، ويتوفر على قيادتها ملاحٌ . وهو شيخ القبيلة ، لا يتمكّن من هدايتها ، فمرةً يصيب وأخرى يخيب ، فهو يخضع في قيادته للعبة الحظ . وطرفة ينتقد القائد ولا ينتقد السفن فالسفن مشهورة «عدولية» وآمنة «من سفين ابن يامن» (٣٣) ، ولكن العيب في قائدها . وبعض الباحثين يرى أن الملاح هو العقل (٣٤) ، والحق أنه يُسيطر على عقل طرفة هاجس الصِّغر ـ أي صغر سنه ـ وهو عاملٌ يقف عائقاً كبيراً في سبيل الوصول الى زعامة القبيلة . ألا تلاحظ أن زعيم القبيلة يدعى «بالشيخ» ومن ضمن ما تعطيه هذه الكلمة من معنى هو المتقدم في السّن ، ولهذا نلاحظ أن طرفة راح يشبه شق السفينة للماء بلعبة «الفيال» (٣٥) وهذه اللعبة للصبيان ، ثم هي لعبة قوامها الحظ ، يجمع الصبية التراب ثم يخبئون فيه خبيئاً ، ثم يشق المفايل ذلك التراب بيده فيقسمه قسمين ، ثم يقول لصاحبه : في أي الجانبين ما خبأت؟ (٣٦) والسؤال : ما الخبيء الذي يبحث عنه طرفة هل هو زعامة القبيلة ؟! .

وفي الحيّ أَحوى ينفضُ المردَ شادنٌ ... مظاهرُ سِمْطَيْ لؤلؤٍ وَزَبَرْجَدِ (٣٧)
خَذُولٌ تُراعي رَبْرَباً بخميلة ... تَناولُ أطرافَ البريرِ وترتدي (٣٨)
وتبسِمُ عن ألمى كأَنَّ مُنَوّراً ... تَخلّل حُرَّ الرملِ دِعْصٌ له نَدي (٣٩)
سقته إيَاةُ الشمسِ إلاّ لِثَاتِهِ ... أَسِفَّ ولم تَكدم عليه بإثْمِدِ (٤٠)
وَوَجْهٌ كأنَّ الشمس حَلَّتْ رداءَها ... عليهِ ، نقيُّ اللونِ لم يَتَخَدَّدِ (٤١)

وسرعان ما ينقلنا إلى هذا الأحوى الذي يعيش في جنّة من الجنان ، يأكل من ثمر الأراك ، ويلبس أحسن اللباس ، ويتسم بالنعومة والطراوة والخدّ الصقيل الذي لم يعرف التخدّد . وهل بعد هذا الوصف يشك شاك في أن هذا الأحوى هو طرفة الطفل؟ . يقول مصطفى ناصف : «هذا هو الطفل مرة اخرى . . . إننا أمام ظبي بريء يحقق ـ كما يقال ـ

ممكناته الطبيعية . يرعى الثمر ويصطحب الرّفاق ، ويتذوق جمال الشمس وضوءها ـ هذا هو الإنسان يريد العودة إلى طبيعة دافئة أم» .[٤٢]

الإنسان في هذا الطور الطفولي يكون سائلاً لا مسئولاً ، ويكون معتمداً على غيره ، كل شيء ملك يديه ، وفي متناولها ولا يُعتمد عليه إلا إذا تجاوز هذه الرحلة ، وأثبت أنه أهل لتحمل المسئولية . إن طرفة يخشى المجتمع وخشيته متأتية من أن ينظر المجتمع إليه نظرة طفولية لصغر سنه ، وهذا التوجس يترتب عليه عدم الاعتراف به كمسئول يتطلع إلى قيادة القبيلة . هذا هو التوجس والخوف الذي لازم طرفة ، وهذا هو الهم الذي كان يثقله ، وهو همّ راح يسقطه على ناقته ، لعل فيها الخلاص . وطرفة مشغول بإقناع المجتمع به ، كما سنرى .

لوحة الناقة :

وإني لأُمضي الهمَّ عندَ احتضارِهِ ... بِعَوْجاءَ مرقالٍ تروحُ وتغتدي[٤٣]
أمُونٍ كألواحِ الإرانِ نسأْتُها ... على لاحِبٍ كأنه ظَهْرُ بُرجُدِ[٤٤]
تُباري عِتاقاً ناجياتٍ وأَتْبَعَتْ ... وظيفاً وظيفاً ، فوقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ[٤٥]
تربّعتِ القُفَّين في الشَّوْلِ ترتعي ... حدائقَ مَوْليّ الأَسِرّةِ أغْيَدِ[٤٦]
تُريعُ الى صوتِ المُهيبِ وتتقي ... بِذِي خُصَلٍ رَوْعاتِ أكْلفَ مُلْبَدِ[٤٧]
كأنّ جَناحي مَضْرَحِيّ تكنّفا ... حِفا فَيْه شُكّا في العَسِيبِ بِمَسْرَدِ[٤٨]
فَطَوْراً به خَلْفَ الزّميلِ وتارةً ... على حَشَفٍ ، كالشّنّ ذاوٍ مُجَدّدِ[٤٩]
لها فخذان أُكْمِلَ النّحضُ فيهما ... كأنهما بابا منيفٍ مُمَرّدِ[٥٠]
وَطَيٌّ مَحَالٍ كالحَنِيّ خُلُوفُه ... وأجْرِنَةٌ لزّتْ بِدأْيٍ مُنَضّدِ[٥١]
كأنّ كِناسَيْ ضالَةٍ يكنُفانِها ... وأطْرَ قِسيٍّ تحت صُلبٍ مُؤيّدِ[٥٢]
لها مرفقانِ أفْتَلانِ كأنما ... تَمُرُّ بِسَلمَيْ دالجٍ متشدّدِ[٥٣]
كقنطرةِ الروميّ أقْسَمَ ربُّها ... لتُكْتَنَفَنْ حتى تُشادَ بقَرْمَدِ[٥٤]
صُهَابيّةُ العُثْنونِ مُوجَدَةُ القَرا ... بعيدةُ وخْدِ الرِّجلِ موّارةُ اليدِ[٥٥]
أُمِرَّت يداها فَتْلَ شَزْرٍ وأُجنحتْ ... لها عَضُداها في سقيفٍ مُسَنّدِ[٥٦]

جَنوحٌ دُفَاقٌ عَنْدَلٌ ثمّ أُفرِعَتْ   لهـا كَتِفـاها في مُعَالىً مُصَعَّـدِ (٥٧)
كـأنّ عُلوبَ النّسع في دَأْياتِهـا   مـواردُ من خَلْقَـاءَ في ظَهْرِ قَـرْدَدِ (٥٨)
تَلاقَى وأحيـاناً تَبِينُ كـأنهـا   بنائقُ غُرٌّ في قـميصٍ مُقـدَّدِ (٥٩)
وأتلَـعُ نَهّاضٌ إذا صَعّـدتْ بـهِ   كَسُكّانِ بوصِيٍّ بدِجْلَةَ مُصْعِـدِ (٦٠)
وجُمْجُمَـةٌ مـثلُ العَـلاةِ كـأنّمـا   وعى المُلتقى منها الى حَرفِ مبردِ (٦١)
وعـينان كـالماوِيّتين استكنّتـا   بكهفيْ حِجَاجَيْ صخرةٍ قَلْتِ مَوْردِ (٦٢)
طَحُـورانِ عُوّارَ القَذى فـتـراهُمَا   كـمكحـولتيْ مَذْعُـورةٍ أُمِّ فَرْقـدِ (٦٣)
وخـدٍ كـقـرطاس الشـاميِّ ومِشْـفَرٌ   كـسبْتِ اليـماني قَدُّهُ لم يُجَرَّدِ (٦٤)
وصـادِقَتـا سَمْعِ التـوجّسِ للسُّرَى   لِهَجْسٍ خـفيٍّ أو لصـوتٍ مُنَدّدِ (٦٥)
مـؤَلّلتـانِ تعـرفُ الْعِتقَ فـيـهِمـا   كـسامِعَتَيْ شـاةٍ بحـوْمَلَ مُفْرَدِ (٦٦)
وأَرْوَعُ نـبّاضٌ أَحَـذُّ مُلَمْلَـمٌ   كـمِرْداةِ صخْرٍ في صفـيحٍ مُصَمّدِ (٦٧)
وإن شِئتُ سـامَى واسِطَ الكُورِ رَأسُهـا   وعَامَت بضَبَعـيْهـا نَجاءَ الخَفَيْدَدِ (٦٨)
وإن شِئتُ لم تُرقِلْ وإن شـئْتُ أَرقَلَتْ   مـخـافـةَ مَلْويٍّ من القِدِّمُحـصَدِ (٦٩)
وأَعْلَمُ مَخْرُوتٌ مـن الأنفِ مـارِنٌ   عـتيقٌ متى ترجُمْ بِهِ الأرضَ تزددِ (٧٠)

صورة المجتمع الطفولي الذي رسمه طرفة جميلة ، فيها الاستقرار والهدوء والجمال والبراءة ، ولكنها ضعيفةٌ أمام الطلل ، فالطفل نفسه ضعيف ، وليس من قبيل الصدفة أن يختار بطله لهذا المجتمع من أضعف الحيوانات ، إنه الظبي . إنه لا يقوى أمام جبروت الطلل ، إذ سرعان ما يقوم الطلل بعملية طرد له من جنة الطفولة والبراءة .

الشاعر الجاهلي كان يدرك أنه ليس بخالد ، وأن الطبيعة تقسو عليه ، وتفقده طعم الاستقرار ولذّه الراحة وهو ضعيف أمامها ، سرعان ما تفترسه وتزحف عليه ، ويشخص الطلل أمامه مذكراً إياه بالماضي المفقود ، فهناك البعد الاجتماعي المناخي البدوي ، أي ضرورة الانتقال من مكان الى مكان بحثاً عن الماء والمرعى حسب دورة فصول السنة (٧١) .

ويبدو أن الشاعر أدرك أن المخلص له هو ناقته ، والناقة تجسّد القدرة على اختراق القفار وتحمّل الصعوبات ، والحنين إلى الموطن . وهي ترمز من جهة إلى نيّة الشاعر وعزمه ، ومن جهة أخرى ، بصفتها أساس الحياة القبلية الاقتصادية والطقسيّة ، إلى القبلية نفسها (٧٢) .

إن ناقة طرفة ترمز إلى القوّة والصلابة وشموخ البناء ، فهل أراد طرفة أن يؤسس لمجتمع قوامه القوّة والصلابة والاستقرار والأمن في مواجهة الطلل المرعب المفزع الذي يذكره بالهدم والخراب وفقدان طعم الراحة الذي تذوقه في جنان الطفولة المؤقتة قبل أن يطرده الطلل منها .

يصف طرفة ناقته بأنها «أمون» عندها الأمن الذي تفتقر إليه البيئة العربيّة البدوية التي تعيش على الغزو والغَارة ، وتوقع الموت في كل لحظة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى هي ملاذه الأمين في مواجهة الطلل الرامز إلى الفناء .

الفكرة التي سيطرت على عقل طرفة وهو يصف الناقة هي فكرة «البناء» ، وهو بناء يتميز بالشموخ والارتفاع ، وتعَدد الطبقات أو قل هو البناء المرصوص الذي يشّد بعضه بعضاً . فهل كان هذا البناء الحضري في مواجهة البناء البدوي الذي كان يقوم على بيوت شفافة رقيقةٍ من الشّعر .

فناقتهُ مثلاً «كألواح إلاران» والإران كما يقول صاحب اللسان : خشب يشدّ بعضه إلى بعض تحمل فيه الموتى (٧٣)

وهي «كقنطرة الرومي أقسم ربها لتكتنفن» أي يحاط حواليها بالبناء (٧٤) ويشبه فخديها ببابي قصر مزلقٍ من عمل المردة ، وفقار ظهرها مطوية كطيّ البئر ، وعملية الطيّ هي وضع الحجارة بعضها فوق بعض بشكل بناء فوق البئر .

وجانبا ذيل ناقته محاطان بجناحي نسرٍ . هذه الصور وغيرها من مثيلاتها ألا توحي بفكرة السيّدِ أو الزعيم القابع خلف الحجب ، ترى هل كان طرفة مسكوناً بفكرة السيد الممنع ، المهيب؟! ألا ترى معي أن طرفة هو سُكان السفينة «كسكّان بوصيّ بدجلة مصعد» والسكان : في باب السفن ، وهو ما تُسكنُ به السفينة ، تمنع به من الحركة والاضطراب (٧٥) . ألا ترى أنه سكّان القبيلة الذي يمنعها من الاضطراب ويسكنها في مساكن الطمأنينة والأمن ، تلك الطمأنينة التي رآها وحلم بها في جنة الطفولة وهو يتناول ثمر الأراك . مستمتعاً بجمال الشمس والشجر .

والناقة بما استوعبت من البناء والضخامة والشموخ والصلابة والارتفاع تأتمر بأمره ، «وإن شئت سامى واسطَ الكور رأسُها» و «وإن شئت لم ترقل ، وإن شئت أرقلت» . وتصوير الناقة ـ بعد ضربها ـ بوليدة مجلس تميسُ في مشيتها وتتيه بثيابها البيضاء المرفلة ـ لدليل على الحياة المشرقة المبتسمة من جهة ، ومن جهة أخرى هي صورة مترفة من حياة القصور التي يحلم بها طرفة سيّد الناقة وربها .

إن تصوير الشاعر لناقته على نحو مبالغ فيه من التماسك والتراص ليومي بفكرة المجتمع المتماسك ، غير المتناحر وغير المتفرق ، حتى يتمكن من الوقوف في وجه الطلل من جهة ، وفي وجه الأخطار المتأتية من الإنسان نفسه ، وهذا يتفق تماماً مع دعوة طرفة إلى التراحم ولمّ الشمل ومصالحة القربى .

وناقة طرفة متجهة دوماً إلى الأمام ، فهي «جنوح ، دفاق» و «في معالي مصعّد» إنها تستشرف المستقبل ومن غير المصادفة أن تبدأ القصيدة بالإشارة إلى الغد «ظللت بها أبكي وأبكي إلى الغد» و «كأن حدوج المالكية غدوة» وتنتهي بالإشارة إليه : «ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً .

إنه التصميم والمضاء من قبل الشاعر في الوصول إلى المستقبل . «على مثلها أمضي» وقوله : «وإني لأمضي الهّم» .

إن الصور التي أضفاها الشاعر على الناقة ما هي إلا ضرب من البرنامج الانتخابي أو الإصلاحي في تعبيراتنا الحديثة ، وهي إصلاحات بحاجة إلى أن يوافق المجتمع عليها ، وهذا ما كان يخشاه طرفه . وهي إصلاحات قد تؤدي بصاحبها إلى الموت لأنه يريد أن ينسف ما تواضع عليه المجتمع وينقله إلى جوّ جديد عليه . وقد أسلفنا أن طرفة كان خائفاً من أن يرفض المجتمع آراءه لصغر سنه . ويمثل هذا التخوف في تمني صاحبه له بأن يفتديه من ناقته ـ وليس من الفلاة كما يشير كثير من الشراح إلى ذلك ـ [٧٦] يقول :-

على مِثلها أَمضِي إذا قال صاحِبي ألا ليتني أفديكَ مِنها وأَفْتَدِي

ومؤدّى كلام صاحبه أن الناقة من الممكن أن تقضي عليه . والناقة شابة فتية تلتقي معه في هذه الصفة ، فضرعها متقبض ، وهو «كالشن ذاو مجدّد» وهذا من أمارات القوة

والفتوة ، وينسب طرفة الخوف من الناقة إلى صاحبه ، مبعداً إياه عن نفسه من خلال هذا الرّد السريع المتمثل في الفتوة التي يملكها . وكأنها البديل لما سيواجهه من خوف .

وجاشَتْ إليه النّفسُ خوفاً وخالَه مُصاباً ولو أَمسى على غيرِ مَرْصدِ
إذا القومُ قالوا من فتىً خِلتُ أَنني عُنيت فلم أكسلْ ولم أتبلّدِ

وهي فتوّة حدت ببعض الباحثين إلى القول : ويكفي أن نقرأ هذا الوصف الدقيق لأجزاء الناقة كي نتصور مدى ضخامة النصب ومدى فتنة الشاعر بهذا البناء الذي يرفعه فلا يملّ من معاودة النظر منه ، كأنما يريد أن يخلّد هذا الجانب الفاتن من حياة أولئك الفتيان من الأعراب ، فهو رمز فتوتهم(٧٧) .

لوحة الفخر

إذا القومُ قالوا : من فتى خِلت أنني عنيت فلم أكسْل ولم أتَبلّدِ
أَحَلْتُ عليها بالقطيع فأجذَمَت وقد خَبَّ آلُ الأمعزِ المتوقِّدِ(٧٨)
فذالت كما ذالتْ ولَيدةُ مَجْلسٍ تُري ربَّها أذيالَ سَحْلٍ مُمدّدِ(٧٩)
ولستُ بحلاّلِ التلاعِ مَخَافَةً ولكنْ متى يَسْتَرفدُ القومُ أرْفِدِ
وإنْ تَبْغِني في حلَقةِ القوم تَلْقَني وإن تَقْتَنِصني في الحوانيتِ تصطدِ
متى تأتِني أُصْبِحْكَ كأساً رويّةً وإن كنت عنها ذا غِنىً فاغْنَ وازْدَدِ
وإن يلْتقِ الحيُّ الجميعُ تُلاقِني إلى ذِروةِ البيتِ الكريمِ المصمَّدِ(٨٠)
نداماي بيضٌ كالنجومِ وَقَيْنةٌ تروحُ علينا بينَ بُرْدٍ وَمُجْسَدِ(٨١)
رَحيبٌ قطابُ الجَيْبِ منها رفيقةٌ بَجسِّ النّدامى بضةُ المتجرّدِ
إذا نحن قُلْنا : أسمعِينا انْبَرَتْ لنا على رِسلِها مطروفةً لم تشدّدِ(٨٢)
وما زال تَشرابِي الخمورَ ولذّتي وبيعي وإنفاقي طريفي وَمُتلَدِي
إلى أن تحامتني العشيرةُ كُلُّها وأُفرِدْتُ إِفْرادَ البعيرِ المُعبَّدِ
رأَيتُ بني غَبْراءَ لا يُنْكِرونَني ولا أهلُ هَذاكَ الطِّرافِ المُمَدّدِ(٨٣)

ألا أيهـذا الزاجـري أحـضرَ الوغَى وأن اشـهَد اللّذاتِ هل أنت مُخْلدِي؟
فـإن كنت لا تسطيعُ دفعَ مَنِيَّتِـي فـذرنـي أبادِرْها بما مَلَكَتْ يَدِي
فلولا ثلاثٌ هنّ من حـاجـةِ الفـتى وحَدِّكِ لَمْ أَحْفِلْ مـتى قـامَ عُوّدِي
فـمنهن سـبـقي العـاذلات بشَـرْبَةٍ كُمَيْت مـتى مـا تُعْـلَ بالمـاءِ تُـزْبِدِ
وكـرِّي إذا نادى المُضَـافُ مُحَنَّبـاً كـسيـدِ الغَضَـا نَبَّهْتَـهُ المتـوَرِّدِ (٨٣)
وتَقْصيـرُ يومِ الدّجْنِ والدّجْنُ مـعـجِبٌ بِبَـهْكَنَةٍ تحـت الطِّرافِ المُمَدَّدِ (٨٤)
كـأن البُرِيْنَ والدمـاليجَ عُلّقَتْ عـلى عُشَرٍ أو خِرْوَعٍ لـم يُخَضَّـدِ (٨٥)
فَـذَرْني أُروِّي هامَتِـي في حـيـاتِهـا مـخـافَةَ شُربٍ في الحيـاةِ مُصَرَّدِ (٨٦)
كـريمٌ يُـرَوّي نفـسَه في حـيـاتِه سَتَعْلَمُ إن مُتْنا صَدًى أيّنا الصَّدِي (٨٧)

هذا الفخرُ العارمُ بالنفس يومىء بالتفرّد ، فنحس أن الشاعر في كفّة والمجتمع بأسره في الكفة الأخرى ، فما معنى ذلك؟ من هذا الذي يقف في وجه المجتمع بأكمله ؟ أمصلح صاحب فكر مستنير ، يؤمن بالحرية ، وعنده القدرة على التغيير . لأنه يقول : لعمرك ما أمري على بغمة» .

إن الشاعر يجهد نفسه وهو يقنع المجتمع بنفسه وبما يدعو إليه ، وأنه واضح مع قومه «ما أمري عليّ بغمـةَ» إنه شخص متحرك في القبيلة ، في أي مكان تقصده تجده . في الحوانيت ، في رؤوس الأماكن المرتفعة ، ونسبه في الذروة بل هم كريم مصمّد يلجأ إليه الناس في حوائجهم لشرفه ومنعته . وينفى مصاحبة الساقطات له ، فندماه حرائر بيض نقيات ، واضحات كالنجوم ، وإذا كانت هذه الشمائل تدفع إلى العُلو وإلى السموّ فلِمَ تنكره العشيرة؟ هل تنكره لإسرافه في الخمر واللّذة والانفاق كما عبر هو ؟ أم أنكرته لشيء آخر ،يتجه اليه الشاعر متوتراً مع العشيرة ، مما دفعها إلى أن تزيد من حميا هذا التوتر فتفرده «إفراد البعيد الأجرب» والبعير الأجرب يعدي ، فيا ترى ما العدوى التي خلفها طرفة ، وخشيها المجتمع والعشيرة .

إن العدوى ـ في نظرنا ـ تكمن في مطالبة الشاعر بأن يكون سيدا للقبيلة والمجتمع ، إذ

بغير هذا لا يمكن له أن يطبق ما يطالب به من آراء ، وما يعتقده من تغيير في مجتمع محافظ يؤمن بالتقاليد البدوية والقيم الجاهلية ، وبخاصة حول مبدأ السيادة وما يسمى «بالشّيخةِ والمشيخة» في تعابيرنا الحديثة .

ألا ترى أن الشاعر يشير إلى أنه مؤيد من قبل الفقراء والأغنياء على السواء

رأيــت بني غـبــراء لا ينكرونني   ولا أهـلُ هـذاك الـطراف المـمـدّد

إذن من الذي ينكره ويبعده ، بل ينفيه ويفرده ، أليست هي الصفوة الحاكمة في القبيلة!؟؟ .

ولاحظ فكرة السيادة التي تسكنه إذ عبّر عنها بأوجه منها أنه معني دائما : «إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني عنيت» «فمنهن سبقي العاذلات» و «كرّي» ففيها معنى التقدم والاستباق أيضا . وأما التقصير يوم الدّجن مع الغواني فضرب من حياة القصور المترفة التي يحلم بها سيداً يمارس حياة الحضر المستقرة .

إن الزاجر الذي يزجر الشاعر عن الوغى وعن اللذات ، يذكرنا بصاحبه الذي قال له : «ألا ليتني أفتديك منها وافتدي» و «وجاشت إليه النفس خوفا» فصاحبه يخاف عليه من ناقته ، تلك الناقة التي ـ حتماً ـ ستورده الموت وها هو ذا الزاجر الآن يحذره من حضور الوغى وحضور اللذات لأنهما يوردانه الموت ، ترى ما هذا الذي سيورده الموت حتماً ، إنها لذّة الوصول إلى السلطة كي يبدأ من هناك بالوصول إلى التغيير ويصل إلى اللذات التي ينشدها جميعاً ؟ لأنه أي لذة أشهى من لذّه الوصول للسلطة؟!! والمعادلة في نظر الشاعر أصبحت سهلة لديه إذا كان الموت يصل إلى كل انسان ، ولا يمكن دفعه فعليه أن يستبقه في الوصول إلى تلك اللذة .

إن هذه اللذّة المطلوبة لا يستطيع أن يصرح بها لأنها تعجل في القضاء عليه ، ولكنه يصرح بأنه واضح المطلب «لعمرك ما أمري عليّ بغُمّة» .

إن استرسال الشاعر في الحديث عن الموت يأتي في سياق أسلوب حكميّ ، قصد منه شيئا مهماً بالنسبة إليه وهو أن الحكمة تصدر عن التجارب وعن طول الخبرة في الحياة ، وهذه تقتضي كبر السّن على الأقل ، وهي عقدة يشكو منها طرفة حديث السّن في وقت لا

تعترف فيه الأعراف القبلية إلا بالكبار الناضجين لقيادة القبيلة ومن هنا يلقب السيّد «بالشيخ» فراح طرفه ينحو منحى الحكمة كأسلوب بديل عن هذا الشرط الرئاسي يدلّل من خلاله أنه فيه حكمة الشيوخ . ولهذا نلاحظ أن الخنساء حينما رثت صخراً ، وصفته بأنه ساد عشيرته أمردا أي وهو صغير ، وهذا شيء غريب : (٨٨)

رفيعُ العِماد طويلُ النّجاد   ساد عشيرتَهُ أمردا

وعقدة الشاعر الثانية تكمن في أنه فقير ، والسيادة بحاجة الى المال ، ولذلك راح يتيه بفتوته كضرب من التعويض ، وراح يذكر بأن الجميع يستوي أمام الموت : البخيل مع الغوي ، على هذا النحو :-

أرى قبرَ نَحّام بخيلٍ بماله   كقبرِ غَويٍّ في البطالة مفسدِ(٨٩)
ترى جَثْوَتَيْنِ من تُرابٍ عليهما   صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضّدِ(٩٠)
أرى الموتَ يَعْتَامُ الكرامَ ويصطفي   عقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشدّدِ(٩١)
أرى الدهر كنزاً ناقصاً كلَّ ليلةٍ   وما تَنْقُصُ الأيامُ والدهرُ ينفَدِ
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى   لكا لطِّوَلِ المرخَىْ وثِنْياه باليدِ(٩٢)
أرى الموتَ أعدادَ النفوسِ ولا أرى   بعيداً ما أقربَ اليوم من غَدِ(٩٣)

وانظر إليه وهو يجأر بالشكوى ، متمنياً لو كان أحد هذين السيدين الغَنيين :-

فلو شاء ربي كنتُ قيسَ بنَ خالدٍ   ولو شاءَ ربي كنت عمرو بن مرثَدِ
فأصبحت ذا مال كثيرٍ وعادني   بنونَ كرامٌ سادةٌ لِمُسَوّدِ

إن الشطر الثاني من البيت الثاني ليدل على ما كان يدور في خلد طرفة ، إذ يتمنى مع المال «بنون كرام» ، فالبنون يتصفون بالكرم ثم بالسيادة وهؤلاء يحيطون بأبيهم المسوّد عليهم وعلى غيرهم من بقية القبيلة .

ومن هنا نلاحظ الشاعر يقترب من القبيلة اقتراباً كبيراً ، أو قل : إنّه ينتمي إليها انتماء عظيماً ، من خلال هذه الدعوة للمّ الشمل ، وتقريب القرابة ، ومراعاة أواصر الرحم ، وذلك كي يلتف حوله الناس تماماً كما عبر «وعادني بنون كرام سادة لمسوّد» . يقول :

فـــمـــالي أراني وابنَ عـــمي مـــالكاً ... مـــتى أدْنُ مـنـــه ينأَ عنيّ ويَبْعَـــدِ
يلومُ ومـــا أدري عـــلامَ يـلومُني ... كـمـا لامني في الحيِّ قُرطُ بنُ مـعبـدِ
وأيأسني من كلّ خــيــرٍ طلبــتُهُ ... كـأنا وضـعناه إلي رَمْــسٍ مُلْحَــدِ
على غـيـرِ شيءٍ قلتُـهُ غـيـرَ أنني ... نشـدتُ فلم أَغـفِل حُمُـولةَ مَعْـبـدِ
وقـــربتُ بالـقُربى وجـــدّكَ أنني ... متى يكُ عـهـدٌ للنكيـثَةِ أَشْـهَدِ (٩٤)
وإنْ أُدْعَ للْجُلّى أكُنْ من حُمـــاتِهـــا ... وإن يأتِكَ الأعـداءُ بالجَهْدِ أَجْهَـدِ (٩٥)
وإنَ يقْذِفُــوا بالقَذْعِ عِرْضَكَ أَسْقِــهِم ... بشـربِ حيـاضِ الموتِ قـبلَ التَهَـدُّدِ
بلا حَـدَثٍ أحـدثْتُـه وكَمُـحْدِثٍ ... هجـائي وقـذفي بالشَّكَاةِ ومُطْـرَدي
فلو كـان مـولاي امـرءاً هو غـيـرُه ... لفـــرّجَ كـــربي أو لأنظرني غَدي
ولكن مـــولايَ امـــرؤٌ هو خــانِقِي ... على الشكرِ والتَّسْآل أو أنـــا مُفْتَدي
وظلمُ ذوي القـربى أشـدّ مـضـاضـة ... على النفسِ من وقع الحــسـام المُهَنّدِ
فــذرني وخُلْـقي إنني لك شـاكــر ... ولو حَلّ بيـتي نائيـاً عند ضَرغَدِ (٩٦)
فلو شـاءَ ربي كنت قـيسَ بن خـالدٍ ... ولو شاء ربي كنتُ عمروَ بن مرثدِ (٩٧)
فـأصـبـحت ذا مـال كـثـيرٍ وعـادني ... بنـونَ كــــرامٌ ســادةٌ لِمُسَــوّدِ

إن الشاعر يعى جيداً ضرورة التفاف القبيلة حوله ، ولا يكون هذا إلا بالانتماء اليها انتماء لا شك فيه ، ولهذا هو يبرهن على صلابة هذا الانتماء بطريقة واضحة : « متى يك عهد للنكيثة أشهد» و «وإن أُدْعَ للجلى أكن من حماتها» . إنه المسؤول الفذّ الذي يدرأ الأخطار عن القبيلة قبل وقوعها «أسقهم ، بشرب حياض الموت قبل التهدد» .

ولكن الشاعر يحس طعم الظلم في القبيلة ، وهو طعم مرّ وبخاصة إذا كان من الأقربين . وهذا بحدّ ذاته مبرر كبير لأنه يتجه نحو السلطة ليحدث التغيير ، إنه الرجل الخشاش الذي يملك القدرة على التحرك والتغيير في القبيلة . إن حديث طرفة عن الرجل «الضرب» وعن السيف رقيق الشفرتين ، ليومىء بانقلاب عسكري في داخل القبيلة للاستيلاء على السلطة .

أنا الرجُل الضَّربُ الذي تعرفونَهُ ... خشَاشٌ كرأسِ الحيَّةُ المَتوقِّد(٩٨)
فآليت لا ينفكُّ كشحي بِطَانةً ... لِعَضْبٍ رقيقِ الشفرتين مهنَّد
أخي ثقةٍ لا ينثني عن ضريبة ... إذا قيل مهلا قال حاجُزُه قَدِي(٩٩)
حُسامٌ إذا ما قمت منتصراً به ... كفى العَوْد منه البدُ ليس بمعضَد(١٠٠)
إذا ابتدرَ القومُ السِّلاح وجدتني ... منيعاً إذا بلَّت بقائمه يَدِي

أترى أن حديثه عن الظلم في القبيلة وعن الاختناق «امرؤ هو خانقى» وعن قسوة المعاملة له «بلا حدث أحدثتهُ» جاء صدفة أن يتبعه بالحديث عن السيف العضب ، وأنه المنيع «منيعاً إذا بلّت بقائمة يدي» ، إن حديثه عن السيف بعد أن مهد له بالحديث عن الظلم يومىء باستخدام القوة لإحداث التغيير . ومن يقرأ القصيدة قراءة كلية يحسُّ أن هاجس القوة وهاجس الفتوة يسيطران عليها . وكنا رأينا ناقته شابّة ، فتية قوية تمثلُ شباب الشاعر نفسه وقوّته ومضاءه باتجاه التغيير والسيطرة على زمام الأمور في القبيلة .

وَبَركٍ هُجودٍ قد أثارت مخافتي ... نواديه أمشي إليه بِعَضْبٍ مُجَرَّد(١٠١)
فمرّت كهاةٌ ذاتُ خِيف جُلالة ... عَقيلةُ شيخٍ كالوبيلَ يلَنْدَد
يقول وقد تَرّ الوظيفُ وساقها ... ألست تَرى أن قد أَتيت بُمؤيِد(١٠٣)
وقال ألا ماذا ترون بِشاربٍ ... شديدٍ علينا بَغْيُهُ متعمّد
فقال ذرُوه إنما نَفْعُها لَهُ ... وإلا تكفوا قاصِيَ البَرْكِ يَزْدَد(١٠٤)
فظل الإماءُ يمْتَلِلن حُوارَهَا ... ويُسعى علينا بالسَّديفِ المُسرهَد

لقد اتجه بسيفه العضب نحو السلطة المتنفذة في القبيلة . فالبرك الهجود ما هو إلا أفراد القبيلة المتغافلون النائمون ، والخوف الذي دبّ فيه ، طال أوائله فكلمة «نواديه» لشديدة الدلالة على أن الخوف تسلل إلى السلطة العليا في القبيلة ، والنتيجة عقر الناقة الكهاة ، الضخمة المسنة العائدة لشيخ القبيلة ، ذلك الشيخ الطاعن في السن «الوبيل» الشديد الخصومة «يلندد» .

ألا ترى أن عقر الناقة يشير إلى التخلص من الماضي ، وهو ايضاً تعبير رمزي عن قتل القيم التي تمثلها [١٠٥] الناقة الكهاة الكبيرة المسنّة هي معادل موضوعي لشيخ القبيلة المسن (الوبيل) والشديد العداوة ، للشاعر نفسه الذي انتقده بشدة في بداية القصيدة حينما قال : «يجور بها الملاح طوراً ويهتدي» .

والناقة الفتية ، الشابة القوية الصلبة ، المتطلعة إلى المستقبل هي المعادل الموضوعي للشاعر الشّاب طرفة ، المتطلع إلى التغيير ، والسيادة في القبيلة .

إن رد شيخ القبيلة على عقر الناقة ، يشبه تماما ردّ الحاكم الظالم الذي يُثار عليه فيتهم من يثور عليه بالبغى والتعدي والجنون أحياناً ، ولهذا كان ردّ الشيخ يحمل تسفيهاً لهذا ، الباغي ، المتجاوز ، المسرف الثمل ، «الشارب ، شديد عليكم بغيه متعمد» .

وإذا لم أكن مشتطاً في الفهم ، فإن عبارة الشيخ «فقال ذروه إنما نفعها له» تحمل طابع السخرية من الشاب ، وهذا كقولك لمجرم تطمئنه ، اذهب ثم تغدر به .

إن دعوة الشاب للتغيير ، والسيطرة على القبيلة ، قد تلقى آذاناً صاغية من القبيلة فيحدث التمرد ، «وإلاّ تكفوا قاصى البرك يزدد» أي يزداد البرك في النفور والابتعاد عن أوائله ، ولهذا يجب رده إلى أوائله ، إن هذا الرد لا يمكن أن يكون إلا بقتل من أثاره ، وأقضّ مضاجعه .

إن قتله قتل للفتنة ووأد لها ، فظلّ الإماء يتللن حُوارها «ان الحوار هنا هو طرفة نفسه صغير السّن الذي كان يشكو من هذه العقدة منذ بداية القصيدة ، وظلت تشكل عائقاً في سبيل الوصول الى السلطة والسيادة ، وفي سبيل اقناع المجتمع بسيادته عليه ، إنه الحوار المنبثق عن الناقة المعقورة ، إنه ابن القبيلة ، الذي حاول التغيير ما استطاع ولكنه اصطدم بقوةالتقاليد ، وسيطرتها على المجتمع .

إن الناقة الشابة الفتية الضخمة التي خلع عليها من صور الحضارة ما خلع ، وكانت بمثابة الصرح الشامخ والبناء العالي الصاعد ، تهاوت مرة واحدة ، وتحولت إلى هذا الحوار المولود عن تلك الناقة الكهاة ذات الخيف والجلال ، التي هي بمثابة شيخ القبيلة المسن الرافل بجلاله ووقاره ، وتكون بذلك أحلام الشاعر في بناء مجتمع مستقر متحضر يضع حداً لحياة الخوف والتنقل ـ قد تهاوت .

والذي يدعم هذا التفسير شيئان : أولهما أن طرفة أوكل فكرة التغيير والسيادة الى الزمن فهو الكفيل بحلها ولكن كيف ؟ هذا ما صمت عنه والشيء الثاني هو حديثه عن رثائه ، مخاطباً ابنة أخيه ، بأن تنعيه أحسن النعي ، وأن تشق عليه الجيب ، لأنه يحمل هم القبيلة ، وهم سيادتها ، وهم قيادتها نحو المستقبل المشرق الذي «لا يجور فيه الملاح» بل يهتدي . إنه يطلب منها أن تنعاه لأنه السيّد ، السريع إلى الجلَى ، البعيد عن المنى ، الجرىء الشجاع :

فـــإن مُت فـــانعـــيني بما أنا أهله ... وشُـقّي عليّ الجـيب يا بَنة مـعـبـدِ
ولا تجـعليني كـامـرىء ليس همُّهُ ... كـهـمي ولا يغني غنائي ومـشـهَدِي
بطيء عن الجُلّى سـريع إلى الخنى ... ذليلٍ بأجـمـاعِ الرجـالِ مُلَهّدِ (١٠٦)
فلو كنتُ وغـلاً في الرّجـاَل لضـرّني ... عـداوةُ ذي الأصـحـاب والمُتَوَحِّـدِ (١٠٧)
ولـكنْ نـفَى عنّي الرجّالَ جـراءتي ... وصـبـري وإقـدامي عليـهم وَمـحْتِدِي
لـعَمْـرُك ! مـا أمـرِي علي بِغُمّةٍ ... نـهـاري ولا ليلى عَلَيَّ بِسـرمَدِ
ويوم حَبَسْـتُ النفسَ عند عِراكـهـا ... حـفـاظاً عـلى عَـوْراته والتّهَـدُّدِ
على موطنٍ يخشى الفتى عندَه الردى ... مـتى تَعـتـرِكْ ، الفـرائصُ تُرعَـدِ
أرى الموتَ أعـداد النفـوسِ ولا أرى ... بعـيـداً مـا أقـرَب اليـوم من غـدِ
سـتُبـدي لك الأيامُ مـا كنتَ جـاهلاً ... ويأتيـكَ بالأخـبـارِ من لـم تُزَوّدِ
ويأتيـكَ بالأخـبـارِ منْ لم تـبعْ له ... بتـاتـاً ولمَ تضْرب لـهُ وقتَ مـوْعدِ

* * *

وهكذا تبدّى لنا طرفة في معلقته باحثاً عن السلطة والسّيادة ،يؤمن بالحياة وملذّاتها ، ويتهالك عليها تهالكاً ، ويحلم بتغيير المجتمع وما تعارف عليه من عادات وتقاليد ، ولكنه اصطدم بقوّة المجتمع الذي لم يعترف به ، ولم يقتنع بشخصيته لتسودهم ، فتهاوت أحلامه ، وترك أمر التغيير إلى المستقبل .

التعليقات والحواشي

١ - محمد بن سلام ، الجمحي (ت١٣٢ ٥) ، ، طبقات فحول الشعراء ، تقديم عبد الحميد فايد (بيروت ، دار النهضة العربية ، د . . . .ت) ، ص٣٠ .

٢ ـ أبو علي الحسن ، ابن رشيق القيرواني ، (ت ٦٥٤ هـ) ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة مطبعة حجازي ، ١٣٥٢هـ ، ١٠٢ .

٣ ـ عبد الله بن مسلم ، ابن قتيبة ، ت ٦٧٢هـ ، الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦م ص١٨٥ .

٤ ـ كمال أبو ديب ، الرؤى المقنعة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ ص ٣١٥ .

٥ ـ مصطفى ناصف ، قراءة ثانية لشعرنا القديم ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ،ط٢ ، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨١م ، ص١٧١ .

٦ ـ المصدر السابق ص١٦٩ .

٧ ـ يوسف خليف ، دراسات في الشعر الجاهلي ، مكتبة غريب بدون تاريخ ، ص٧٦

٨ ـ نصرت عبد الرحمن ، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث مكتبة الأقصى ـ عمان ١٩٧٦ ، ص١٨١ .

٩ ـ على البطل ، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري . دار الأندلس ، ط١ ، كانون الثاني يناير ١٩٨٠ ص١٥٣ .

١٠ ـ أنور أبو سويلم ، مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي ، دار عمان ـ عمان ، ١٩٩١م ص٢٤ . والدراسة نفسها بحث منشور للمؤلف في مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك سعود بالرياض تحت عنوان : البحث عن الحضارة ، قراءة في معلقة طرفة بن العبد .

١١ ـ وهب رومية ، الرحلة في القصيدة الجاهلية ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ص٢٩٤ .

١٢ ـ طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، ط١٢ ص٢٢٨ ، وانظر ، حديث الأربعاء ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٢٥م ص٥٨ .

١٣ ـ بدوي طبانة ، معلقات العرب ، دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعر الجاهلي ، دار الثقافة ، الطبعة الثانية بيروت ـ لبنان ، ص١٢٤ .

١٤ ـ عبد الله التطاوي ، في القصيدة الجاهلية والأموية ، القاهرة ، مكتبة غريب ، ١٨٩١ .

١٥ ـ محمد الهاشمي ، طرفة بن العبد حياته وشعره بيروت ، عالم الكتب ، ١٩٨٠ .

١٦ ـ محمد عبدُ القادر حاتم ، دراسات في أدب ونصوص الشعر الجاهلي ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٣م .

١٧ ـ سيزا قاسم ، عالم الفكر ، المجلد ٢٣ ، عدد ٤،٢ يناير / مارس ابريل ، يونيو ١٩٩٥م ص٢٧٩ .

١٨ ـ البرقة : أرض ذات حجارة وطين ، وثهمد : موضع بعينه . تلوح : تبدو

١٩ ـ تجلد : أي تصبّر وتشدد .

٢٠ ـ أبو بكر ، محمد بن القاسم الأنباري ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهلية تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، ط٥ ، دار المعرف ، ص١٣٤ .

٢١ ـ سوزان ستيتكيفيتش ، القصيدة العربية وطقوس العبور ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مجلد ٦٠ ج١ ، ص٧٣ .

٢٢ ـ المصدر السابق ص٧٣ .

٢٣ ـ المصدر السابق ص٧٣ .

٢٤ ـ المصدر السابق ص٧٣

٢٥ ـ أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام ، تحقيق محمد البجاوي ، ص١١٦ .

٢٦ ـ المصدر السابق ، ص١٥

٢٧ ـ سوزان ستيتكيفيتش ، القصيدة العربية وطقوس العبور ، ٦٢

٢٨ ـ المصدر السابق ص٦٢

٢٩ ـ ابن الأنباري ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ، ص١٣٥ .

٣٠ ـ حدوج : جمع حدج ، وهو مركب من مراكب النساء . والخلايا : السفن العظام .
النواصف : مواضع تتسع من الأدوية . دد : اسم موضع .

٣١ ـ عَدَوْليّة : نسبها الى قرية بالبحرين .

٣٢ ـ المفايل : الذي يلعب الفيال . وهي لعبة الصبيان الأعراب .

٣٣ ـ كمال أبو ديب ، ، الرؤى المقنعة ، ص٢٩٨ .

٣٤ ـ مصطفى ناصف ، قراءة ثانية لشعرنا القديم ، ص١٥٩ .

٣٥ ـ ديوان طرفة ، بشرح الأعلم الشنتمري ، تحقيق دريّة الخطيب ولطفي الصقّال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٥م ، ص٨ ، وانظر ابن الأنباري ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص١٣٦ .

٣٦ ـ المصدر السابق ص٨ .

٣٧ ـ المرد : ثمر الأراك ، المظاهر : مضاعف اللؤلؤ .

٣٨ ـ خذول : قد تخلّفت مع ولدها . الرّبرب : جماعة البقر الوحشيّة .
البرير : الأراك .

٣٩ ـ المنوّر : الأقحوان . حُرّ الرمل : أكرمه وأحسنه ألواناً . الدعص : كثيب من الرمل .

٤٠ ـ اياة الشمس : ضوءُها وشعاعها . أسفّ : ذرّ علي لثاثة الأثمد . والكدم : العض .

٤١ ـ التّخَدد : اضطراب الجلد .

٤٢ ـ مصطفى ناصف ، قراءة ثانية لشعرنا القديم ص١٦٠ .

٤٣ ـ العوجاء : الضارة التي لحق بطنها بظهرها . الإرقال : أن يسرع البعير ، وينفض رأسه .

٤٤ ـ الأمون : الموثّقة الخلق ، التي يؤمن عِثارها . الأران : تابوت كانوا يحملون فيه الموتى .
اللاحب : الطريق البيّن . البرجد : كساء ، مخطط .

٤٥ ـ المور : الطريق .

٤٦ ـ تربّعت القُفّين : رعت الربيع فيه ، والقُف : ما ارتفع من الأرض .

٤٧ ـ الأكلف : الذي يشوب حمرته سواد ،

٤٨ ـ المضرحي : النسر الأحمر الذي يضرب الى البياض . تكنّفا : أي صارا عن يمين الذنب وشماله . حفافاه : جانباه . العيب : عظم الذنب . المسْرد : الاشفى الذي يخرز به .

٤٩ ـ الزمّل : الرّديف . الحشف : الفرع المتقبَض . الشّن : القربة البالية .

الذّاوي : الذابل . الجدّد : الذاهب اللبن .

٥٠ ـ النّحض : اللحم ، والمنيف : قصر مشرف ، وكلّ ما أشرف : فقد أناف .

٥١ ـ المحال : فقار الظهر . الحني : جمع حنيّة وهي القوس . الأجرنة : جمع جران ، وهو باطن الحلقوم . لزّت : الصقت .

٥٢ ـ الكناس : أن يحتفر الثور في أصل الشجرة . الضال : شجر . المؤيد : المشدّد .

٥٣ ـ أفتلان : متجافيان عن زورها ، الدّالج : الذي يدلج بالدّلو الى الحوض .

٥٤ ـ اكنافها : نواحيها ، القرمد : الآجرّ واحدته قرمدة .

٥٥ ـ العثنون : ما تحت لحييها من الوبر . الصهبة : أن يخالط بياضها حمرة .

القرا : الظهر . الوخذ : أن تزجّ بقوائمها وتسرع . الموار : المضطرب .

٥٦ ـ أمرّت يداها : فتلت فتلاً شديداً . الشّزر : أن ينقل من أسفل الكتف الى فوق .

٥٧ ـ الجنوح : التي تجنح من سيرها : أي تميل نشاطاً وسرعة . والدفاق : المسرعة . العندل : الفخمة . أفرغت : عوليت .

٥٨ ـ العلوب : الآثار . النسع : حبال الرّحل . الخلقاء : الصخرة الملساء .

القردد : ما استوى من الأرض وصلب .

٥٩ ـ الغرّ : البيض . المقدّد : المشقق .

٦٠ ـ الآتلع النهاض : عنقها . السكّان : عود المركب البوصي : السفينة

٦١ ـ العلاة : السنّدان

٦٢ ـ الماويّة : المرآة . الحجاج : عظم العين . القت : نقرة في الحجر تمسك الماء .

٦٣ ـ الطحوران : الدفوعان ، الطرودان ، ، عوّار القذى : قطعه من الرمد .

٦٤ ـ السّبت : جلود البقر المدبوغة بالقرط .

٦٥ ـ صادقتا سمع : أذناها . التوجّس : الخوف .

٦٦ ـ مؤللّتان : محدّدتان كتحديد الآلة . والسامعتان : الأذنان .

حومل : اسم رملة

٦٧ ـ الأروع : القلب الحديد . النبّاض : المضطرب . من الفزع .

المرداة : صخرة تدق بها الحجارة .

٦٨ ـ ضبعاها : عضداها ، النجّاء : السّرعة . الخفيدد : ذكر النعام

٦٩ ـ الإرقال : ان تنفض رأسها لشدّة سيرها . القدّ : ما قد من الجلد .

٧٠ ـ الأعلم : المشقوق المشفر . الارن : اللّين .

٧١ ـ سوزان ستيتكيفيتش ، ، القصيدة العربيّة وطقوس العبور ص٦٤ .

٧٢ـ المصدر السابق ص٦٥ .

٧٣ ـ اللسان مادة ، أرن .

٧٤ ـ أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، تحقيق على محمد البجاوي بدون تاريخ وذكر لمكان الطبع ، ص٣١٣ .

٧٥ ـ اللسان مادة سكن .

٧٦ ـ ديوان طرفة ص٢٨ ، وانظر مصطفى ناصف ، قراءة ثانية لشعرنا القديم ص١٦٤ .

٧٧ ـ وهب رومية ، الرحلة في القصيدة الجاهلية ، ص٢٩٦ .

٧٨ ـ أجذمت : أسرعت ، وأصلا الجذم : القطع . الأمعز : المكان الغليظ الكثير الحصى .

٧٩ ـ ذالت : ماست في مشيتها : السّحل : ثوب أبيض .

٨٠ ـ المصمد : الذي يُصمد اليه الناس لعزّه .

٨١ ـ النّدامى : الأصحاب المشاربون . المجسّد : الثوب المصبوغ بالزعفران .

٨٢ ـ المطروفة : الفاترة الطرف .

٨٣ ـ المضاف : المُلجأ المدرك الذي أحاط به العدو . محّنبا : فرسا في يديه انحناء وتوتير وهو مما يُمدح به . السيّد : الذئب .

٨٤ ـ يوم الدجن : يوم ندى ورش والباس غيم . البهكنة : التامّة الخلق ، الحسنة .

٨٥ ـ البُرين : الخلاخيل . الدّماليج : المعاضد . العشر : شجر أملس .

الخروع : كل نبت ناعم .

٨٦ ـ المفرد : الذي يقطع قبل الريّ .

٨٧ ـ الصّدى ها هنا : جثمان الرجل بعد موته . أيّنا الصدي : أيّنا العطشان .
٨٨ ـ ديوان الخنساء ، بشرح ثعلب ، تحقيق ، د . أنور أبو سويلم ، دار عمّان ط١ ، ١٩٨٨ ، ص١٤٣ .
٨٩ ـ النحام : البخيل . الغويّ : المبذّر لماله .
٩٠ ـ الجثوة : التراب المجموع . الصفائح : الحجارة العراض .
٩١ ـ يعتام : يختار ويخصهم . الفاحش : السيء الخُلُقُ .
٩٢ ـ ثنياه باليد : ما انثنى على يديه . والطّوال : الحبل .
٩٣ ـ الأعداد : جمع عد ، وهو الماء الكثير المولود . وفي الديوان يتأخر هذا البيت عن موقعه هنا .
٩٤ ـ النكيثة : أنظر القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، حاشية ص٣٣٢ .
٩٥ ـ الجُلّى : الأمر العظيم الجليل .
٩٦ ـ ضر غد : جبل
٩٧ ـ قيس بن خالد هو قيس بن خالد بن عبد الله ذي الجدّين . وعمر بن مرثد : ابن عم طرفة .
٩٨ ـ الضرب : الخفيف . الخشاش . الماضي في الأمور الذكي .
٩٩ ـ قال حاجزه قد : قال حسبك ما تريد قد بلغت ما تريد .
١٠٠ ـ المعضد : الرديء من السيوف .
١٠١ ـ البرك : جماعة الابل . نواديهُ : أوائله . والنوادي : المتفرقة أي تخافني إذا جئت لأنحرها بهذا العضب ، وهو عندي مثل نوادي القوم : مجالسهم . انظر القرشي ، جمهرة أشعار العرب ص٣٣٦ .
١٠٢ ـ الكهاة : الضخمة المسنّة ، العظيمة . الخيف : الضرع . الجلالة : الجليلة ، الضخمة . الوبيل : العصا . شبه الشيخ بها لطول سنّة ، وهزاله وضمره ، اليلندد : الشديد الخصومة .
١٠٣ ـ المؤيد : الداهية .
١٠٤ ـ أنور أبو سويلم ، مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي ص٣٧ .
١٠٦ ـ الجُلىّ : الأمر الجليل . والخنى : الفحشاء . الملهد : الملكوز المدفّع .

المصادر والمراجع

* أحمد ، محمد عبد القادر ، دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٣م .

* ابن الأنباري ، أبو بكر محمد بن القاسم ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، تحقيق عبد السلام هارون ط٥ ، دار المعارف مكتبة غريب ، ١٩٨١م .

* الجمحي ، محمد بن سلام (ت٢٣١هـ) ، طبقات فحول الشعراء ، تقديم : عبد الحميد فايد ، بيروت النهضة العربية .

* حسين طه ، حديث الأربعاء ، القاهرة : دار المعرف ، ١٩٢٥م ، وفي الأدب الجاهلي ، دار المعارف بمصر ط١٢ .

* خليف ، يوسف ، دراسات في الشعر الجاهلي ، القاهرة : مكتبة غريب ، ١٩٨١م .

* الخنساء ، ديوان الخنساء ، بشرح ثعلب ، تحقيق ، د . أنور أبو سويلم ، دار عمّان ، ط١٩٨٨م .

* أبو ديب ، كمال ، الرؤى المقنعة ، القاهرة : الهيئة المصريّة العامة ، ١٩٨٦م .

* ابن رشيق القيرواني ، أبو علي الحسن (ت ٤٥٦هـ) ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة : مطبعة حجازي ، ١٣٥٢هـ .

* روميّة ، وهب ، الرحلة في القصيدة الجاهليّة ، مؤسسة الرسالة ، ط٣ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

* ستيتكيفيتش ، سوزان ، القصيدة العربية وطقوص العبور ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مجلد ٦٠ح١ .

* أبو سويلم ، أنور ، مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي ، دار عمّار - عمان - ١٩٩١م .

* طبانه ، بدوي معلقات العرب ، دراسة نقدية تاريخيّة في عيون الشعر الجاهلي ، دار الثقافة ، الطبعة الثانية بيروت - لبنان .

* عبد الرحمن ، نصرت ، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ، مكتبة الأقصى - عمان ، ١٩٧٦م .

* ابن العبد ، طرفة ، الديوان بشرح الأعلم الشنتمري (٤١٠هـ - ٤٧٦هـ) تحقيق : دريّة الخطيب ولطفي الصّقال . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

* ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم ، (ت ٢٧٦هـ) الشعر والشعراء ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦م .

* القرشي ، أبو زيد ، محمد بن أبي الخطاب (ت١٧٠ أو ٢٣٠هـ) جمهرة أشعار العرب ، تحقيق : علي محمد البجاوي بدون تاريخ وذكر اسم للمطبعة ومكانها .

* ناصف ، مصطفى ، قراءة ثانية لشعرنا القديم ، بيروت ، دار الأندلس ، ط٢ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

* الهاشمي ، محمد علي ، طرفة بن العبد حياته وشعره ، بيروت ، عالم الكتب ، ١٩٨٠م .

مـي زيـادة .... ناقـدة

الدكتور أحمد موسى الخطيب
كلية الآداب - جامعة البنات الأردنية

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تجلية جهود مي زيادة النقدية ، وتثمين دورها في حركة النقد العربي المعاصرة ، وذلك علي المستويين النظري والتطبيقي .

فعلى المستوى النظري سعت الدراسة إلى جمع شتات مقولاتها النقدية المتناثرة على امتداد تراثها . وعلى المستوى التطبيقي وقفت الدراسة على المناهج النقدية التي استعانت بها ، ومدى وعيها بإمكانية كل منها .

Abstract

This study aims to shed light on Mayy Ziyada's critical attempts and evaluate her role in the contemporary Arabic critical movement at both theoretical and applied levels.

At the theoretical level, the Study attempts to survey critical articles in her writings whereas it highlights the critical methods she used at the applied level.

لقد تركت «مي زيادة» (١٨٨٦ ـ ١٩٤١) تراثاً ضخماً، تنوّعت مجالاته بين الإبداع (شعراً، وقصّة، ومقالة، وخاطرة) وبين الدراسات الأدبية، بالإضافة إلى اهتماماتها السياسية، والاجتماعية، والعلمية، واللغوية، والتربوية . . وقد شغلت المرأة وهمومها حيّزاً كبيراً من تراثها . كما كانت صاحبة صالون أدبي مشهور، وذلك بما استقطبه من أعلام الحركة السياسية، والفكرية، والأدبية من مصر بخاصة، والوطن العربي بعامة . فقد شغلت الناس بصالونها، وبما كانت تكتبه من مقالات في الصحف والمجلات، فكانت ظاهرة عجيبة في قاهرة المعزّ، وهي الفتاة اللبنانية المسيحية المهاجرة . وعلى الرغم من هذا الاحتكاك الخصب، والتفاعل الحي في النصف الأول من القرن الحالي، وما شهده من حركة تنوير نشطة، وما اصطخب فيه من أفكار سياسية وأدبية . . إلاّ أنّ «مي» استطاعت أن تنأى بنفسها عن المعارك السياسية والأدبية التي اشتعل أوارها في تلك المرحلة .

ولا يعنينا من تراثها في هذه الدراسة إلاّ ما كان متصلاً بمنهجها النقدي وآرائها في الآداب والفنون، ويتمحور ذلك حول ثلاثة كتب هي : عائشة تيمور، ووردة اليازجي، وباحثة البادية . وهذا بالإضافة إلى بعض مقالاتها ورسائلها التي تناولت فيها كتابي جبران (المواكب ويسوع ابن الإنسان)، وشاعرية اسماعيل صبري، ومسرح كل من توفيق الحكيم وبير اندللو الإيطالي، وقصة أمبير جلوا لفكتور هوجو، وشعر شبلي شميّل .

وسنتناول في هذه الدراسة الجانب النظري في جهودها النقدية، ثم سنعرض للجانب التطبيقي منه، وبعد ذلك سنعرض لمجموعة ملاحظات متصلة بتراثها النقدي، لنخلص إلى تثمين لدورها في حركة النقد .

الجانب النظري في تراثها النقدي :-

لم تترك لنا «مي زيادة» مباحث نقدية مستقلة تعرض لفكرها النقدي، إنما تناثرت مقولاتها في مفهوم النقد، ودور الناقد وأدواته، وثقافته، وموضوعيته خلال تراثها النقدي التطبيقي . لذا سنلجأ في الوقوف على فكرها النظري إلى اقتباس عدد من مقولاتها في هذا المجال .

فهي تُعلي من شأن النقد ، وترى أنه سمة عصرية «فالنقد من أخصّ خواص عصرنا في السياسة ، والإدارة ، والقانون ، والتاريخ ، والآداب ، والاجتماع» وتراه «شائعاً بمختلف اللهجات والأساليب ، حتى الاكتشافات العلمية وانقياد عناصر الطبيعة لخدمة الإنسان ، جاءت عن طريق النقد» .(١)

وترى أنّ النقد الأدبي يمتاز عن النقد في سائر المعارف الأخرى ، حيث أنّ الأساس في نقدها (تلك المعارف) هو تحديد الخطأ والصواب ، أما النقد الأدبي فلا إطلاق فيه .(٢)

فليس النقد عندها «بالبلاغ العسكري يعلن الأحكام العرفية ، ولا هو بالمنشور الأسقفي يحرم عضواً من شركة المؤمنين وشفاعة القديسين ، ولا هو بأمر «المعلم» القروي (على الطراز القديم) غضب على تلميذ مسكين لم يحفظ أمثولته كما ينبغي ، فحظر عليه أن يأكل ، أو يشرب ، أو يتحرك ، أو يتنفس بغير سماحة . كلا ، ليس النقد بشيء من ذلك .(٣)

ولكنها تراه «نظرة فرد معرّض للخطأ في عمل فرد آخر معرض للخطأ ، يختلف عنه ميولاً ، وتأثيرات ، وكفاءة ، ووراثة» .(٤)

ولذلك فهي تسخر من أولئك النقاد العصريين الذين يمارسون مهمتهم من موقف سلطوي بطريركي ، ويرون النقد طعناً ، وتحاملاً ، وتجريحاً . . ولا يلتفتون إلى غير ذلك في العمل الفني . ومن أجل ذلك تقترح أن تُستبدل كلمة نقد (بتمييز) ، لأنها الأقرب إلى طبيعة دورهم «فلعلّ كلمة نقد هي التي أوهمت معالج النقد ، وأوهمت الناس أنه لا بدّ من الطعن والتحامل ليكون النقد (بارعاً)» .(٥)

فللنقد عندها أدبيّاته وأخلاقه ، التي تسمو به إلى مكانة تليق بالجهد الإنساني المبذول في العمل المبدع ، أياً كان هذا الأثر . «فإذا كان الأدب واجباً في الخطاب الشفهي ، فهو في الخطاب الكتابي أوجب . وأول مظاهر الأدب هو التهيّب أمام شخصيات الناس ، لكونها شخصيات إنسانية فحسب ، فكيف بها إذا هي بذلت مجهوداً ما ، وكانت ذات ميزة علمية ، أو فنية وأخلاقية» .(٦)

ولعل في هذا ما يفسّر لنا نأيها بنفسها عن الصراعات والمعارك الأدبية ، وعلاقتها الطيبة

بكل رموز الحركة الفكرية والأدبية آنذاك. ومن أجل ذلك فهي تعلن اعتراضها على صورة «النقد الحديث» آنذاك، التي تراها قد أخلّت بأدبيات النقد، وجعلته نقيض «التقريظ» العتيق. ويحلو لها أن ترسم صورة ساخرة لواقع النقد الحديث، فتقول: «ويفكّهني أن أتخيّل أحياناً أنّ جميع اصطلاحات الثناء والإطراء «قد أضربت عن العمل» هي الأخرى لحين ما، فتكأكأت في مكان واحد متماسكة متجمّدة، ففاجأتها قنبلة تائهة، فافرنقعت متطايرة أشظاظاً ملتهبة تقمصت بفضل بعض النقدة «العصريين» قذفاً، وطعناً، وتهجماً..»(٧).

ترى «مي» أنّ النقد الأدبي في حالتنا الأدبية الحاضرة ضرورة للفنان وللجمهور المتلقي، وهي في ذلك تستعير إجابة الشاعر والناقد شارل بودلير عن سؤال: ما نفع النقد؟ فيقول: «الفنان يلوم الناقد في أنه لا يفلح في تعليم المتفرج للرسم والنظم. وهوكذلك لا يعلّم الفنان الذي لولا فنّه ما كان النقد»(٨).

وهي تنطلق في تقديرها لدور الناقد في حياتنا الأدبية من وعيها بالبنية الثقافية للجمهور العربي«فالكاتب الأجنبي يخاطب قومه بلا شرح ولا تعليق، أما نحن فعلينا أن نشرح ونعلّق لأنّ جمهورنا جماهير»(٩) فنحن في حياتنا الأدبية الحاضرة «أشبه ما نكون بالعبرانيين في صحراء التيه، فأنّى لنا الدليل الخبير ليسير أمامنا في النهار عموداً من السحاب، وفي الليل عمود نار يضيء لنا؟»(١٠).

وبما أن الناقد ينهض بهذا الدور الكبير الفاعل في حياة الجماعة، فهو مطالب بأن يعدّ نفسه لدور الهادي الخبير، وذلك من خلال ثقافة موسوعية تعينه وتسعفه في فهم النص، وتحليله، واستبطانه، وتقديمه لجمهور المتلقين. وهي ترى أن الشاعر لا يحتاج إلى أكثر من الشعر، ولا يحتاج العالم إلى غير العلم. «أما الناقد فإن لم يكن ذا إلمام بالعلوم والتواريخ، جامعاً بين الفطانة والصدق، ذا مقدرة لمسايرة أبعدَ شاعريةٍ، وتفهّم أدقّ فكرةٍ، وقبول كل نظام، والتقمّص في كل فرد، والخضوع لكلِّ تأثير، إن لم يكن كلّ ذلك تصحبه مواهب أخرى، فلست أدري ماذا يكون، لا أدري كيف يتصدّى للنقد العام»(١١).

ويتضح من هذا القول تأكيدها على توفر مواهب أخرى عند الناقد بالإضافة إلى موسوعية ثقافته، فترى أنّ اتساع معرفته وشموليتها بحاجة ماسة إلى رقة الإحساس

ورهافته ، واتخاذ الطبيعة بأسرها ، بإنسانها ومجتمعها مقياسا له . هذا بالاضافة إلى ضرورة تأثره بما يتناول من تجارب لينقدها بانفعال ، فوظيفة الناقد لا تنفي إنسانيته . كما أنّ الانفعال يقرّب بين الأمزجة المتشابهة ، ويسمو بالمدارك إلى علوّ جديد ، وبهذا تتحقق منفعة المبدع والمتلقي معاً .(١٢)

وإذا كان الاطلاع والملاحظة ، والاختبار مع الملكة الفطرية يشكلان عندها شرطين لازمين متماسكين لوجود الناقد الحقيقي ، إلاّ أنها ترى «الملكة الفكرية» أكثر ضرورة ، «لأن وجودها يقبل المزيد والاتساع . وإن لم توجد فجميع المطالعات ، والأسفار والاختبارات تعمل في محق القليل الذي أفلت من أصابع الطبيعة ، وهي تقذف إلى الحياة بمن لم تشأ أن تجعله من أهل الذوق» .(١٣)

ولا يخفى أنّ وعيها الدقيق بدور الناقد ، وخطورة ما يقوم به وراء حرصها على ثقافة الناقد ، واحتشاده فكرياً ، وشعورياً ، وإنسانياً عند تصدّيه للعمل الأدبي ، فالناقد الحقيقي في رأيها أستاذ الحياة ، لذا عليه أن ينظر إلى الأثر الفني والتعبير الفني ، ومن ورائه الطبيعة وما وراءها لا يغيب عن بصره ، فيشرح ما في البيان الفني من معلوم ومجهول ، أو من نقص في العلاقات ، أو من علاقات مختلفة «فالناقد العليم القادر «أستاذ الحياة» بما فيها من العلانية والأسرار والمتحركات والسواكن . يعرّفها للفنان الذي عالجها صامتا ، ويعرّفها للجمهور الذي يحدّق فيها جاهلاً» .(١٤)

وتثير «مي زيادة» قضية مهمة في النقد الأدبي ، تتصل بالحيدة ، والموضوعية ، والتّجرد ، والاقتراب الحميمي من الأثر الفني موضوع النقد . فهي ترى أنّ الزم مميزات الناقد هي العطف ، ولا تعني بالعطف الإغضاء ، والتساهل ، واعتبار العيوب والنقائص حسنات وكمالات ، وإنما تعني به عكس التحامل والتعنّت ، ليتهيأ للناقد «التجرّد عن ذاتيته تجرّداً موقوتاً ، يتسنّى معه الدخول في حياة المنقود شاعراً معه ، متوجعاً لحاجته ، مراعيا عادات بيئته ومطالبها ، خاضعاً لجميع مؤثرات المحيط ، طالباً لحين غايتَهُ من الحياة(١٥) ، وهي ترى ذلك السبيل الأمثل لفهم التجربة ، والغوص في عوالم صاحبها ، فإن لم يصل إلى هذا الحد من الفهم ، فلن يستطيع أن يكون رسول المبدع إلى جمهور المتلقين .

والنقـد ـ في رأيهـا ـ شـأنه شـأن الحـرية ، والعلم ، والفن لا يأتي طفـرة ، بل هو خـبـرة متراكبة متنامية ، وتمرين متتابع طويل لكفاءة طبيعية .(١٦)

ويبدو أنها ترفض أن يتحول النقد إلى مجموعة كليشيهات مكرورة باردة ، يرددها الناقد في آلية مملّة ، تشبـه حلّ التمـارين الرياضيـة . وإنما هي ترى أنّ خيـر النقـد هو النقـد المنوّع ، الذي ينأى بصاحبه عن الوقوع في النمطية والتكرار .(١٧)

ولعلها ترى عمل الناقد الحقيقي أكثر صعوبة وتعقيداً من عمل المبدع ، فالأخير تكفيه عـاطفة واحـدة ، أما النـاقد فـلا أقل من عاطفتين اثنتين : إحداهمـا للشعـور مع موضوعـه . والأخرى للتميّز عنه ، والعودة إلى شخصيته (الناقد) يستمد منها قوة التبيُّن والحكم(١٨) . وبدافع من هذا الفهم لعمل الناقد ترى أنّ التراث النقدي لكبار الشعراء لا يقل قيمة عن غررهم الإبداعية» والذي لا يعرف أن يعجب بنفائس الفن عند «دانتي» مثلاً ، وبترارك ، وميكلانجلو ، وفاجنر ، وجوتي ، وهايني . . يستفيد مما تجلّى من طبيعتهم من عميق البحث ، ونافذ البصر ، وواسع الاطلاع ، وعالي الحكم» .(١٩)

حين نتأمل إبداعات مي زيادة (شعراً ونثراً) نجد أنها ـ على مستوى الموقف وأدوات التـشكيل الجمـالي ـ تنتـمي إلى المذهب الرومـانسي . ونحن نعلم أنّ فـتـرة المجـد الأدبي والاجتماعي لها (١٩١٥ ـ ١٩٣٥) قد رافقت ظهور هذا المذهب وازدهاره في حياتنا الأدبية .

وفي تراثهـا النقدي مواضع تنبىء عن وعيهـا بمعـايير المذهب الرومـانسي(٢٠) وكـيـف يستبطن الشعراء فيه ذواتهم ، وينكفؤون على أنفسهم يتلمسون جراحاتهم ، ويستوحونها . وكيف يتخذون من الطبيعة وسيلة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم ، يقفون إزاءها مفتونين بصورها ، وألوانها . . . فيكتنهون فيها مغزى المعالي .

وهي تدرك أن النزعـة الوجدانية في الآداب العالمية مـدينة لجان جاك رسّو موجد تلك النزعة في الأدب الغربي ، والذي سرت منه إلينا ، وتأثر بها الجيل الجديد من شعرائنا في مطلع هذا القرن .

وعلى الرغم من وعيها بالمذهب الرومانسي على المستوى النظري والإبداعي ، إلاّ أنها ـ كما سنرى في تراثها النقدي التطبيقي ـ لم تهوّن من شأن التجربة الشعرية الكلاسيكية ،

كما فعل غيرها من النقاد الرومانسيين آنذاك ، وبخاصة في موقفهم من تجربة أحمد شوقي ، بل تبنّت موقفاً توفيقياً لا يعلي من شأن التجربة العصرية على حساب التجربة الكلاسيكية ، لأنّ الأخيرة ما زالت تلبي حاجة جمهور عربي كبير . وهي ترى «ضرورة» وجود أنصار القديم قرب الاخرين ، لأن عندنا جمهوراً لا يقوده غيرهم ، ولأنهم حرّاس إرث الماضي .(٢١)

ويذكر خليل مطران أن الشعر من حيث هو أعاريض وقواف قد أصبح من الأشياء التي تفكّر فيها «مي» كما يُفكّر في التحف الفنّية ، والألطاف البديعيةً ، ولكن «لم يحصل أن ميّا آثرت ديواناً على ديوان ، أو فضّلت شاعراً على شاعر . . . كما لم تغرم بالموازنات بين شعر وشعر ، لأنها كانت تخشى بذكر إيثارها لنوع من الشعر على الآخر أن يكون في ذلك تثبيط لأية حركة تريد أم الشرق أن تندفع بها إلى تبديل أو إصلاح فيما ألفتْهُ ، وجمدت عليه دهرا طويلاً» .(٢٢)

ولعلها بهذا الموقف الذي يتسم بالموضوعية ، ويجنح إلى السلامة ، وينأى بصاحبه عن دوّامات الصراع والتعصّب ، وتنطلق فيه عن وعي بالبنية الثقافية للجمهور العربي ، وبالينابيع المختلفة التي يمتح منها جمهور شعرائنا آنذاك ، لعلها بذلك كله تعكس مرونة تحسب لها ، وتحمد عليها . وأكثر من ذلك ، يمكن أن نعدّه احتجاجا بطريقة لبقة على صورة النقد الحديث ، الذي وقع في حبائل التعصّب ومتاهاته الضيّقة .

ثانياً : الجانب التطبيقي في تراثها النقدي :-

لعل أهم تجارب «مي» في النقد التطبيقي تناولها لمجمل تجربتي الشاعرتين : عائشة تيمور (١٨٤٠ - ١٩٠٢) ، ووردة اليازجي (١٨٣٨ - ١٩٢٤) وذلك في بحثين مستقلين . هذا بالإضافة إلى مجموعة مقالات نقدية تناولت فيها عدداً من الكتاب العرب المعاصرين ، وهم (جبران ، واسماعيل صبري ، وشبلي شميل ، وتوفيق الحكيم) ، بالإضافة الى الكاتب الإيطالي المسرحي بيراندللو ، وفكتور هوجو في قصته «أمبير جلوا» .

أما دراساتها المستقلة «باحثة البادية» فيمكن استبعادها لأنها أدخل في كتابة السيرة ، كما أنها دراسة نقدية فكرية لا أدبية ، تناولت فيها أفكار باحثة البادية الإصلاحية التي وردت في كتابها «النسائيات» بالعرض ، والشرح ، والتعليق .

والملاحظ أنها أعطت جلّ اهتمامها لنقد الشعر، فما زال الشعر آنذاك الفن القومي الأول، ولم تكن الفنون المستحدثة (الرواية، والقصة القصيرة، والمسرحية) قد نازعته المكانة، واستحوذت على اهتمام النقاد. ومع ذلك، فقد تناولت بالنقد تجربة بيراندللو المسرحية، وقصّة أمبيرجلوا لهوجو، ومسرحيتي توفيق الحكيم (أهل الكهف، وشهرزاد).

وسنحاول الآن الوقوف على المناهج النقدية التي اعتمدت عليها في دراستها لكل من عائشة تيمور، ووردة اليازجي بشكل خاص، دون أن نهمل مقالاتها النقدية الأخرى ما أمكن.

والملاحظ أنها حين تناولت تجربتهما لم تحصر نفسها في منهج بعينه، فقد استخدمت كلاً من المنهج التاريخي، والفني، والنفسي. وهي ترى أن لكل منهج إمكاناته الخاصة التي لا تتحقق في سواه، وكأنها تؤمن بضرورة الأخذ بمنهج تكاملي، حتى يتسنّى لها إضاءة مجمل جوانب التجربة.

وإذا تناولنا تلك المناهج عندها كلاً على حدة، سنجد أنّ التفسير التاريخي الاجتماعي للأدب هو الأوفر حظاً في تراثها. ويستعين الناقد - في هذا المنهج عادة - بتاريخ العصر ونظمه السائدة لاستجلاء فضاءات النص الأدبي، وإدراك ما خبّأ الزمن وراء حروفه. وهو يستعين بالعصر على الفهم.[٢٣] واشتهر بهذا المنهج المنظّرون الألمان أمثال هيجل، وهيرد، واشتهر آخرون في أقطار مختلفة، منهم كروتشه الإيطالي، ولوكاتش المجري، وديوي الأمريكي، وتين الفرنسي[٢٤].

وقد بلغ المنهج تمام نضجه في منتصف القرن التاسع عشر على يد الناقد الفرنسي «تين» وأقرانه، أمثال شاتوبريان، وسانت بيف[٢٥]، وقد انتهى «تين» إلى أن الموهبة الأدبية هي نتاج معالم ثلاثة، هي : الجنس، والبيئة، واللحظة. وقد ذاع هذا المنهج في دراسات نقادنا في النصف الأول لهذا القرن، أمثال طه حسين في « تجديد ذكرى أبي العلاء» و «مع المتنبي»، وعباس محمود العقاد في «شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي»، وقد تناوله الدكتور شكري فيصل تحت مسمى «النظرية الإقليمية»[٢٦]. كما سبق وأن عرفه نقادنا القدامى كابن سلام في طبقاته، والأصفهاني في أغانيه.

ففي دراسة «مي» لتجربة عائشة تيمور، تفرد أربعة فصول لدراسة عصر الشاعرة بمناحيه الفكرية، والاجتماعية، والسياسية، ولدراسة بيئتها الخاصة، فتناولت فيها نشأتها، وزواجها، وما بعد زواجها، وبيئتها الاجتماعية والمعنوية، ثم أفردت بقية الدراسة لتناول الناحية الفنية في فصلين فقط، وجعلت الفصل الأخير لمعالجة تراثها النثري.

أما دراستها لديوان اليازجية فتقع في ستين صفحة من القطع المتوسط، جعلت ثلثها الأول عن حياة الشاعرة، وبيئتها الخاصة، ولم تعوّل - مثل دراستها السابقة - على دراسة البيئة العامة للشاعرة بمناحيها المختلفة.

ويبدو أن «مي زيادة» كانت تدرك بعض مزالق هذا المنهج، مثل الوقوع في التعميم وإلغاء الخصوصية الفردية. فهي تقول بداية، وقبل أن تشرع في تناول تجربة التيمورية «وهذه الصورة التي أرسم من التيمورية إنما هي نظرة فردية في طبيعتها، ولا زعم لي أنها صورة مطلقة»(٢٧) لذا كانت حريصة كل الحرص على دراسة الشخصية المبدعة، وظروفها الخاصة، ومزاجها، وعواملها الشخصية، وكأنها كانت تفرز الفرد من المجموع، لتعرف ما هو فردي، وما هو جماعي.

ومن أجل ذلك تراها تُعنّي نفسها في تكوين صورة فوتوغرافية للشخصية(٢٨)، محاولة استنطاق ملامحها، لتستدل منها على بعض خصوصية البواعث الفردية.

والملاحظ أنها تستخدم المنهج التاريخي على نحو يوحي بوعيها بأصوله وقواعده، فنجدها حيناً تدرك أن دراسة التاريخ ليست غاية، وإنما هو وسيلة لفهم العمل الأدبي، لذا كانت معنية بدراسة مدى تأثر العمل الأدبي أو صاحبه بالوسط، ومدى تأثيره فيه. فحين وقفت على تفاصيل الحياة لليازجية، لاحظت أنه لا أثر لتلك الحياةْ الخاصة في شعرها الذي لا يرسم إلا الخطوط الظاهرة، ولا يتكلم إلا عن الحوادث المألوفة من زواج، وولادة، وموت. وتذهب إلى أبعد من ذلك، فتقول: وإذ أستجوب صورة لها صُنْع شقيقها الشيخ إبراهيم، وهي في سن الخمسين، أشعر بوضوح أنها كانت في طبيعتها أغنى منها في شعرها.(٢٩)

كما أجادت في وصف علاقة التيمورية المتميزة والأكثر من حميمة مع ابنتها توحيدة، والتي ألهمتها العديد من مراثيها. أما تناولها لبيئة التيمورية المعنوية، فكانت موفقة إلى حد

بعيد في الربط بين شعرها وتلك «الغربة» الروحية والفكرية التي كانت تستشعرها في بيئتها .(٣٠)

ولكننا نجدها ـ في أحيان أخرى ـ تستخدم التاريخ غاية لا وسيلة ، فتحدثنا في مبحث «الحياة المنزلية»(٣١) عن مدينة القاهرة في منتصف القرن التاسع عشر ، فتقف عند طُرزها المعمارية وآثارها ، ومظاهر الترف والعوز ، وتقف طويلاً أمام تفاصيل أحد منازل الطبقة العليا ، الذي يشبه منزل والد الشاعرة . ثم تحدثنا عن بعض عادات النساء في تلك المنازل .

ومثل هذا حديثها المستفيض عن خلاف والد الشاعرة وأمها المنصب على تحديد اهتماماتها . فنجدها تخرج إلى تناول قضايا تربوية بعيدة عن صلب موضوعها(٣٢) ، تجعلها إلى المُصلحة الاجتماعية أقرب منها إلى الناقدة . ويشبه هذا إسرافها في الحديث عن توجيه والدها لها إلى العلم والفن ، وحديثها عن موقف الاسلام السمح من الرقيق(٣٣) ، لأن والدة الشاعرة كانت في الأصل معتوقة جركسية لوالدها . ولا ندري ـ أيضاً ـ ما قيمة وصفها المتخيّل لزواج الشاعرة(٣٤) . فكل هذه المواضع لم تحسن توظيفها للاقتراب من تجربة الشاعرة ، أو لنقل : لم توفّق فيها بالربط بينها وبين تجربة الشاعرة . وبهذا خانها التوفيق ، إذ أسرفت في استخدام التاريخ وظروف البيئة . فالتاريخ لا يعنينا في الدراسات الأدبية إلاّ بمقدار ما يعين على تفسير التجربة وإضاءتها . فصميم عمل الناقد النص الأدبي بما فيه من حياة العواطف والأخيلة . وقد هاجم الناقد الإنجليزي أرنولد منذ وقت مبكر المنهج التاريخي بسبب ما لاحظه فيه من ضعف العنصر النقدي ، وانشغال أصحابه بالتاريخ دون الأدب(٣٥) ، كما فعلت مي زيادة في تلك المواضع .

والملاحظ أنها قد أغفلت الالتفات إلى عامل «الجنس» وأثره في دراسة تجربة الشاعرة . ولعلها قد قصدت ذلك ، لأن الشاعرة تنحدر من أصول تركية ، ولم تُعرف أمة الترك ـ كالعرب واليونان مثلا ـ بميزة الإبداع الشعري ، وهذا مما يحسب لها ، فلم تتعسف في تطبيق قواعد المنهج التاريخي كافة كما بلورها «تين» .

وإذا تأملنا تناولها لتجربة «اليازجية» سنجد أنها قد أسقطت تلك المداخل لدراسة العصر والبيئة ، واكتفت بتقديم لمحة موجزة عن حياة الشاعرة وبيئتها ، وَثَبَتْ بعدها إلى تجربة الشاعرة .

ولعلها بذلك تقدم توجيهاً في النقد الأدبي ، فهي من ناحية لا ترى حاجة لدراسة مرحلة تناولتها في دراسة سلفت ، ومن ناحية أخرى ربما أدركت أنها قد أسرفت في الاتكاء على التاريخ في مداخل دراستها السابقة .

المنهج الفني :-

والمنهج التاريخي غير قادر على تفسير الجمال في الأدب ، فهو إلى جانب موضوعيته بحاجة إلى قسط من المنهج الفني(٣٦) ، وهذا ما أدركته «مي» في دراستها للشاعرتين ، إذ استعانت بالمنهج الفني لتجلية الخصائص الفنية ، وهذا المنهج هو الذي عرفه النقد العربي - أول ما عرف - عرفه ساذجاً أولياً في مبدأ الأمر . فقد بدأ النقد تذوقاً محضاً ، لا يتعدى التذوق إلى التعليل ، ولا يتجاوز المرحلة التأثيرية البحتة ، لكنه تطور عبر جهود منظومة مقدّرة من نقادنا القدامى أمثال ابن سلام ، وابن قتيبة ، والآمدي ، وأبو الحسن الجرجاني ، وعبد القادر الجرجاني ، وابن رشيق ، الذي حاول أن يضع قواعد وأصولا للنقد لم تخرج في الغالب عن حدود المنهج الفني(٣٧) .

ويمكن القول أن المنهج الفني كان هو الغالب في النقد الأدبي ، وأن خطوات النقد الأدبي قد توقفت بعد عبد القاهر ومعاصره ابن رشيق إلى أن استؤنفت في العصر الحديث . وكانت مي زيادة واحدة من النقاد الذين أخذوا يستأنفون دور هذا المنهج في نقدنا الأدبي ، مع الاستعانة بمناهج أخرى معه ، وبخاصة المنهج التاريخي .

يعتمد المنهج الفني أولاً على التأثر الذاتي للناقد ، وهو تأثر يسبقه ذوق فني رفيع ، يعتمد على الهبة الفنية اللدنية ، وعلى التجارب الشعورية الذاتية ، وعلى الاطلاع الواسع على مأثور الأدب البحت والنقد الأدبي كذلك . كما يعتمد ثانياً على القواعد الفنية الموضوعية ، وهي تتناول القيم الشعورية والقيم التعبيرية للعمل الفني(٣٨) .

كانت «مي» تتقن خمس لغات حيّة ، أتاحت لها اطلاعاً واسعاً على مأثور الأدب والنقد الأدبي . كما كانت صاحبة موهبة شعرية ، فقد نشرت عام ١٩١١ديوانها «أزاهير حلم» بالفرنسية ، ثم نظمت بالعربية بعض القصائد الحرّة التي تعدّ ريادة على طريق تحديث الشعر العربي .

وقد ترجم جورج نيكولاس بعضاً من إبداعاتها ، ونشرها في المقتطف عام ١٩٣٤م ، وقدم لتجربتها «نشيد إلى الشرق» بأنها من «الشعر المنثور»[٣٩] .

وقد كتبت بالفرنسية عام ١٩٣٥ قصيدة بعنوان «ارتياب» ، ثم ترجمتها بنفسها إلى العربية ، وأشاد بها أحمد الزيات في تقديمه لها ، حين نشر القصيدة في مجلة «الرسالة» باللغتين ، ومنها تقول[٤٠] :

صديقتي يا ذات العينين الكبيرتين الوديعتين ، روحي تناديك !

الريحُ في هذا المساء تهبُّ هوجاء شديدة الوطأة ،

الريحُ تجأرُ ، وصوتُها العصيُّ الناحب ،

يُرجّعُ فيَّ دويَّ الصدى عصيًا مكبوتا .

صديقتي يا ذات العينين الكبيرتين الوديعتين ، روحي تناديك !

* * * * *

في اكتئاب أحلمُ ، جالسةً بين الأزدهار ؛

جناح الإعصار يلطمُ نافذتي ،

السماءُ تبكي : واهاً لهذه الدموع ! هذه الدموع المنتحبة

ماذا تحرّكُ بسيرها في أعماق الكيان ؟

في اكتئابٍ أحلمُ ، جالسةً بين الأزهار

* * * * *

فطريقة الكتابة هي ذاتها التي عرفناها وألفناها في تجربة الشعر الحر بعد ذلك ، عدا أنها غير موزونة ، كما أنها تستخدم لغة لها كثافة لغة الشعر واكتنازها ، وقد توفرت لها عناصر الإيقاع الظاهرة ، بالإضافة إلى عناصر الإيقاع الداخلي العميق ، الذي حققه اعتمادها على الصورة على نحو يجعلها تتجاوز عاديّة لغة النثر ، لتلج آفاق جماليات التجربة الشعرية .

ويبدو أنّ هذه التجربة ـ التي نحن بصددها ـ ذات صلة وثيقة بأزمة (مي) النفسية ، التي تفجّرت بُعيد نشرها في العام ذاته . وهي تصرّح بذلك على امتداد القصيدة ، وبخاصة في المقطع الأخير ، حيث تقول :

وهذا المساءُ الحالكُ الممطرُ مساءُ وداع ؛

قاتمةٌ هي أفكاري ، والغمُّ يطبقُ عليّ ؛

ارتيابٌ خبيثٌ يُخالط قلبي المستسلم للحنان :

ماذا لو كان قلبك مغروراً محتالاً ؟ . . .

وهذا المساءُ الحالك الممطر مساءُ وداع . . .

وقد نشرت بعدها قصيدتها «هو ذا الربيع» في مجلة «الرسالة» وكانت مجلة «الهلال» قد نشرت هذه التجربة عام ١٩٢٣م بصيغة مختلفة ، وقد استهلتها بقولها [٤١] .

الربيع ، الربيع ، هو ذا الربيع ؟

في قمر الأسمار ، في انبلاج الأسحار ،

في مرح الأطيار ، في عبير الأزهار ،

في النهار الدوّار ، في الأصيل البديع! .

الربيع الجديد ، هو ذا الربيع! .

وقد جاءت في ستة مقاطع طويلة غير المقدمة ، ولنتأمل المقطع الأخير منها ، وما يفيض به من ماء الشعر ، مع ملاحظة غياب عناصر العروض الخليلي من تجربتها ، حيث تقول :

هو ذا الربيع ، هو ذا الربيع :

مغرياً في الفضاء ، فتّاناً في الحدائق ،

بهيجا في الألوان ، رشيقاً في الشقائق ،

طروباً في قلب الجذلان!

هو ذا الربيع ، هو ذا الربيع!

كئيباً في قلب المظلوم ؛ جريحاً في قلب المحروم .

شاملاً بعطفٍ نصفه قسوة ،

حاضناً برفقٍ نصفه عنف ،

موحياً أملاً نصفه يأس ،

مذكياً خصباً نصفه قحل ،

حافزاً شباباً نصفه هرم ،

مجدداً حياة نصفها ردًى ،

الربيع ، الربيع ، لمن يكون الربيع؟

الربيع الجديد هو ذا الربيع !

الربيع العابر ، هو ذا الربيع .

وقد دخلت «مي» بعد ذلك في أزمتها النفسية والصحية ، التي انتهت بوفاتها عام ١٩٤١م ، ولم تكتب إبّان ذلك إلا النزر اليسير ، ومنه تجربة من «الشعر المنثور» أو من قصيدة النثر بعنوان «تحية الربيع» عام ١٩٤٠ ، كتبتها متأثرة بأحداث الحرب العالمية الثانية المروعة[٤٢] .

وهناك تجارب أخرى لها من هذا القبيل ، تتفاوت في مدى انعتاقها من لغة النثر ، وسذاجة الإيقاع ، مثل تجربة «نشيد نهر الصبا»[٤٣] و «العيون»[٤٤] . ولعلّ تجربتها «احرصي على قلبك» أعلاهنّ قامةً ، فهي تقول منها[٤٥] :

تحلّت الشمس في الأوج تحت رواق الفلك ،

والأشعة تغازل الأزهار ، وتوسع المياه عناقاً وتلويناً ،

والمنازل تسطع كحجارة كبيرة من نور ؛

وانتعشت جميع الأشياء انتعاش من خرج من أزمة وانفرج ،

أما أنت فتلوبين جائعة عطشى ،

تقولين ما يجب ألاّ يقال ،

وتفعلين ما يجب ألا يُفعل ،

ثم تأسفين على القول والفعل ، وتعودين تلوبين ـ

ووراء الملل والسأمة وهيجٌ فيك واحتدام ؛

أخبريني ما بك ، أيتها الفتاة! .

وقد اضطررنا للخوض في هذا الجانب من نتاج «مي» لأن أحداً لم يجلّيه ، أو يلتفت إليه ، وأردنا أن نخلص منه الى القول بأنها كانت ناقدة مؤهلة لأن تستخدم المنهج الفني بجانبيه الذاتي والموضوعي .

ويتجلى جانب التأثر الذاتي عندها في تأكيدها على الأصالة في الإبداع ، وسعيها الدائب في تلمّس الصدق الفني في التجارب التي تتصدى لها بالنقد . وليس من شك في أن الصدق هو الشرط الأول في كل عمل أدبي عظيم .

ففي تناولها لشعر المجاملة عند التيمورية تقرّر أن «المجاملة عندنا حلّت مكان الصدق»[٤٦] ولكن هذا لم يحُل دون اعترافها ببعض الصدق في هذا اللون الشعري عندها ؛ وبخاصة في مدائحها للخديوي . وهي تحاول أن تربط بين مديحها للخديوي وتقديرها له وتعريضها بالعرابيين ، وبين عاطفتها الوطنية ، حيث تقول تعقيباً على قصيدتها القافيّة :

«ففيها تتلخص عاطفتها الوطنية ، وبها تحب جو مصر السعيدة ، ونيلها الفياض ، وألحان أفراحها ، تريد لمصر الخير والصلاح والهناء بواسطة الخديوي الذي ترى فيه أقدر عامل على ذلك» .

كما لمست لهجة الصدق في قصيدة المجاملة التي بعثت بها اليازجية إلى معاصرتها التيمورية «فعلى الرغم من أنّ موضوع الأبيات من الموضوعات التي تتطلب المجاملة لا سيما في ذلك العصر ، حيث لم يكن الصدق غرض الشاعر ، وكان يندر من الكتاب الذي يعنى بأمانة التفكير والتعبير»[٤٧] وحتى لا تقع في مزلق التعميم في أحكامها أردفت تقول «مع

تمام العلم بأن اكثر ما يتهاداه الأدباء والشعراء في أيامنا من هذا النوع ، وإن صار بعضهم أحرص على كرامة آرائهم» .(٤٨)

كما ترى أن أصدق صورة من شعر التيمورية العائلي في المراثي ، ولا سيما مرثاة ابنتها المحبوبة «توحيدة» والتي بلغت فيها بخاصة وسائر مراثيها بعامة أشجى قرار ، وأحرّ زفير .(٤٩)

وقد اتفق العقاد معها بعد ذلك في هذا الحكم المتصل بصدق رثائها ، وأنه الأجود في تجربتها ، وبخاصة رثاؤها لابنتها توحيدة(٥٠) ، والذي تقول منه(٥١) .

أمّاه ، قد سَلَفتْ لنا أمنية	يا حسنها لو ساقها التيسير
كانت كأحلام مضت ، وتخلّفت	من بان يوم البين وهو عسير
عودي إلى ربع خلا ومآثر	قد خلّفت عني لها تأثير
صوني جهاز العرس تذكاراً فلي	قد كان منه إلى الزفاف سرور
أمّاه لا تنسي بحق بنوّتي	قبري لئلا يحزن المقبور

وقد لاحظت أن التيمورية قد قالت الكثير من شعرها الغزلي محاكاة وتقليداً ، وصدّرت بعض أبياتها بقولها «وقالت متغزلة في غير إنسان ، والقصد تمرين اللسان»(٥٢) ولكن هذا لم يحجب الحقيقة عن «مي» ، تلك الحقيقة التي تصل إليها من خلال تلمسها للصدق الفني في شعر الغزل عندها . فهي ترفض أن تكون المقطوعة التالية «في غير إنسان ، بقصد تمرين اللسان» بل هي تعكس تجربة حب حقيقية ، حيث تقول :(٥٣) .

أشكو الغرام ، ويشتكي	جفنٌ تعذّب بالسهر
يا قلب ، حسبك ما جرى	أحرقت جسمي بالشرر
رام الحبيب لك الضنى	لم ذا وأنت له مقر ؟
لكن تعذيب الهوى	ما للشجيّ منه مفر .

وهي ترى أن شعرها أصدق لهجاته عندما تذكر هذا السعير الذي يضرمه الشوق ، وهي تستوحيه في أكثر غزلها .(٥٤) وتلمح «مي» أنّ خير شعرها الغزلي وأصدقه في القصائد التي

قيلت خلال رمد عينيها ، وبعد الشفاء منه ، يوم عادت إلى مشهد النور ورؤية وجوه الأحباب .[٥٥]

وهي تتخذ من معيار الصدق الفني سبيلاً للكشف عن حقيقة تجربة الغزل عند اليازجية ، والتي تبرقعها خشية سلطة المجتمع فتلجأ إلى التعبير عن مشاعرها بطريقة غير مباشرة ، فتجعل الأبيات موجهة إلى صديقة ، ولكنها في الحقيقة موجهة إلى صديق . وتتساءل «مي» أيمكن أن يكون هذا الخطاب «لصديقه»[٥٦] :

رَحَلَ الحبيبُ ، وحُسنُ صبري قد رَحَلْ ... فمتى يعود إلى منازله الأولْ

وتضيءُ أرضٌ أظلَمتْ من بَعده ... وتقرُّ عيني باللقا قبل الأجلْ

يا غائباً والقلب سار بإثره ... شوقي مقيمٌ في فؤادي كالجبلْ

إن كنتَ غِبْتَ عن العيونِ مُهاجراً ... فجميلُ شخصِكَ في فؤادي لم يزلْ

وتعقّب على المقطوعة محكمة ذائقتها وحسّها المرهف ، فتقول : «أما كيفية سير القلب في إثر الغائب ، وإقامة الشوق في ذلك القلب باسم «الفؤاد» ، «كالجبل» ، أي كيف يذهب القلب ويبقى في آنٍ واحد وفي بيت واحد ، فمن الأمور التي لا يعرف أسرارها إلا الشعراء والعاشقون» وتوالي الاستشهاد بعدد من المواضع في تجربتها الغزلية لتؤكد ما ذهبت إليه .

ولا يفوت «مي» أن تؤكد على ريادة التيمورية ودورها المتميز في ولوج باب طالما ظلّ موصداً في وجه المرأة العربية وعواطفها المشروعة . ويُسعفها اطلاعها أن توازن بين مدام دي ستايل ونزوع المرأة الغربية إلى التحرر في الفكر والتعبير ، وذلك في مطلع القرن الماضي ، وبين عهد التيمورية ، والمرأة حبيسة خدرها وراء الحجاب . وانتهت إلى أنّ شاعرتنا في طليعة نساء العهد الجديد المتعرّفات لحقّهن في حريّة العواطف ومشروعيتها ضمن حدودها الطبيعية . هي في طليعتهن ، لافي المشرق فحسب ، بل في العالم المتمدن كله .[٥٧]

ولا يخفى أنّ قولها (في العالم المتمدن كله) يفتقر للموضوعية ، وتشوبه المبالغة .

والملاحظ أن العقاد حين تناول التيمورية بالدراسة كان تقديره كبيراً لها ، وربما اتفق معها في جانب من حكمها حين قال «إننا لم نقرأ لمن نشأن بعد السيدة عائشة نظماً يضارع

نظمها ، ولا شاعرية تقارب شاعريتها»(٥٨) .

كما أنه يذهب إلى أنها تنتظم في أرفع طبقة من الشعر ارتفع إليها أدباء مصر أواسط القرن التاسع عشر إلى عهد الثورة العرابية(٥٩) .

لذا لا غرابة أن تقول اليازجية للتيمورية(٦٠) :

علّمْتِني قولَ النسيبِ ، وهِجتِ بي ما هاج حُبُّ بثينةَ لجميلِ

يتضح لنا مما سبق اهتمام «مي» بالعاطفة ، باعتبارها أحد عناصر العمل الأدبي الأربعة ، وهي : العاطفة ، والخيال ، والمعنى ، واللغة . «ومعيار القيمة في العاطفة هو صدقها . . والصدق الفني ينم على أنّ العمل الأدبي يخبر بشيء يتوافق مع الحياة ومع المحصلات الوجدانية»(٦١) هو بحاجة إلى ناقد ذوّاقة مرهف الحس «لأن الناقد الفاقد الحساسية لا يستطيع أن يكون ناقداً حقاً ، مالم يكن قادراً على أن يتلقى من العمل الأدبي أو الفني انطباعات واضحة ، لأنه عندئذ سيكون كالصفحة المعتمة ، أو المرآة المتربة ، ولن تجديه بعد ذلك في شيء جميع قواعد الجمال وأصوله ونظرياته»(٦٢)

ومي زيادة لم تكن تنقصها تلك الحساسية التي تهبها قدرة تلقّي انطباعات واضحة من العمل الأدبي ، وقد لاحظنا ذلك في وقوفها عند شعر الغزل والمجاملة في تجربتي التيمورية واليازجية . ولنأخذ مثلاً آخر تثمينها لتجربة الشاعر اسماعيل صبري ، والذي كانت تربطها به صلة حميمة ألهمته بعض شعره . فعند وفاته نشرت مقالة ضافية عن تجربته ، جاءت ضدّ توقّع جمهور المهتمين به ، والمؤبّنين له . فإلى جانب موضوعيتها في الحكم ، نلاحظ تركيزها على العاطفة ، ونلمس ما تتمتع به من حساسية متميزة(٦٣) .

ويمكن أن ندرك ذائقتها الأدبية ، وحسها المرهف ، وتركيزها على العاطفة والصدق الفني من خلال تناولها لمواكب جبران .(٦٤)

أمّا الجانب الثاني من المنهج الفني ، والذي يقوم على معرفة الناقد للقواعد الفنية الموضوعية ، والقدرة على تطبيقها ، فيمكن أن نتبينه في تناولها لتجربة التيمورية ، وبخاصة في حديثها عن لغة الشاعرة ، وتقديمها لمفهوم عبقرية اللغة ، وتعريفها للملكة الشعرية ، ووقوفها عند آفة التقليد في الشعر العربي القديم ، وما جرّه على شعرنا من تشوية ، وما نجم

عنه من فقر في الخيال ، وتقيّد باللفظ دون المعنى ، ومخاطبة لنا بلغة عصور خلت ، وجمع للفكرة في بيت واحد ، وخلل في اتساق الخواطر ، وحصر للشعر في أبواب ضيقة .. حتى أنّ ترتيب الدواوين وفق حروف الروي قد حرم الدارسين من متابعة تطور تجربة الشاعر .(٦٥)

وكنّا نتوقع منها أن تتناول هذه الملاحظات الفنية بالتطبيق على تجربة التيمورية ، ولكنها اكتفت بتقديم أحكامها في إشارة مقتضبة معزولة عن الديوان ، اللهم إلا ما تناثر بعد ذلك هنا وهناك خلال تناولها لموضوعات شعرها . فهي تقول : «جميع هذه العيوب في ديوان التيمورية» ثم شفعت حكمها المجمل بالاعتراف بالجوانب الإيجابية في ديوانها ممثلة في بروز شخصيتها ، وصدقها الفني الذي يضعها في مقدمة الصادقين من شعرائنا ، ومحاولتها تجاوز الأسلوب الهندسي (الكلاسيكي) في الشعر ، لتشكل - إلى حد ما - إرهاصة رومانسية . ويبدو أن الذي دفعها إلى هذا الحكم الأخير ملاحظتها أن شعر الشاعرة بطبيعته وجداني ، يندرج تحت الشعر الغنائي .(٦٦)

وحين تحدّثت عن تقليدية تجربة الغزل عندها ، لاحظت أنها لم تخرج عن القيم التعبيرية والتصويرية الموروثة في ديوان الغزل العربي ، فالتمست لتقليديتها العذر ، ورأت أنّ مرحلة التقليد في شعرنا الحديث إنما كانت مقدمة طويلة لعهد الرومانسية ، ثم شرعت في تقديم فهم موجز لقواعده الفنية .(٦٧)

وحين نتأمل تثمينها لتجربة اسماعيل صبري ، نلاحظ أن الأحكام التي قررتها لا تصدر إلاّ عن ناقد بصير بالقواعد الفنية للتجربة الشعرية على مستوى اللغة ، والصورة ، وبناء القصيدة . فهي ترى أنّ في كل ما نظمه اسماعيل صبري بعد طور الشباب «تتجلى دقة الوصف ، وسلاسة التعبير ، وسهولة الألفاظ ، واتقان الصيغة الشعرية ، ورسم اللوحة التامة المستكملة بخطوط قليلة . ما ردّدتُ أشعاره إلاّ زدت تقديراً لفن الصياغة الشعرية في الشعر والنثر ، وزدت تقديراً لأهمية البيان وجمال اللغة ونفاستها في الصحة والمتانة ، وفي حذف الزوائد ، وانتخاب الألفاظ ، وتنظيم أجزاء الخطاب ، ما ردّدتُ أشعاره إلاّ أدركت لماذا كان يضيق صدره لسماع الاستعارات التي تحجرت ، وفنيت منها القوة في تأدية المعنى الواحد المنسوخ دهوراً .(٦٨)

ولكنها لم تتجاوز هذا الوصف الدقيق ، وتلك الملاحظات الذكية إلى التطبيق العملي ، مما يجعل أحكامها أقرب إلى «الكليشيهات» المحفوظة والمكرورة لدى بعض النقاد ، لولا ما نستشعره ، من خصوصية في بعض تلك الأحكام .

هناك بعض صور من النقد الجزئي لديها ، أدخل في باب المنهج الفني ، ولكنها مجرّد ملاحظات ساذجة ، لا تعكس عمقاً ، ولا تقدّم تعليلاً ، ومن هذا القبيل تعقيبها على بيتين للتيمورية بقولها : «في منتهى اللطف هذان البيتان لا سيما الثاني» (٦٩) .

ومنه قولها : «ألا يذكرك هذا البيت ـ لا سيما الشطر الثاني منه ـ بالمعري وآرائه في الدهر ؟(٧٠)

وقد يأتي تعقيبها مجرد حلّ للشعر في صورة إنشائية تخلو من أي حكم نقدي كتعليقها على قول التيمورية :

فأَخْفِضُ الطَّرْفَ من حُزْنٍ أُكابِدُه   وأُهمِلُ الدَّمْعَ من تلك المقالات

بقولها : «واهاً لتلك الدموع ! تنصبّ في القلب عند كلام الحاسد والمتطاول ، وتدفع إلى التشاؤم في نبالة الفطرة البشرية ، ثم تنهمر في الخلوة لاذعة محرقة» ؟ (٧١)

المنهج النفسي :-

لم يكن المنهج النفسي ـ في الثلث الأول من القرن العشرين ـ قد ذاع في بيئة النقد العربي ، وكان أول من أسهم فيه أمين الخولي حين تصدى بالتحليل لحياة أبي العلاء المعري ، ثم أخذ يوجه جماعة الأمناء لأن تتحرك في الاتجاه النفسي بقدر ما يسعفهم علم النفس على كشف غوامض التجربة الفنية . ثم تلا ذلك مجموعة من الدراسات لمحمد خلف الله ، والعقاد ، ومحمد النويهي ، ومصطفى سويف (٧٢) .

ويرى ستانلي هايمن أنّ النقد بعامة كان نفسياً في جملته ، حتى أنّ أرسطو ليعتدّ أباً شرعياً للنقد النفسي . (٧٣) ولا غرابة فيما يذهب إليه لأن العمل الأدبي في حقيقته استجابة معينة لمؤثرات خاصة ، أو هو صورة من صور التعبير عن النفس . والمنهج النفسي يدرس دلالة العمل الأدبي على نفسية صاحبه . (٧٤) «لا سيما وأنّ هذه الثمرة من تلك الشجرة» (٧٥) كما يقول سانت بيف .

ويطل المنهج النفسي برأسه على استحياء عند مي زيادة في مواضع محدودة ، وينبىء هذا القليل أنها لم تكن تجهل هذا المنهج ، وأنها تدرك أن الحدود المأمونة لاستخدامه أن يظل مساعداً للمنهج الفني والمنهج التاريخي .

ففي تناولها لتجربة الغزل عند التيمورية ، لاحظت تكلّمها بلهجة الرجل . وحين أرادت تعليل تلك الظاهرة ردتها إلى أمرين : الأول ـ عامل اجتماعي مردّه إلى سلطة المجتمع العربي التي تضغط على عواطف المرأة ، وتخرس صوتها ، فتتحايل للتعبير عن مشاعرها . والثاني ـ عامل فني ، سببه تقليد المرأة للرجل صاحب الخبرة الطويلة في هذه التجربة .(٧٦)

فنلاحظ ـ من خلال تفسيرها ـ ظلال المنهج النفسي ، كما نلاحظ التعاون الوثيق بين هذا المنهج والمنهجين التاريخي والفني .

وتبدو ظلال المنهج النفسي ـ أيضا ـ في تلمّسها للطبيعة النسائية في غزل التيمورية ، التي تتجلى في «الخجل» الذي يُشعر المرأة أحياناً بأنها صغيرة ضئيلة أمام من تحب ، مثل قولها :(٧٧)

وهذه كلمات قادها شغفٌ إليك ، لولاه لم تبرز من القلم
جاءت ومن خجل تمشي على مهل تخاف عند لقاها زلّة القدم

كما لا يفوتنا أن نشير إلى ملاحظتها الدقيقة حين تأملت ملامح اليازجية من صورة مرسومة لها ، فلم تجد ملامحها النفسية قد تبدّت بشكل جليّ في شعرها ، فقالت : «أشعر بوضوح أنها كانت في طبيعتها أغنى منها في شعرها»(٧٨)

وربما كان التلازم أظهر بين المنهج النفسي والمنهجين التاريخي الفني في تناولها لمسرحيات بيراندللو ، الذي عمد إلى عالم المسرح في محاولة للخلاص من واقعة النفسي المرير ، فأخذ يخلق بمسرحياته عالماً جديداً يسبغ عليه أطياف مخيّلته ، وصخب انفعالاته . وقد عبّر عن خلاصه هذا بقوله في رواية «ليس الأمر بذي بال» على لسان أحد أبطاله «أليس أننا جميعا في بعض الأحيان نشعر وكأنّ نوراً يتفتّح ويتألق في داخل نفوسنا ، نوراً ينسكب علينا من سماوات أخرى لا نعرفها ، فيمكننا من النظر إلى أقصى خفايانا ، باعثا فينا ابتهاجا لا نهاية له ، نشعر معه لحظة بأننا نحيا خالدين؟» (٧٩) كما لاحظت كيف يجعل بيراندللو

شخصية البطل ميداناً لعوامل الوراثة وتياراتها الجارفة ، وكيف تأثر بنظرية العقل الواعي والعقل غير الواعي عند فرويد وزملائه من علماء هذا العصر ، دون أن يقتصر على لغز الغريزة الجنسية التي يستوحيها دون سواها كثيرون من أدباء اليوم عند مختلف الشعوب .(٨٠)

المنهج التكاملي :-

يبدو لنا من خلال هذا العرض أنّ ميّ زيادة لا تميل إلى الالتزام بمنهج نقدي بعينه ، أو لنقل بأنها كانت تحبذ أن تواجه العمل الفني بمنهج تكاملي يتلازم فيه عدد من المناهج ، حتى يتسنّى لها أن تتناول العمل الأدبي من جميع زواياه ؛ فتتناول صاحبه ، كما تتناول بيئته وتاريخه ، ولا تغفل الجوانب الفنية فيه ، دون أن تغرق نفسها في غمار البحوث التاريخية أو الدراسات النفسية .

وهكذا يستطيع المنهج التكاملي أن يجعلنا نعيش في جو الأدب الخاص ، دون أن ننسى مع هذا أنه أحد مظاهر النشاط النفسي ، وأحد مظاهر المجتمع التاريخية ـ إلى حد كبير أو صغير .(٨١)

وخير تراثها النقدي تمثيلاً لهذا المنهج تناولها لتجربتي التيمورية واليازجية ، ودراستها لمسرحيات بيراندللو . وقد رأينا في دراستيها لتجربتي التيمورية واليازجية كيف تعاون كل من المنهج التاريخي ، والفني ، والنفسي في استجلاء أبهاء التجربة وفضاءاتها . وكذلك فعلت في دراساتها لآثار بيراندللو ، فتحدثت عن بيئتيه العامة والخاصة وأثرهما في نفسه وفنه ، وأشارت إلى تأثره بإبداعات إبسن النرويجي ، وتأثره بمنجزات علم النفس التحليلي عند فرويد وزملائه ، وتأثره بمكتشفات العلم الحديث في تجزيئه للذرّة إلى ما لا نهاية . فكذلك صنع بيراندللو في الشخصية الانسانية الواحدة ، حيث جزّأها إلى شخصيات متعددة ، كل منها مطرّد الحركة والتغيّر ، وكل منها مكتملة في ذاتها اكتمالها الشاذ الخاص .(٨٢)

جهودها النقدية في الميزان :-

لقد خصّت «مي» فن الشعر بالنصيب الأوفر من تراثها النقدي ، ولا غرابة في ذلك ، لتسيّد الشعر لحركتنا الإبداعية آنذاك ، كما أنّ فنون القول الأخرى (كالقصة والمسرحية) لم تكن قد زاحمت الشعر بعد ، واستحوذت على اهتمام النقاد . ولا ننسى أن «مي» صاحبة

إسهامات شعرية باللغتين الفرنسية والعربية ، وهي تجارب عصرية ، تتجاوز المألوف في تجربتنا الشعرية ، كما أنها قد حاولت تقديم مفهوم للشعر (٨٣) ، يتفق والمفهوم الحديث للشعر . (٨٤)

وكانت أهم دراستين لها في نقد الشعر لشاعرتين ، وهي تتخذ من هذا الانتقاء سبيلا لطرح هموم المرأة العربية ومناقشتها ، وخلق وعي بها . وهاتان الشاعرتان من الأصوات الإحيائية في تجربتنا الشعرية الحديثة ، امتازت تجربتهما بغنائيتها ، ونزوعها الوجداني الذي يجعلها في نظر «مي» إرهاصة رومانسية إلى حد ما .

أما الشعراء فقد خصّت ثلاثة منهم بالدراسة ، هم : اسماعيل صبري ، وجبران خليل جبران ، وشبلي شميل . وامتازت تجربة الأول والثاني منهم بذاتيتها المتميزة ، أما الأخير فقد عُرف بشعره القليل ، ونثره المسكون ـ في رأيها ـ بطوابع الشعر وايقاعاته .

ويمتاز تناولها للتجارب الشعرية بشموليته ، حيث كانت تستعين بعدد من المناهج النقدية ، وربما كان المنهج التاريخي أبرزها . كما أنها لم تتعسّف في تطبيق مناهج النقد ، وإن كنا قد لاحظنا إسرافها ـ أحيانا ـ في استخدام المنهج التاريخي . وعلى الرغم من وعيها بمزالق تلك المناهج إلاّ أنه يؤخذ عليها إطلاقها لأحكامٍ نظرية على التجربة ، دون أن تشفعها بالتطبيق .

ولعلّ تفسير ملاحظتنا الأخيرة عليها مردّه إلى أنّ تراثها النقدي غلب عليه «النقد الصحفي» الذي لا يفسح مجالا للدراسات التطبيقية على النحو الأكمل . ومي زيادة لم تكن تنقصها الخبرة ، ولا الثقافة ، ولا الذائقة الأدبية . .

أما حظ النثر عندها من النقد فمتواضع ، ولا تتجاوز فيه وقوفها عند الناحية المضمونية ، كما هو الحال في تناولها لنثر التيمورية واليازجية . وحتى في تناولها لقصة «أمبير جلوا» لفكتور هوجو كان المضمون جلّ اهتمامها ، ولم تلتفت إلى شيء من جماليات الفن القصصي .

ومما يحمد «لمي» ناقدة دعوتها إلى الحيْدة والموضوعية في الجانب النظري من تراثها النقدي ، والتزامها بهذه الحيدة في دراساتها . فعلى الرغم من دعوتها إلى شعر عصري ، وتقديمها لمحاولات شعرية متسقة مع تلك الدعوة ، إلا أن هذا لم يمنعها من دراسة تجارب من

الشعر الكلاسيكي دون أن تتعصب لدعوتها ،ودون أن تحكم المعايير الفنية لذلك الاتجاه التجديدي (الرومانسي) في التجارب التقليدية الإيحائية التي تصدت لها ، كما فعل العقاد وزملاؤه ـ مثلاً ـ في تثمينهم لشعر شوقي ، وتعسّفهم في مطالبته بتحقيق معايير فنية لا تنتمي إلى مذهبه الشعري ، كما لم يحل تعاطفها مع التيمورية واليازجية من أن تضع يدها على مواطن الإخفاق في تجربة كل منهما ، فهي ترى الأولى رائدة حقيقية للمرأة المصرية على طريق الإبداع الشعري «نشرت أول علم في الجادة غير المطروقة ، وبكّرت في إرسال الزفرة الأولى أيام كانت تكتم الزفرات ، وكان إرسال الصوت في عالم الأدب يحسب للمرأة عاراً وجريمة» (٨٥) . ولكنها مع ذلك تسجل على تجربتها جملة العيوب الفنية التي تمسّ جوهر العملية الشعرية .

وآية موضوعيتها تتجلى في تثمينها لتجربتي الشاعرين اسماعيل صبري وجبران . فالأول لم تمنعها صلتها الإنسانية الحميمة به من أن تخالف جمهور المؤبنين له ، الذين يكيلون له مديحاً ، يجعل إدراك الحقيقة أمراً بالغ الصعوبة ، ويضفون عليه من الصفات ما يستحق ولا يستحق ، فتساءلت «وأي ميت لا يقال عنه ذلك في مختلف الأقطار الناطقة بالعربية » ولكن أيذنب القائل أن صبري باشا في شعره ينبوع صغير بلّوريّ المياه عذبها؟ ينبوع يرشح البيت والبيتين والثلاثة أبيات ، وينتظم مرة أخرى تسلسله المكرر اللماع الملوّن ، على أنّه غير فيّاض ، لا يدهش ، ولا يرهب بجلاله ، إنما يجذب بحسنه المأنوس ، ويرضى ببساطتة وجلاله ، ويدخل الطرب على النفس الطروبة برقة عواطفه ، وسلاسة ألفاظه ، وإتقان نظمه . . هذه الصفات يسيطر عليها دواماً «الذوق الدقيق المصفّى» ، التي جعلت من صبري باشا ، على بضاعته الشعرية المحدودة ـ شاعراً كبيراً (٨٦) .

والملاحظ أن تثمين العقاد لتجربة الشاعر نفسه جاء قريباً من أحكامها ، غير مخالف لها . وقد جعل من «ذوق صبري القاهري» مدخلاً ومحوراً لدراسته والحكم على تجربته . فهو يرى أنّ اسماعيل صبري «شاعر صادق الشعر ، ناقد بصير بالنقد إلا أنّه لا يتعدّى في شعره ونقده نطاقاً يرسمه له مزيج من ذوقه القاهري . . فشعره لطيف لا تعمّل فيه ، ولكنه كذلك لا قوة فيه ، ولا حرارة . . . وإن شئت فقل : إنّ أدب الرجل كان أدب «الذوق» ولم يكن أدب النزعات والخوالج ، وأدب السكون ، ولم يكن أدب الحركة والنهوض ، وأدب الإصلاح الحسن ، ولم يكن أدب الابتكار المستكشف الجسور» (٨٧) .

وقد نشرت «مي» مقالتها عام ١٩٢٣م في «المرأة الجديدة» ، وجاء كتاب العقاد بعد عام ١٩٣٢م ، كما ورد في مقدمته . ولا يخفى ما بين أحكامها من تقارب واتفاق ، وإن أوهمت قدرة العقاد على بسط الحكم أنه يجاوز ما ذهبتْ إليه .

وتأكيداً لما ذهبت إليه «مي» فهي ترى أنّ صبري باشا «كان في خلقه ـ كما في شعره ـ بلا دعوى ، بسيطاً بلا تنطّع ، يعرف مدى شاعريته ، ويقف عند حدودها»[٨٨] .

ونجد العقاد في نهاية دراسته للشاعر يوالي بسط حكمه ، متفقاً معها ، غير بعيد عمّا ذهبت إليه ، مركّزاً على «ذوقه الناعم» ، نافيا أن يكون «الذوق المترف» معياراً للشاعرية ، فيقول : «إن هذا الذوق لا يصلح مسباراً للفن للصحيح ، لأنه لا يصلح مسبارًا للحياة الصحيحة ، وإن «التلطف الناعم» شيء ظريف في لحظة من اللحظات أو حالة من الحالات ، ولكنه ليس هو الحياة في أعماقها ، ولا هو الشعور في مثله الأعلى . . ولو كانت الدنيا كما يحسّها صبري ، أو كما يصورها في شعره ، ولو كانت النظرةالإنسانية كما فُطر عليها ، أو كما يريدها ، ولو كانت عظائم الطبيعة وذخائرها كما تبدو في ثنايا كلامه ـ لكان الذوق الناعم هو قسطاس الشاعرية ، ومطلب الفنون ، ووعنوان التعبير السليم ، ولكننا حريّون أن نعلم أنّ قسطاس الشاعرية غير ذلك . . .»[٨٩] .

وكانت تربطها بالثاني ـ على البعد ـ مشاعر حب حقيقية ، ومع ذلك خالفت القائلين «بتمرّد» جبران ، واستشفّت في «مواكبه» وأدبه طبيعة شغفه للاستسلام ، وناقشت هذا بوعي من خلال رواية «الأجنحة المتكسّرة» وتجربة «المواكب» الشعرية ، وأضافت أنّ ذاتيته لم تدرك بعد استعدادها الأقصى ، ولم تقف إلى الآن على ذروة اقتدارها .[٩٠]

ويستوقفنا في تراثها النقدي تلك الرؤى الجديدة ، التي تدلّ على أصالة فكرها ، وبُعد نظرها ، ومرجعيتها الثقافية الفنية ، وتأتي منسجمة مع قولها «إني أكره التقليد الذي يشوه المقلّد ، ويمسخ المقلّد ، وأحب أن أكون أنا أنا في كتاباتي»[٩١]

ففي تناولها «لمواكب» جبران ، لاحظنا استقلاليتها في أحكامها ، ومخالفتها لأحكام معاصريها في موضوعية وجرأة ، وزادت على ذلك بتوقّعها لموهبة جبران بأن تصل إلى قمة النضج ، فقالت : «إن جبران ما زال متسلقاً كتف الجبل . . ولكنه سيصل يوماً إلى القمة ،

فنسمع منه عندئذ أجمل أنغامه ، ونلمح أسمى هيئة من نفسه السنية ، التي تسطع في أرجائها الأضواء ، وترعى في جوانبها الأظلال»(٩٢) .

وكانت نبوءة صادقة ، فها هي ذي موهبة جبران بعد عقد من السنين (عام ١٩٢٩) تصل إلى قمتها المرجوّة ، وتبلغ درجة رفيعة من النضج والاستواء ، فتتناول «مي» تجربته «يسوع ابن الإنسان» فتقول : في كل كتب جبران «لا يسمع إلاّ صوت شخص واحد ، وإلاّ فالأصوات العديدة فيها محدثة عن شخص واحد . ولا ارتاب في أن جبراناً (كذا) عندما كان يستنطق كلاًّ من هذه الأشخاص ، أو يستنطق الآخرين عنها ، إنما كان واضعاً نصب اهتمامه الجزء الثاني الذي يرى هو أنه يماثلها في شخصيته . . فإن كان في عصرنا شخصية جامعة مبدعة فشخصية جبران مثالها .»(٩٣)

وفي حديثها عن رواية «الأجنحة المتكسرة» اصدرت حكماً نقدياً سابقاً لزمنه (عام ١٩١٩) حين وصفتها بأنها «قصيدة» وأنّها تعني ما تقول «لأن الأجنحة المتكسرة قصيدة منثورة»(٩٤) ولم يكن هذا الحكم هو الأول والوحيد في تراثها النقدي ، فقد سبقه حكم آخر (عام ١٩١٣) جاء في سياق حديثها عن مفهوم الشعر ، وذلك في صدر مقالتها «الدكتور شبلي شميل ـ الشاعر» حيث تقول : «وما النثر إلا شعر أفلت من أقيسة الوزن الضيقة . . فالنثر إذاً شعر حرٌّ ، ويتسنّى لكل كاتب أن يكون شاعراً في نثره» (٩٥) .

ومن الواضح أنّ مصطلحات «الرواية القصيدة» و «القصيدة المنثورة» و «النثر الشعري» و «الشعر الحر» لا عهد لنقدنا الحديث بها آنذاك إلا على نحو محدود للغاية ، وتسجل «مي» بذلك ريادة مبكرة في توسيع استخدام هذه المصطلحات وتكريسها في مجال الابداع والنقد الأدبي .

فقد استنكرت الشاعرة نازك الملائكة وصف الأديبة خزامى صبري لتجربة محمد الماغوط «حزن في ضوء القمر» ، والتي نشرت عام ١٩٥٩م ، بأنها (شعر منثور) . كما استنكرت ما ذهب إليه في الفترة ذاتها جبر إبراهيم جبرا في حديثه عن تجربة توفيق صائغ النثرية «في جب الأسود» ـ بأنها من (الشعر الحر)(٩٦) .

ويبدو أنّ نازك الملائكة لم تقف على استخدام مثل تلك المصطلحات منذ وقت مبكر في تراث «مي» ، بالإضافة إلى أن لويس شيخو قد أشار إلى أن جبران خليل جبران وأمين الريحاني كانا أول من استعار هذا المصطلح في الربع الأول من هذا القرن (٩٧) .

كما أن مصطفى صادق الرافعي قد استخدم هذا المصطلح عام ١٩٣٦ (٩٨) ، ولا ننسى احتفاء أحمد حسن الزيات ومجلته «الرسالة» بهذا اللون من الابداع ممثلا في تجارب مي زيادة .

وفي حديثنا عن دعوتها إلى الحيدة والتجرد في النقد ، وقفنا عند رأيها في تجربة اسماعيل صبري ، الذي ألهمته بعضاً من شعره . وقد لاحظنا أنّ من كتبوا بعد ذلك عن تجربته لم يخالفوا ما ذهبت إليه (٩٩) .

وحينما تناولت بيراندللو ومسرحياته الوجيعة ، قدّمت رؤية طريفة في تحليلها لشخصياته المسرحية ، فرأت مدى تأثر الكاتب بمنجزات العصر العلمية ، المتمثلة في تفتيت الذرة إلى ما لا نهاية ، فقام بدوره بتجزئة الشخصية الواحدة إلى شخصيات متعددة كل منها مطّرد الحركة والتغير ، وكل منها مكتملة في ذاتها .

هذا بالإضافة الى ملاحظتها لتأثره بفن إبسن النرويجي ، وبمكتشفات مدرسة التحليل النفسي عند فرويد وزملائه . وقد دفعها هذا الفهم العميق لتجربته المسرحية إلى التشكيك في نجاحها جماهيرياً على خشبة المسرح ، بما يتوازى وقيمتها الأدبية الصحيحة . (١٠٠)

وهذا الفهم العميق لمسرح بيراندللو هو الذي جعلها تتنبأ لتوفيق الحكيم بمستقبل كبير ، وتقول تعليقاً على مسرحيتيه «أهل الكهف» و «شهرزاد» في رسالة بعثت بها إليه (عام ١٩٣٤) «أشعرني كتاباك بأن بيراندللو مصري يتولد عندنا ، وذلك من الشواهد أن الحضارة الفكرية في مصر ماضية في التوغل» (١٠١) وقد نشر الحكيم هذه الرسالة مؤخراً ، معترفاً أنها الوحيدة ـ ممن كتبوا عنه ـ التي فهمت هذا البعد في مسرحه . (١٠٢)

الخـــاتمة

تحتفظ المكتبة العربية بالعديد من الدراسات عن حياة «مي زيادة» ومقالاتها ، ورسائلها ، وأدبها ، وفكرها . . لكن أحداً لم يحاول تثمين دورها ناقدة . وندهش كثيراً حين نتأمل الدراسات النقدية التي أرّخت لحركة النقد في تلك المرحلة ، ونجدها قد أغفلتها تماماً .(١٠٣) علماً بأنها جديرة بعضوية نادي النقد الأدبي في تلك المرحلة المبكرة ، وذلك بما قدمته على المستويين : النظري والتطبيقي .

وقد جاء تراثها النقدي النظري متناثراً خلال دراستها التطبيقية ، وتناولت فيه مفهوم النقد وأهميته ، ودور الناقد ، وأدواته ، وصعوبة عمله وتعقده ، وثقافته ، وموضوعيته وتجرّده ، وأدبياته ، ومرونته ، واستنارته ، وبعده عن التعصب ، ومواهبه الفطرية ، واقترابه الحميمي من التجربة موضع النقد ، وأصالة فكره ، ونأيه عن التقليد . وتناولت اقتران موهبة الابداع والقدرة على النقد لدى كبار المبدعين .

كما قدّمت مفهوما للشعر يتجاوز مرحلتها ، ويتفق ومفهوم الشعر الحديث .

ومع اهتمامها الواضح بالتجربة الشعرية ، فقد خصّت فنون النثر المستحدثة (القصة والمسرحية) بشيء من جهودها ، ووسّعت دائرة اهتمامها ، فتناولت شخصيات أدبية غير عربية ، مثل بيراندللو وفكتور هوجو .

أما دراستها لباحثة البادية ، والتي أخرجناها من دائرة النقد الأدبي الخالص ، فقد وضعت «مي» بها أسس السيرة العلمية في أدبنا العربي .

لم تحصر «مي» نفسها في منهج نقدي دون غيره ، فاستعانت بكل المناهج النقدية ، التي عزّقتها حركة النقد العربي آنذاك ، سواء ما كان ذائعاً منها ، مثل المنهجين : التاريخي والفني ، أو ما كان منها يخطو خطواته الأولى في ساحتنا النقدية ، مثل المنهج النفسي .

وكانت على دراية بإمكانيات كل منهج منها ، وبقواعده الفنية الموضوعية ، تستعين به فيما يتلاءم والتجربة موضوع النقد . وكانت على علم بمزالق كل منهج فلم تتعسف في تطبيق كل قواعدة . كما لم تلتزم بتناول إحدى التجارب بمنهج بعينه ، فكان المنهج التكاملي هو السائد في تراثها النقدي التطبيقي ، فاستطاعت من خلال تعاون تلك المناهج وتلازمها أن تكون أكثر موضوعية ، ومرونة ، واستنارة ، وأعانها ذلك على إضاءة آفاق التجارب التي تناولتها بالدراسة .

وكانت «مي» مؤهلة لأن تكون ناقدة مقدرة ، بمواهبها الفطرية ، وسماحتها ، ومرونتها ، وذائقتها الأدبية ، وطاقاتها الابداعية ، وثقافتها الواسعة التي كانت مناط إعجاب معاصريها ، أمثال طه حسين ، حيث يقول عنها : «إنّ مي تمثل في نفسي بداوة البادية ، وحضارة الحاضرة ، وثقافة العرب القدماء ، وثقافة المحدثين والأوروبيين ، وكل ما يتمنى المثقف أن يصل إليه .»(١٠٤)

ولكن يؤخذ عليها شحوب الجانب التطبيقي ، فاكتفت ـ أحياناً ـ بتقديم أحكام مجردة مفصولة عن التجربة موضوع الدراسة . وربما كان ارتباطها الشديد بالصحافة وراء ذلك .

ولعل التفاتها إلى تجربتي التيمورية واليازجية كان يمثل ضرباً من الإدانة لجهود نقادنا ـ آنذاك ـ الذين أغفلوا إسهامات المرأة العربية إبداعيا . ولعله ـ أيضاً ـ يمثل توجيهاً ذكياً لموضوعية النقد وحيْدته ، بعد أن رأت جيل النقاد الرومانسيين يتعصبون لمذهبهم ، ويهوّنون من شأن التجربة الكلاسيكية ، ولا سيّما أنّ «مي» كانت تنتمي إبداعياً إلى المذهب الرومانسي ، وتدرك جيداً قواعده الفنية والموضوعية ، كما كانت صاحبة دعوة إلى العصرية في فن الشعر . ولها تجارب في الشعر الحر ، تسبق تجربة نازك الملائكة في هذا المجال ، والتي ارتبط ظهورها بعام ١٩٤٧م .

ويمكن القول أنها قد سجلت ريادة مبكرة لا في إبداعاتها الشعرية الحرّة ، بل في استخدام مصطلحات نقدية لا عهد لنقدنا الأدبي بها آنذاك ، مثل «الرواية القصيدة» و «النثر الشعري» و «الشعر الحر» و «القصيدة المنثورة» .

وحسبها أنها قد سجلت سبقاً في بعض آرائها النقدية ، فيما يتصل بتجربتي التيمورية واليازجية ، وشاعرية اسماعيل صبري ، وتجربتي جبران (المواكب ويسوع ابن الانسان) وتجربة بيراندللو ، ومسرحيتي الحكيم (أهل الكهف وشهرزاد) .

وقد تنبأت لجبران عام ١٩١٩م باكتمال تجربته في المستقبل القريب ، ثم شهدت له بما تنبأت به عام ١٩٢٩م . كما تنبأت للحكيم بمستقبل أدبي كبير ، ورأت ان بيراندللو مصري يولد عندنا .

أظن ـ بعد هذا ـ أنّ من حقّها علينا ، ومن واجبنا نحوها أن نعترف لها بدورها ناقدة ، وأن نضمّها إلى تلك المنظومة المقدّرة من نقاد الثلث الأول من القرن الحالي ، الذين رادوا هذا السبيل ، وروّضوا مناهج النقد المختلفة ، وأرسوا أسس حركة نقدية معاصرة ، أخذت تستأنف ما انقطع من جهود أسلافنا بعد عبد القاهر وابن رشيق ، كما أخذت تواكب حركة الإبداع العربية النشطة في العصر الحديث .

هوامش الدراسة

١ ـ مي زيادة : الأعمال الكاملة جـ ٢ ـ تقديم سلمى الحفّار الكزبري ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ١٩٨٢ ص ٣٧٩ .

٢ ـ انظر : المرجع السابق ص ٣٧٩ .

٣ ـ مي زيادة : عائشة تيمور ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ط٢ ١٩٨٢ ـ ص١٦ .

٤ ـ المرجع السابق : ص١٦ .

٥ ـ الأعمال الكاملة : جـ٢ ص٣٨٠ .

٦ ـ عائشة تيمور : ١٦ .

٧ ـ المرجع السابق : ص١٥ .

٨ ـ مي زيادة : بين المد والجزر ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ط٢ ١٩٨٢ ص١١٠ .

٩ ـ الأعمال الكاملة : جـ٢ ص ٣٨٣ .

١٠ ـ المرجع نفسه : ص٣٨٢ .

١١ ـ المرجع السابق ص٣٨١ .

١٢ ـ المرجع السابق : ص ٣٨١ .

١٣ ـ مي زيادة : باحثة البادية ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ط٢ ١٩٨٣ ، ص٦٧ .

١٤ ـ بين المد والجزر : ص١١١ .

١٥ ـ عائشة تيمور : ص١٦ .

١٦ ـ راجع : بين المد والجزر ص١١١ .

١٧ ـ انظر : المرجع السابق ص١١٠ .

١٨ ـ الأعمال الكاملة : جـ٢ ، ص٣٨٠ .

١٩ ـ المرجع نفسه : ط٢ ، ص٣٨٠ .

٢٠ ـ انظر : عائشة تيمور : ص١٢٧ ، وانظر : بين المد والجزر ص١١٤ .

٢١ ـ راجع : بين المد والجزر ص١١٩ .

٢٢ ـ محمد عبد الغني حسن : مي أديبة الشرق والعروبة ـ عالم الكتب بالقاهرة ١٩٦١م ، ص٢٤١ ، وحديث مطران منشور في المقتطف عام ١٩٤١م ، وهو عام رحيل مي .

٢٣ ـ راجع : علي جواد الطاهر : مقدمة في النقد الأدبي ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٨ ، ص٣٩٧ ، ٣٩٨ . وانظر : سيد قطب : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ـ دار الشروق ـ بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٣م ، ص١٤٦ وما بعدها .

٢٤ ـ انظر : مقدمة في النقد الأدبي : ص٣٩٧ .

٢٥ ـ انظر : المرجع نفسه : ص٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤ .

٢٦ ـ انظر : د . شكري فيصل : مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ط٣ ١٩٧٣ ، ص١٥٨ وما بعدها .

٢٧ ـ عائشة تيمور : ص١٧ .

٢٨ ـ انظر : المرجع السابق : ص٤٤ ، وانظر : مي زيادة : وردة اليازجي ـ مؤسسة نوفل ط٢ ١٩٨٢ ، ١٨ .

٢٩ ـ راجع : وردة اليازجي ص١٧ ، ١٨ .

٣٠ ـ انظر : عائشة تيمور ص٧٩ ـ ٩١ .

٣١ ـ المرجع نفسه : ص٣٤ وما بعدها .

٣٢ ـ انظر : المرجع نفسه : مبحث «نشاة الشاعرة» ص٤٣ وما بعدها .

٣٣ ـ راجع : المرجع السابق : ص٤٧ ، ٤٨ .

٣٤ ـ راجع : المرجع السابق : ص٥٤ وما بعدها .

٣٥ ـ راجع : مقدمة في النقد الأدبي : ص٤٠٠ .

٣٦ ـ انظر : المرجع السابق ، ص٤١١ وما بعدها ، وراجع النقد الأدبي أصوله ومناهجه : ص١٤٦ وما بعدها .

٣٧ ـ راجع : النقد الأدبي أصوله ومناهجه : ص١١٧ وما بعدها .

٣٨ ـ انظر : المرجع السابق : ص١١٧ وما بعدها .

٣٩ ـ انظر : الأعمال الكاملة : جـ٢ : ص٢٢٠ ، وقد نشرت في المقتطف : جـ (٨٥) نوفمبر ، ١٩٣٤م .

٤٠ ـ مجلة الرسالة : ١٩٣٥ ـ العدد ٧٩ ـ ص١٢ .

٤١ ـ الأعمال الكاملة : جـ٢ : ص٢٣٩ ، وقد نشرت في «الرسالة» عام ١٩٣٥م ـ العدد ٩٨ ، وانظر «الهلال» ، ١٩٢٣ ، عدد مايو .

٤٢ ـ الأعمال الكاملة : جـ٢ ، ص٢٨١ .

٤٣ ـ المصدر نفسه : ص٢٩٤ .

٤٤ ـ المصدر نفسه : ٣٢١ .

٤٥ ـ المصدر نفسه : ص٥١٥ .

٤٦ ـ عائشة تيمور : ص١٠٢ .

٤٧ ـ المرجع نفسه : ص١٠٧ .

٤٨ ـ وردة اليازجي : ص٣١ ـ ٣٤ .

٤٩ ـ عائشة تيمور : ص١١٠ .

٥٠ ـ عباس محمود العقاد ـ مجموعة أعلام الشعر ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ، ١٩٧٠ ، (شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي) ، ص٣٤٩ .

٥١ ـ عائشة تيمور : ص١١٥ ، ١١٦ .

٥٢ ـ المرجع نفسه : ص١٢٤ .

٥٣ ـ نفس المرجع والموضع .

٥٤ ـ المرجع نفسه : ص١٢٤ .

٥٥ ـ المرجع نفسه : ص١٢٩ .

٥٦ ـ وردة اليازجي : ص٣٥ وما بعدها .

٥٧ ـ عائشة تيمور : ص١٢٤ .

٥٨ ـ مجموعة أعلام الشعر : ص٣٤٨ .

٥٩ ـ المرجع نفسه : ص٣٤٧ .

٦٠ ـ وردة اليازجي : ص٣٤ .

٦١ ـ د . أحمد كمال زكي : النقد الأدبي الحديث . . أصوله واتجاهاته ـ دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٨١ ، ص٥١ .

٦٢ ـ د . محمد مندور : النقد والنقاد المعاصرون ، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة (د .ت) ص٢٣٠ .

٦٣ ـ راجع : الأعمال الكاملة : جـ٢ ص٤٤٩ ، ٤٥٠ . وقد نشرت تلك المقالة في «المرأة الجديدة» بيروت عدد سبتمبر ١٩٢٣ .

٦٤ ـ المرجع نفسه : ص٤٢٤ وما بعدها . وقد نشرت المقالة في الهلال عام ١٩١٩م .

٦٥ ـ عائشة التيمورية : ص٩٧ وما بعدها .

٦٦ ـ المرجع نفسه : ص١٠٠ .

٦٧ ـ انظر : المرجع نفسه : ص١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .

٦٨ ـ المجموعة الكاملة : جـ٢ ، ص٤٥١ .

٦٩ ـ عائشة تيمور : ص١٠٤ .

٧٠ ـ المرجع نفسه : ص٦٠ .

٧١ ـ المرجع نفسه : ص٨٤ .

٧٢ ـ راجع : د . أحمد كمال زكي : النقد الأدبي الحديث ص١٧٢ .

٧٣ ـ انظر : المرجع السابق : ص١٦٩ .

٧٤ ـ راجع : النقد الأدبي أصوله ومناهجه : ص١٨٤ وما بعدها .

٧٥ ـ انريك أندرسون وآخرون : مناهج النقد الأدبي ـ ترجمة طاهر أحمد مكي ـ دار المعارف ـ بالقاهرة ١٩٩٢ ، ص١٢٨ .

٧٦ ـ راجع : عائشة تيمور ص١٢٨ .

٧٧ ـ المرجع السابق : ص١٢٨ ، ١٢٩ .

٧٨ ـ وردة اليازجي : ص١٨ .

٧٩ ـ انظر : مي زيادة : نصوص خارج المجموعة ـ إعداد أنطوان القوّال ـ دار أمواج ـ بيروت ١٩٩٢م ـ ص٥٢ ، ٥٣ .

٨٠ ـ راجع : المرجع السابق ، ص٤٨ .

٨١ ـ انظر : النقد الأدبي ـ أصوله ومناهجه : ص٢٢٨ .

٨٢ ـ راجع : نصوص خارج المجموعة : ص٤٤ وما بعدها . والمقالة منشورة أيضا في المقتطف عام ١٩٣٤ بمناسبة حصول بيراندللو على جائزة نوبل في الآداب .

٨٣ ـ انظر : عائشة تيمور ، ص٩٨ ، والمجموعة الكاملة : جـ٢ ، ص٣٨٩ .

٨٤ ـ انظر : د . محمد غنيمي هلال : في النقد الأدبي الحديث ـ دار العودة ـ بيروت ١٩٨٧ ـ ص٣٧٦ وما بعدها .

٨٥ ـ عائشة تيمور : ص١٣٤ .

٨٦ ـ المجموعة الكاملة : جـ٢ ص٤٤٩ ، ٤٥٠ .

٨٧ ـ انظر : مجموعة أعلام الشعر : ص٢٤٨ ، ٢٤٩ .

٨٨ ـ المجموعة الكاملة : جـ٢ ، ص٤٥١ .

٨٩ ـ انظر : مجموعة أعلام الشعر : ص٢٥٢ .

٩٠ ـ راجع : المجموعة الكاملة جـ٢ ص٤٢٧ ، ٤٢٨ .

٩١ ـ جميل جبر : مي زيادة في حياتها وأدبها ـ المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٠م ، ص٤٨ .

٩٢ ـ المجموعة الكاملة : جـ٢ ، ص٤٢٨ .

٩٣ ـ نصوص خارج المجموعة : ص٨٩ ، ٩٢ .

٩٤ ـ المجموعة الكاملة : جـ٢ ، ص٤٢٠ .

٩٥ ـ المرجع نفسه : جـ٢ ص٣٨٩ . وقد نشرت المقالة في مجلة «سركيس» عدد حزيران (يونية) ١٩١٣م .

٩٦ ـ راجع : نازك الملائكة : قضايا الشعر المعاصر ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ، ط٧ ، ١٩٨٣ ـ ص٢١٣ وما بعدها .

٩٧ ـ انظر : لويس شيخو : الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ـ ص٤١ ، ٤٢ .

٩٨ ـ راجع : مجلة الهلال ـ عدد يناير ١٩٣٦ ، ص٣١ .

٩٩ ـ انظر : مجموعة أعلام الشعر : ص٢٤٧ وما بعدها ، وراجع النقد الأدبي : أصوله ومناهجه : ص١٣٥ .

١٠٠ ـ راجع : نصوص خارج المجموعة : ص٤٨ .

١٠١ ـ أمل الداعوق سعد : فن المراسلة عند مي زيادة ـ دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٢م ، ص١٠٨ .

١٠٢ ـ انظر : نفس المرجع والموضع .

١٠٣ ـ انظر على سبيل المثال : عز الدين الأمين : نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر في الربع الأول من القرن العشرين ـ دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٦م . وهي أطروحة جامعية بإشراف الأستاذ أحمد الشايب .

: الدكتور إسحق موسى الحسيني ـ النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين ـ معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٦٧ .

: النقد والنقاد المعاصرون للدكتور محمد مندور .

١٠٤ ـ مي زيادة في حياته وأدبها : ص٤٨ .

اثر الفكر الداروينى
في
البحث اللغوي العربي الحديث

د. عبد الله احمد خليل إسماعيل

جامعة الأزهر - غـزة

ملخـــص

يتألف البحث من مقدمة ، فتمهيد ، فمبحثين ، فخاتمة . وقد عالجت المقدمة أهمية البحث ، وأسباب اختياره ، وقام التمهيد ببيان أثر الفكر الدارويني في أوروبا في مجالات الحياة المختلفة ، خاصة اللغة ، ثم أثره في العالم العربي ، وذكر أهم الباحثين العرب الذين تأثروا به .

وتناول المبحث الأول قضية نشوء اللغات عامة وارتقائها ، على نحو ما بدأت مباحث يعقوب صروف ، وجورجي زيدان ، وجبر ضومط ، وأنستاس ماري الكرملي . في حين تناول المبحث الثاني قضية ثنائية الأصول اللغوية في مباحث أعلام البحث اللغوي العربي الحديث كالأب مرمرجي الدومنيكي ، والدكتور إبراهيم أنيس .

وقد انتهت الخاتمة إلى أن الفكر الدارويني كان واسع الأثر في البحث اللغوي العربي الحديث .

Abstract

The research studies the impact of Darwinian thought in Europe on various aspects of life, particularly on language. It also indicates that impact on the Arab world, banning the Arab writers who were influenced by that trend.

The first part of this work deals with the issue of language evolution and development, as it appears in the works of Jacob Sarrouf, Georgie Zidan, Jabr Dhomat and Anstass Mary Alkarmali.

The second part deals with the issue of bilateral linguistic origins in the works of such modern Arabic linguistic research leaders as Father Marmarji Aldominiki and Dr. Ibrahim Anees.

The research concludes that the Darwinian thought has had a wide impact on modern Arabic linguistic research.

تمهيد

(كثير من الناس يدخلون التاريخ ، ولكن للتاريخ بابين ، بابا أماميا ، وبابا خلفيا ، الأكثرون يدخلون التاريخ من الباب الخلفي ، فلا يلبثون غير قليل حتى تغمرهم موجات الزمن أما «داروين» وبيده كتاب «أصل الأنواع» فمن القلة القليلة الذين دخلوا التاريخ من بابه الأمامي ، ولم يدخل خلسة ، بل دخل التاريخ وبابه الأمامي مفتوح على مصراعيه) .

إسماعيل مظهر [١]

شُغل الإنسان منذ القدم بالتفكير في أصل حياته ، كيف نشأ وارتقى في هذه الأرض . وقد اهتدى فلاسفة الإغريق ، والمسلمين ، والإفرنج من بعدهم إلى حقيقة أن النباتات ، والحيوانات متصلة كلها ، ومرتبطة معا اتصال حلق السلسلة بعضه ببعض ، من أدنى أنواع النبات ، إلى الإنسان أعلى أنواع الحيوان ، وإنما يفصل بين الحلقة والأخرى منها اختلاف قليل . وأن هذه المخلوقات ـ على ما بينها من تقارب ـ ثابتة لا تتغير ، وأن كلا منها خلق على حدة مستقلا عما سواه ، أي أن البنفسجة مستنبتة من أصلها الأول ، والزقوم من شجرتها الأولى ، وليس من نبتة واحدة ، وكذا شأن المخلوقات كالهدهد ، والغراب . والخنزير والغزال ، والقرد ، والإنسان [٢] .

ظلت هذه الأفكار راسخة في الأذهان حتى عام ١٨٠٩م حين عسر على العالم الفرنسي (لا مارك Lamarck) [٣] ، تمييز الأنواع بعضها من بعض تمييزا قاطعا ثابتا ، فانتهى في كتابه (الفلسفة الحيوانية) إلى أن كل ما على الأرض من حيوان ونبات قد تسلسل بعضه عن بعض على توالي الأجيال والأحقاب ، وأن أصل كل الأنواع واحد اختلفت ذرياته عنه ، واختلف بعضها عن بعض إما بتغيير جزء فيها ، أو بزيادة جزء عليها ، أو بإنقاص جزء منها مناسبة لمقتضى أحوالها ، وقد تم ذلك الاختلاف بفعل ثلاثة عوامل هي : أحوال المعيشة ، وتزاوج الأشكال المختلفة ، وتأثير العادة في استعمال الأعضاء ، وإهمالها .

وقد رد إلى العامل الأخير كل ما يُرى في الطبيعة من موافقة للأحوال التي هي فيها . فقد طال عنق الزرافة ليمكنها من الوصول إلى أغصان الأشجار العالية ، ونعم جلد الثعبان

ودق جسمه واستطال لزحفه على الأرض ، واختبائه بين الأعشاب وعيشه بين الشقوق ، وعمي الخلد لحياته تحت الثرى . . إلخ ، وكان يعتقد بوجود ناموس تجرى عليه الأحياء في ارتقائها ، فهي كلها ترتقي بموجب هذا الناموس من حال البساطة إلى حال أشد منها تركيبا .(٤)

لم تجد آراء (لامارك) في زمانه آذاناً صاغية ، بل إن أكثر قرائه عدوها خرافات وتعليلاته أوهاما ، وقد أعرض العلماء عن متابعته لتطرفه في بعض آرائه ، ولأنه لم يأت بدليل على صحة شيء منها ، بخاصة جعله تغير الحيوان متوقفا على إرادته ، وزعمه ـ مثلا ـ أن الزرافة أرادت أن يطول عنقها لعيشها بين الأشجار العالية ، ولو أرادت غير ذلك لطلبت رزقها في أماكن معينة لا يعوزها طول العنق .(٥)

خمدت أفكار (لامارك) حيناً من الدهر ، ولم تلق من يتابعها ، إلى أن ظهر العالمان الإنجليزيان (تشارلز داروين ، Charles Darwin) ، (وولس Wallace) فكشف كلاهما ـ منفردين ـ ناموس الانتخاب الطبيعي ، وأذاعاه في زمان واحد سنة ١٨٥٩م ، فكان أن بعثا من جديد أفكار (لامارك) المقبورة .

كان (تشارلز داروين ١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م) قد أكب على درس علم الحياة (البيولوجيا) وصنف في ذلك مباحث عدة أشهرها كتاباه (أصل الأنواع) ١٨٥٩م و (تسلسل الإنسان وناموس الانتخاب الجسمي) ١٨٧١ ، وهما اللذان حملا أفكاره التي صارت تعرف ـ فيما بعد ـ بالنظرية الداروينية أو نظرية النشوء والارتقاء(٦) . ولعل شهرة الكتابين المذكورين قد ألصقت نسبة النظرية (بداروين) أكثر من (ولس) مع أن العالمين الكبيرين كانا على خلق علمي يحسدان عليه ، إذ كان كل واحد منها ينسب إلى زميله الفضل فيما توصل إليه .

خلاصة نظرية النشوء والارتقاء الداروينية أن أنواع الحيوان والنبات على كثرتها لم تخلق كما هي ، بل تفرعت عن أصل واحد أو بضعة أصول ، وأن الإنسان متسلسل من نوع من القرود باد واندثر ، وأنه ـ أي الإنسان ـ وبعض أنواع القرود من أصل واحد مشترك في الصفات ، أو هو حلقة واصلة بينهما ، وقد عزز رأيه بالأدلة التشريحية ، والفسيولوجية ، والطبيعية ، وأما أسانيده فيما ذهب إليه بشأن الحيوان والنبات فهي :

أ - إن الأجسام الحية يموت منها بالعوارض أكثر مما يعيش .

ب - ليس بين الأحياء حيان متشابهان تمام التشابه .

ت - إن الخصائص التي يمتاز بها أفراد الحيوان قابلة للانتقال معها الى أولادها .

ث - لا يعيش من تلك الأفراد ويتناسل إلا التي هي أكثر موافقة للأحوال المحيطة بها .

ج - إن بقاء الأجسام الحية لموافقتها الأحوال المحيطة بها يحفظ التوازن بين تلك الأجسام وأحوالها .

ح - أحوال الأحياء تتغير دائما ولكن تغيرها بطيء .

خ - إن التغيرات التي تحدث في الأفراد تزداد اختلاطاً وتشوشا بمقتضى الناموس القاضي بأن الاختلاف في بعض أعضاء الجسم يحدث اختلافا في الأعضاء الأخرى .

د - كل عضو من أعضاء الجسم يغتذي بقدر ما يعمل (٧) .

وقد استنتج (داروين) من أسانيده أن التغيرات التي تصيب الأجسام تستغرق زمناً طويلاً جداً حتى ينشأ عنها اختلاف الأنواع التي تخضع للانتخاب الطبيعي المتمثل في أن الطبيعة أو الأحوال الخارجية تنتخب من الأحياء ما يوافقها في الطبع ونوع المعيشة ، وتبدد ما لا يوافقها ، وهذا معنى تسمية الانتخاب الطبيعي بالصراع على البقاء أو بقاء الأصلح ، فالطبيعة لا تبقي فيها إلا ما يوافق عوارضها وتغيراتها طبقا لتغيرها ، وهو ما يعبر عنه بالتوازن أو التكيف (٨) .

هذه - في إيجاز - أهم آراء (داروين) التي شكلت مذهبه في النشوء والارتقاء ، وهي - كما يبدو - ذات صلة قوية بآراء (لامارك) ، حتى إن الفرنسيين ينسبون مذهب التطور إلى مواطنهم لا إلى العالم الانجليزي .

وقد استقبل العالم الغربي تلك النظرية بثورة عارمة واستنكار واسع من قبل العامة ، ورجال الدين ، ووصل الأمر إلى بعض العلماء في مجالاتهم المختلفة ، فقد سلقوه بألسنة حداد ، وتبارى كثير منهم في الرد عليه ، وتخطئته (٩) . غير أن الأمر هذه المرة اختلف عما حدث (للامارك) ، فقد وجدت هذه النظرية قبولا عند نفر من العلماء الطبيعيين ، فراحوا يعملون بها وينتصرون لها في مباحثهم المختلفة ، كما وجدت سبيلها إلى البحث اللغوي وهو أمر يهمنا توضيحه الآن .

فقد كان الاعتقاد السائد قبل الداروينيين أن اللغة قصر على الإنسان ، وأنها إلهام أو خلق من الله الذي خلق الألفاظ وعلمها (آدم) ، أو هو الذي وهبه الملكة اللغوية ، وأن هذه قد نشطت في كل جماعة على نحو معين وشكلت لكل منها لغتها [١٠] .

أنكر الداروينيون هذا الاعتقاد ذاهبين إلى أن اللغة مظهر من مظاهر الطبيعة [١١] ، وأنها ليست حكرا على الإنسان دون الحيوان ، وأوردوا كثيراً من الأمثلة على أن للحيوان لغته التي يفكر ويتفاهم بها ، وأن الاختلاف بين الإنسان والحيوان ليس اختلافا في النوع بل في الدرجة ، فكلاهما مفكر ولكن تفكير أحدهما أعلى درجة من تفكير الآخر ، وعليه فإن لغة الإنسان مرحلة راقية من مراحل التطور ، تسبق لغة الحيوان [١٢] ، ولا بد من وجود مراحل متوسطة بين الأنواع السابقة والأنواع اللاحقة [١٣] ، ويمكن تفسير الشذوذ اللغوي بأنه بقية من هذه المراحل [١٤] .

وقد شاع بين أنصار الداروينية من علماء اللغة قولهم : إن اللغات كائنات حية يمكن حصر عددها ، وإنها تتطور تطور النبات والحيوان . وعلى هذا الهدى أذاع العالم الأمريكي (وتني Whitney) ١٨٤٦ ـ ١٩٢١ كتابه (حياة اللغات وموتها) ١٨٧٥ ، ونظر (هرمان بول Herman Paul) ١٩٢١ الى اللغة نظرته الى جهاز حي يتطور ، ينمو ويموت بصورة مستقلة عن الأفراد الذين يتكلمونها ، وفسر (جسبرسن Jespersen) مظاهر التغير اللغوي من حيث إنها تطور يتم في اللغة فيتلمس هذا التطور عبر الأزمان اللغوية بالوسيلة نفسها التي يتوسل بها علم التشريح في تناوله الحلقات الأولى من الكائنات في التاريخ الطبيعي [١٥] .

وقد أجرى العالم الجيولوجي (لايل Lyell) نظرية التطور على اللغة «فقرر أن الأنواع في الطبيعة ، واللغات في التاريخ تتغير تبعاً لنواميس متشابهة . . . والعاملان الجوهريان في اللغات هما ـ كما في الأنواع ـ التغير والانتخابات الطبيعي» [١٦] .

وقد ذهب العالم اللغوي (شليخر Schlecher) إلى مثل ذلك التوجيه في كتابه (داروين وعلم اللغات) فقال : «إن مبادىء داروين تنطبق جميعها على كيفية نمو اللغات ، فإن جميع لغات أوربا يكاد يكون لها أصل واحد هو اللغة الهندية الجرمانية ، ومنها تفرعت عدة فروع أولا ، ثم تفرع عن هذه الفروع فروع أخرى وهكذا» [١٧] .

وارتقاء اللغة عند الداروينيين حاصل بالتدريج من أبسط الصور أي من الألفاظ البسيطة المعبرة عن الإحساس والصور ، حيث تبدو في هذا الطور كالكريات العضوية ، ثم لا تلبث اللغة أن تأخذ في التطور والتوسع بتوليد ألفاظ وموت أخرى وهكذا دواليك . وقد ضربوا للغة مثلا في نموها ، فهي عندهم كالشجرة التي «تسقط أوراقها في الخريف وتظل جرداء عارية طوال الشتاء . ولكن طبيعتها الداخلية لا تلبث أن تنبثق بالورق الأخضر عندما تنضج في داخلها عوامل الدورة الجديدة من دورات الحياة» [١٨] .

إن دورات الحياة اللغوية تمر في تطورهاعند (شليخر) بثلاث مراحل هي :

١ ـ مرحلة الانفصال حيث الكلمة قد ركبت من مجموعة من الأصوات المعبرة عن فكرة دلالية بسيطة على نحو ما هو حادث في اللغة الصينية .

٢ ـ مرحلة اللصق ، وفيها تتكون الكلمة من أصل يعتبر أساسا لها ، ولا يتغير هذا الأصل بزيادة أو تغير في داخله بلصق زيادات تفيد دلالات جديدة زيادة على المعنى الأصلي ، وتعتبر اللغة التركية من اللغات التي توصف بأنها لصقية .

٣ ـ مرحلة الاشتقاق حيث تتألف اللغات الاشتقاقية من أصول تعبر عن الفكرة الأساسية ، وتبلغ رقيها بإضافة لواحق أو سوابق أو أواسط لتكوين المفردات التي تدل على الفكرة الأساسية وعلى بعض الأفكار الأخرى في نفس الوقت ، واللغة العربية خير مثال للغات الاشتقاقية [١٩] .

إن هذه المرحلة عند (شليخر) تناظر المراحل التطويرية في علم الأحياء ، «فمرحلة الانفصال تشبه المرحلة الأولى للخليقة حيث كانت الأحياء تتكون من خلية واحدة لا تتميز بكونها نباتا أو حيوانا مذكرا أو مؤنثا ، أما مرحلة اللصق فتشبه المرحلة التي كانت الأحياء فيها مكونة من عدد من الخلايا تكوينا بسيطا ، أما المرحلة الثالثة من مراحل اللغة فتشبه المرحلة التي تصل فيها الأحياء إلى التركيب المعقد الذي يميز النبات منها عن الحيوان ، والمذكر عن المؤنث ، وهذا النوع عن ذاك» [٢٠] .

وقد امتدت مباحث الداروينيين من علماء اللغة إلى قوانين التطور الصوتية وقانون (مندل) في الوراثة . فقد رد بعض الباحثين اختلاف الأصوات الحديثة عن الأصوات

القديمة في لغة من اللغات إلى أن الأعضاء الصوتية في الجماعة الحديثة تختلف اختلافا تشريحياً عما كانت عليه عند الأجيال المتقدمة (٢١) . وقال آخرون بأثر اختلاف الظروف البيئية في اختلاف الأصوات ، فلو هاجر بعض أبناء جماعة لغوية إلى منطقة أخرى مختلفة من حيث البيئة عن التي كانوا يسكنونها من قبل فإن ذلك يعد سببا كافيا في تغيير أصوات اللغة التي يتكلمونها ؛ لأن قسوة الطبيعة أو رقتها تؤثر عليهم غلظة أو شدة (٢٢) .

وقد حاول بعض اللغويين تطبيق قانون (مندل) في الوراثة على التطور اللغوي ، فذهبوا إلى أن ما يبدو من تغير في اللغة ليس سوى خصائص لغوية موروثة عن الأمهات والآباء (٢٣) . على نحو ما تورث صفاتهم الجسدية والعقلية ، وكثيرا ما يحدث أن يطرأ على اللغة تغيرات بعيدة ، كأن تأخذ من أجيال سابقة بعض الخصائص اللغوية التي كانت سائدة لديها (٢٤) .

ولا يخفى ما لهذه الآراء في التطور الصوتي والوراثي من صلة قوية بأسانيد (داروين) التي سبق لنا ذكرها ، فقد قال بتطور الأعضاء على مدى أزمان بعيدة ، وقال بأثر البيئة في التطور ، وزعم أن الخصائص التي يمتاز بها أفراد الحيوان قابلة للانتقال معها إلى أولادها (٢٥) .

وهكذا فإن بوسعنا بعد هذ التطواف أن نخلص إلى أن النظرية الداروينية في اللغة تقوم على اعتبار اللغة أمراً طبيعياً لا إلهاما من الله ، وأنها ليست قصراً على الإنسان ، بل إن للحيوان لغته التي هي أدنى رقيا من لغة الإنسان ، واللغات كائنات حية مصطرعة متناحرة على البقاء ، تتطور تطور العضو ، وتحقق تطورها سلبا أو إيجابا مستقلة بمعزل عن الناطقين بها ، فهي ليست تلو حالتهم أو مرآة لهم .

ويُعَدُّ هذان الرأيان ـ أي صفة العضوية والاستقلالية ـ من أكثر المواطن في النظرية الداروينية عرضة لانتقاد الناقدين ، وثورة الثائرين عليها (٢٦) .

ذلك طرف من خبر الداروينية في الفكر الغربي عامة ، وفي الفكر اللغوي خاصة ، أما أمرها في الوطن العربي ، فقد وصلت إلينا مع بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر تقريبا ، ويومها كان جل المجتمع العربي في طول الوطن وعرضه لا يحرك ساكنا لما هو عليه من تخلف وجهل (٢٧) ، اللهم إلا ما كان في مصر من بصيص الأنوار الفكرية التي كان

محمد علي قد أوقد جذوتها في الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، وما كان كذلك من الحركة الفكرية التي اطلع بها نصارى الشام ـ بفضل الامتيازات التي أعطوها ـ والتي نقلوها معهم إلى مصر [٢٨] ، وبعثوها فيما نشروا من صحف ومجلات [٢٩] .

في هذه الأثناء هبت رياح الداروينية على الوطن العربي فتلقاها أكثر المستنيرين وجلهم من النصارى [٣٠] ، بمثل ما قوبلت في الغرب من نقد مرير ، ولكنها وجدت آذاناً تسمعها وتدعو لها [٣١] ، وطفقت (المقتطف) منذ عام ١٨٨٢ ، ثم (الهلال) بعد ذلك تنشران مقالات ضافية بعنوان : (تشارلز داروين) والمذهب الدارويني ، وتولد اللغات ونموها ، واللغة ومذاهب الماديين . . . الخ [٣٢] . ولم تلبث حركة البحث اللغوي العربي أن شهدت بفعل الداروينية حركة تأليف وبحث وجدل واسعة دارت في مجملها حول عدد من القضايا ، أهمها ثنتان هما :

١ ـ آراء في اللغات عامة ، وفي نشوئها وارتقائها خاصة .

٢ ـ أصول الألفاظ بين الثنائية والثلاثية .

إن مهمة هذا البحث تقضي بعرض هاتين القضيتين وما ولدتا من قضايا ، وبيان أثر ذلك كله في دفع حركة البحث اللغوي العربي على نحو ما نجمله فيما يلي :

آراء في اللغات عامة وفي نشوئها وارتقائها خاصة :

طفقت المباحث اللغوية منذ عام ١٨٨٦م ، تتدافع في الظهور في مقالات وكتب مشبعة بالفكر الدارويني في النشوء والارتقاء ، ففي تموز / يوليو من العام المذكور أخذ يعقوب صرُّوف [٣٣] ، يذيع آراءه في تولد اللغات ونموها [٣٤] ، وفي الشهر والعام نفسيهما قدم جورجي زيدان [٣٥] للقارىء العربي أول مؤلف لغوي عربي حديث قائم على فكرة النشوء والارتقاء ، أعني كتاب (الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية) ثم أتبعه عام ١٩٠٤م بكتابه الثاني (اللغة العربية كائن حي) .

وبين عامي ١٨٨٨ و ١٩٢٨ كان جبر ضومط [٣٦] ، قد نشر جملة من المقالات جمعها وطبعها في كتاب يحمل عنوان (فلسفة اللغة العربية وتطورها) ، ذكر على غلافه أنه مجموعة من المقالات التي تتناول تاريخ اللغة العربية ، ونهضة الأقوام الناطقين بها ، وفلسفة نشوئها ووسائل ترقيتها .

وفي سنة ١٩٣٨م نشر الأب أنستاس ماري الكرملي [٣٧] ، كتابه (نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها) ، ويظهر من عنوانه أنه يقوم على فكرة النشوء والارتقاء في مراحلها المختلفة . وبوسع الباحث أن يلمس أثر الفكر الدارويني في مباحث إسماعيل مظهر [٣٨] ، وفي الفكرة العامة التي قام عليها كتابه (تجديد العربية) ، وكذا في تقديمه كتاب (مقدمة لدرس لغة العرب لعبد الله العلايلي) [٣٩] ، وقد تجد صدى الفكر الدارويني بصورة محدودة عند أحمد رضا العاملي [٤٠] . في كتابه (مولد اللغة) ، وبصورة مستعلنة في مصنفات الأب مرمرجي الدومينيكي ، غير أننا سنكتفي هنا بعرض مباحث الأربعة الأوائل (صرُّوف وزيدان وضومط ، والكرملي) ، مراعين في تقديمهم ما هو بين أيدينا فعلا من مباحثهم المنشورة .

يعقوب صَرُّوف :

في وسع القارىء أن يلحظ بيسر تأثير الباحث بالفكر الداروينى في كثير من المسائل التي عالجها في مباحثه وإن كنا نلحظ عدم انتصاره لآراء الداروينيين كافة ، وأنه حافظ على استقلاليته في غير موضع ، فإذا ما تخطينا عنوان مباحثه ـ تولد اللغات ونموها ـ برائحته التطورية الفواحة ، بدت لنا اللغة عنده بأنها المحكية المنطوق بها للتعبير عما في النفس ، وأن الإنسان قد اكتسبها من خلال ما سمع وقلد من أصوات ، وهي ـ اللغة ـ قصر عليه دون سائر المخلوقات [٤١] ذلك أن الأصوات التي تطلقها الحيوانات للتعبير عن غايات معينة لا ترقى أبدا إلى درجة لغة الإنسان كما وكيفاً ، وقولنا : إن للحيوان لغته هو من باب التوسع [٤٢] .

واللغة في مجموعها ليست شيئا يرثه الإنسان من أسلافه على نحو ما يرث منهم الهيئة واللون وبعض الطبائع . ولا هي شيء ينمو فيه من نفسه ، نمو أعضائه المختلفة ، بل هي ملكة يكتسبها من محيطه الذي يولد ويعيش فيه . ولكن هنا الرأي ليس على إطلاقه ، فقد يكون للوراثة قدر قليل من التأثير في اللغة [٤٣] ، يقول صرُّوف : «إن جميع الزنوج الذين سمعناهم يتكلمون العربية في بر الشام ، وجدنا في لهجتهم شيئا يميزها عن اللهجة الشامية ، ولو كانوا قد ولدوا في بلاد الشام ، وعندنا أن ذلك تسبب عن تركيب خاص في

حناجرهم وأفواههم تصل إليهم بالإرث ، غير أن هذه الخاصية الجنسية لا تدوم في نسلهم زمنا طويلا»[٤٤] .

ولغات العالم على كثرتها واختلافها ترتد بأصلها إلى لغة واحدة ؛ لأن البشر الذين يتكلمونها هم من نسل أب واحد هو صاحب اللغة الأولى المجهولة التي تفرعت عنها اللغات الأم المعروفة[٤٥] ، كما تفرعت هذه بدورها إلى أمهات كثر ، وقد تم ذلك على مدى أزمان طويلة بفعل ابتعاد اللهجات عن الأصل الذي اشتقت منه ، حتى صارت لغات قائمة بذاتها■ ومثلنا على ذلك الإنجليزية التي اشتقت من الجرمانية القديمة ، والفرنسية التي اشتقت من اللاتينية ، وعلى هذا النمط اشتقت لغات البشر بعضها من بعض ، وكثر عددها على مدى التاريخ الطويل[٤٦] .

إن اللغات الحية عنده كالجسم الحي تولد ، وتنمو ، وتشب ، وتشيخ ، وتهرم ، وتموت[٤٧] شأنها في ذلك شأن كل الكائنات الحية ، فهي لا تلبث على حالة واحدة ، بل تظل في نمو دائم وتغير مستمر[٤٨] . فإذا نظرنا إلى كل لغة من اللغات المستعملة الآن ، وقابلناها بما كانت عليه منذ ألف سنة ، رأينا أنه قد حدث فيها تغيير كثير ، بين الزيادة والنقصان والإبقاء والإهمال ، ولم يحدث هذا التغيير بقصد أو تدبير بل جرى على ناموس الطبيعة في تغيير كل حي نباتا كان أو حيوانا أو لغة[٤٩] .

جورجي زيدان :[٥٠]

يستحق جورجي زيدان في مباحثه اللغوية درسا مستقلا مفصلا لكونه صاحب أول مؤلف عربي في الدرس اللغوي الحديث[٥١] ، ولتأثره الواضح بالفكر الدارويني في تصنيف كتابيه (الفلسفة اللغوية ، واللغة كائن حي) ، غير أننا سنكتفي في عجالتنا هذه بعرض مجمل مظاهر تأثر الباحث بنظرية النشوء والارتقاء .

فقد ذكر في مقدمة (الفلسفة اللغوية) أن موضوع الكتاب هو البحث التحليلي في كيفية نشأة اللغة العربية ، وتكونها باعتبار أنها اكتسابية خاضعة لناموس الارتقاء العام[٥٢] ، ثم عقد فصلا في تعريف اللغة وأصل نشأتها فانتهى إلى أن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[٥٣] ، وهي ليست توقيفية بل اصطلاحية ناشئة عن محاكاة أصوات الطبيعة

وعن الأصوات التي يطلقها الإنسان غريزيا ، وهي قد نشأت في أول أمرها أحادية المقطع ومن هذه الأصوات نشأت ونمت حتى بلغت ما هي عليه الآن بتراكيبها وتنوعها بين نحت وقلب وإبدال واستعارة سدا لاحتياجات الإنسان ، وجريا على ناموس الإرتقاء العام [٥٤] .

وقد أدار بحثه ـ بعد ذلك ـ على خمس قضايا ونتيجة كلها ذات صلة بالفكر الدارويني هي :

القضية الأولى : إن الألفاظ المتقاربة لفظا ومعنى هي تنوعات لفظ واحد ، وإن هذه التنوعات قد حصلت بموجب ناموسين عظيمي الاعتبار هما : القلب والإبدال .

والقلب هو تقديم أحد حروف اللفظ الواحد أو تأخيره مع حفظ معناه ، أو تغييره تغييرا طفيفا ، وهو أقل وروداً من الإبدال ، ومن أمثلته قولهم بمعنى واحد : لطم ولمط ، وبعزق وزعبق . . . الخ [٥٥] .

وأما الإبدال فهو أعظم أهمية في ألفاظ اللغة ، ونعني به إبدال حرف من كلمة ما بحرف يقرب منه لفظا ، ويحصل الإبدال غالبا بين الحروف التي هي من مخرج واحد أو من مخارج متقاربة ، ومن أمثلة التقارب الحاصل بين أصوات الفاء والثاء مثلا قولهم : ثلغ وفلغ بمعنى شق [٥٦] .

القضية الثانية : إنّ الألفاظ المانعة الدالة على معنى في غيرها هي بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها ، ويشتمل هذا النوع من الألفاظ على الحروف وما يشبهها وأحرف الزيادة الداخلة عل الأفعال والأسماء في الاشتقاق [٥٧] .

وقد استعان في تمكين فكرته بمقارنة بين لغات سامية متعددة كقوله في مسألة (مع) : يستعمل العبرانيون (عم) والسريانيون (عم) لما هو في لغتنا (مع) حرف عطف ، واللفظة عينها في العبرانية وما يقابلها في السريانية تستعمل بمعنى شعب والعم الشرعي ، فيستدل من كل ذلك أن الأصل فيها الاجتماع والاتحاد ، فاستعملوها اسما وأداة عطف كما رأيت ، ولا يخفى أن (مع) مقلوبة عن عم [٥٨] .

القضية الثالثة : إن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها بالاستقراء إلى أصول ثنائية أحادية المقطع تحاكي أصواتا طبيعية [٥٩] ، وسنتناول هذه المسألة بالتفصيل في مبحث مستقل باعتبارها ثمرة من ثمار الفكر الدارويني .

القضية الرابعة : إن جميع الألفاظ المطلقة قابلة للرد بالاستقراء إلى لفظة واحدة أو

بضع الفاظ ، وهي تشمل : الضمائر ، واسم الإشارة ، واسم الموصول . فالمتأمل في هذه الألفاظ في لغات مختلفة يكاد ينتهي إلى أنها واحدة في جميعها ، وأنها من الأدلة الواضحة على وحدة الأصل فيها (٦٠) .

القضية الخامسة : إن ما يستعمل للدلالة المعنوية من الأسماء والأفعال قد وضع أصلا للدلالة الحسية ثم حمل على المجاز لتشابه في الصور الذهنية ، فالفعل (فصل) إنما نشأ أولا للدلالة الحسية على القطع ، ثم ما لبث أن حمل على المجاز للدلالة المعنوية في مثل قولنا : فصل الحكم الخصومات ، وفصل المولود عن الرضاع أي قطعه (٦١) .

وتفضي نتيجة هذه المقدمات إلى أن لغتنا في أول عهدها قد تألفت من أصول قليلة أحادية المقطع معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها مأخوذ عن الأصوات الطبيعية التي ينطق بها الإنسان غريزيا كالتأوه والزفير (٦٢) .

وهكذا فقد تبين لنا أن كتاب (الفلسفة اللغوية) قد عالج اللغة في تعريفها ونشأتها من أصوات قليلة ، وكيف ارتقت تلك الأصوات حتى صارت ألفاظا ، وتكونت اللغة على نحو ما هي عليه .

أما كتابه الثاني (اللغة العربية كائن حي) فقد تناول فيه ألفاظ العربية وتراكيبها بعد تمام تكونها ، فبحث فيما طرأ عليها من التغيير بالتجديد أو الدثور ، فوقف على قدر من الألفاظ والتراكيب التي دثرت من اللغة بالاستعمال ، وما قام مقامها من الألفاظ والتراكيب الجديدة ، وما تولد فيها أو اقتبسته من سواها مع بيان الأحوال التي قضت بدثور القديم وتولد الجديد ، وساق أمثلة مما دثر أو أهمل أو تولد ، أو دخل ، خلال تاريخ العربية الطويل في عصورها الممتدة منذ الجاهلية حتى نهضتنا الحديثة (٦٣) .

وقد صدر الكتاب بتمهيد في نواميس الحياة وخضوع اللغة لها . فذكر أن النمو من أهم نواميس الحياة ، وهو ينطوي على دثور الأنسجة وتوليد ما يحل محلها ، ومعنى ذلك أن الجسم الحي مؤلف من خلايا لكل منها حياة مستقلة ، إذا انقضت ماتت الخلية ، وتولدت في مكانها خلية جديدة . واللغة عنده شأنها شأن الجسم الحي تتبعه في الخضوع لهذه النواميس ، فهي كائن حي تام خاضع لناموس الارتقاء ، ولا بد من توالي الدثور والتولد فيها أراد أصحابها ذلك أم لم يريدوا (٦٤) .

جبر ضومط

كتب يعقوب صروف سنة ١٩٢٧م مقالة بعنوان (الأستاذ جبر ضومط ومباحثه في نشوء اللغة العربية) [٦٥] حيث وقف طويلا عند كتاب صغير لضومط بعنوان (الخواطر في اللغة) نشر ١٨٨٥م ومما ذكره في شأن الكتاب أنه على صغره قد جمع أكثر المبادىء الأولية التي سارت عليها اللغة في نشوئها وارتقائها وهو بحث مبتكر ، وأن مؤلفه يماثل (ليل) في علم البيولوجيا ، وطبقات الأرض ولامارك وداروين في نشوء الأحياء وتولد بعضها عن بعض ، ومندل في كشف ناموس الوراثة وتطبيقه على الأحياء [٦٦] .

ومن الأمثلة الكثيرة التي ساقها صروف من كتاب الخواطر ، أن بناء الفعل (جلس) على فتح آخره وتعديته بالهمزة واتصاله بتاء المتكلم المضمومة أو المخاطب المفتوحة أو المخاطبة المكسورة ، أن هذه الصور كلها قد بلغت حدا من الرقي بعد أن دخلها المزج والنحت مدة قرون لا تحصى [٦٧] . قال في معرض كلامه على الضمائر : «ومن هذا القبيل تعليله للضمائر ، فإن لضمير المتكلم في العربية صورة واحدة وهي (أنا) مفردا و (نحن) جمعا ، وفي السريانية : أنا مفردا و (انحن) جمعا ، وفي العبرانية (أني أو أنوخي) مفردا و (أنحن) أو (نحن) أو (أنو) جمعا ، وواضح من ذلك أن اللفظة (نحن) العربية مركبة من نا أو أنوخي العبرانية ألحق آخرها بالنون الدالة على الجمع» [٦٨] ثم بين أن الضمائر المتصلة منحوتات من الضمائر المنفصلة ، فالتا المضمومة من أنوخي ، والمفتوحة من أنت ، والمكسورة من أنت والواو من همون أو همو ، والنون في : ضربن من هن ، ونا من نحن ، وهلم جرا . . . الخ [٦٩] .

ومن سوء حظنا أننا لم نهتد إلى هذا الكتاب ذي الأهمية التاريخية والموضوعية ، ومن سوء الحظ كذلك أننا لم نعثر على أثر من هذه الأفكار في كتاب جبر ضومط (الخواطر العراب في النحو والإعراب) فقد عرض مادة النحو والصرف بمنأىً عن فكرة التطوّر [٧٠] .

وأما كتاب (فلسفة اللغة العربية وتطورها) فقد سبق لنا أن ذكرنا أنه زين غلافه بقوله «إنه مجموعة مقالات في تاريخ اللغة العربية ونهضة الأقوام الناطقين بها وفلسفة نشوئها وترقيها» ، ومقالات الكتاب الثلاث والعشرون لا تكاد تجمعها فكرة واحدة ، لكن الذي يعنينا منها ثلاث مقالات [٧١] تضمنت آراءه في مسألة النشوء والارتقاء في اللغات عامة والعربية خاصة .

ينطلق جبر ضومط في مقالاته من إيمان عميق بأنه إذا كان ثمة لغة تستحق أن توصف بالحيوية والنماء فهي اللغة العربية لتميزها على غيرها بمقوم جوهري هو الاشتقاق عماد اللغة وأقوم مقوماتها : «وبعبارة أخرى هو حياتها وعليه يتوقف ارتقاؤها أو انحطاطها ، تقدمها أو تأخرها . . . وقد لا يخطىء من يقول إن اللغة هي الاشتقاق» (٧٢) وألفاظ اللغة تموت وتحيا أي يهمل استعمال بعضها فتموت ، ويستجد استعمال أخرى فتحيا ، ولا يمضي زمان يذكر إلا ويموت كثير من الألفاظ في كل لغة ومن بينها العربية ، ويحيا كثير أيضا ، واللغات النامية المرتقية هي ما كانت مواليد ألفاظها أكثر من وفياتها ، والعاقل المتأمل يعلم أن كثرة مواليد الألفاظ وقلّتها في اللغة يتوقف عل الاشتقاق ، فإن كان الاشتقاق مرتقياً نشيطا كثرت مواليد وعاشت مواليد وإلا قلت وماتت . وعليه فأرقى اللغات وأكثرها حياة هي ما كان الاشتقاق فيها أتم منه في سواها ، داخلا في كل فرع من فروعها (٧٣) .

واللغة العربية قديمة النشأة ، ولا بد أنها في أطوارها السحيقة قد أخذت في الارتقاء حتى وصلتنا في صورتها المحكمة الراقية في أشعار الجاهليين ونثرهم ، وأنها منذ عهدها بالإسلام والفتوحات الإسلامة وحتى اليوم قد مرت ـ حسب فاعلية أصحابها ـ بين مد وجزر فدخلت فيها ألفاظ كثيرة وخرجت من دائرة الاستعمال الفاظ مثلها في الكثرة ، وقد طرأ على لغة الكلام من التطور والتغيير ما يفسد بفعل التطور العلمي والمدني (٧٤) .

تلك خلاصة الأفكار التي تضمنها كتاب (فلسفة اللغة العربية) ، وهي كما يبدو لا تلبي ما كنا نطمح إليه من التعمق في تناول نشوء اللغة وتطورها بدرجة تتساوى مع ما أغرانا به الإعلان الداروني البراق الذي تصدر غلاف الكتاب ، كما لا يتساوى مع ما ألح عليه صروف من أن مكانة ضومط وأبحاثه تشبه مكانة (داروين ، ولامارك وليل ، ومندل) وأبحاثهم ، ولعل مرد خيبة أملنا عدم اطلاعنا على كتاب (الخواطر في اللغة) الذي أشار إليه صروف في مقالته التي كتبها في الأستاذ جبر ضومط ، ومباحثه في نشوء اللغة وارتقائها .

الأب أنستاس ماري الكرملي

ذكر الأب أنستاس أنه شرع منذ عام ١٨٨١م يذيع آراءه في نشوء اللغة وارتقائها(٧٥) وقد بسط أفكاره ـ فيما بعد ـ في كتابه (نشوء اللغة العربية) وفي معجمه (المساعد) وكذا

في مقالاته التي نشرها على صفحات مجلات لغة العرب ، ومجمع اللغة العربية في مصر والمجمع العلمي العربي في دمشق . . . الخ .

ومجمل فلسفته في هذه المسألة أن ألفاظ اللغة العدنانية ثنائية في أصل نشأتها ، وقد وضعت على هجاء متحرك فساكن محاكاة لأصوات الطبيعة ، ثم زيدت حرفا ثالثا في الصدر ، أو الحشو أو الذيل للتثبت من تحقيق نطق الحرف الثاني من الكلمة ، «ومنذ ذلك الحين بنيت كل لفظة عربية على ثلاثة أحرف وصارت لها كالأثافي ، وعليها أحكم وضع أصولها ، وما زيد على ذلك القدر من الأحرف ألحق بها لغايات شتى يذكرها علماء العربية في مطاوي مباحثهم» (٧٦) .

ويرى أن اللغة العربية في طورها التالي قد توسعت توسعا لا يقابله شيء في سائر اللغات المعروفة لما وقع في لغة الضاد من القلب ، والإبدال ، والتصحيف ، والتحريف ، وتشابه رسم الحروف والتعريب . وقد مثل لكل مسألة بفيض وافر من الألفاظ التي استحدثت بفعل ظاهرة من الظواهر المذكورة (٧٧) ثم ختم آراءه في تطور العربية بقوله : إنها بلغت من الرقي درجة تكاملها باكتهالها أي بنظامها الاشتقاقي الواسع القادر على استحداث مولدات جديدة دونما مشقة (٧٨) .

ومن آرائه ذات الوجه الداروني زعمه وجود قرابة بين اللغات المتنافرة (٧٩) ، وعلل ذلك بأن «الأم كلها ، ساميها وحاميها ويافثيها ، كانت يوما من الأيام مجتمعة في صعيد واحد ، مختلطة أفرادها بعضهم ببعض ، تتكلم وتتفاهم بما يكون لغة شاملة الجميع ، وقد بقيت آثارها في الألفاظ البسيطة التركيب ، الأولية البنية محاكاة للطبيعة» (٨٠) .

وقد تحرى مظاهر هذه القرابة في صور مناظرات بين العربية وسائر اللغات القديمة والحديثة ، فقال في مسألة تناظر العربية واليونانية واللاتينية : «وقد وجدنا المشابهات بين العربية واللغتين المؤتمتين (أي اليونانية واللاتينية) عظيمة جدا وبلغ بنا الاستقراء إلى هذه القاعدة وهي : كل لفظة يونانية أو لاتينية ذات هجاء واحد أو هجائين فلا بد من أن يكون لها مقابل في المضرية ، وقد تتفق معا في اللفظتين كل الاتفاق ، وقد تبتعد قليلا ، وهذا لا بد منه بعد نزوح الدار ، واختلاف العادات والأخلاق . . . إلى غير هذه الأمور التي تؤثر في المرء تأثيرا لا يمكن إنكاره» (٨١) .

وقد خلص من مناظرة العربية بالسكسونية إلى أن ثمة كلمات لم تزل ألفاظها ومعانيها تشكل بقايا عرى القرابة بين العربية واللغة السكسونية ، منها مثلا : BUT الإنجليزية وعلاقتها بكلمة (بيد) ، ومثلها BUY و(باع) ، THEN و (إذن) . . . . الخ (٨٢) وقد رد هذا التوافق في الكلمات المذكورة إلى اتصال عرب العراق في الأزمنة الغابرة بالسكسون وهم قبيل من الجرمان الآريين الذين سكنوا إيران (٨٣) .

وقد عزز رأيه في تناظراته بطرحه سؤالا افتراضيا هو : كيف يسوغ القول بالتناظر بين العربية واللغات اليونانية واللاتينية والسكسونية علما بأن العربية العصرية أو تلك التي استحكمت أصولها قبيل الإسلام غير العربية القديمة التي عاشت في العصور الضاربة في القدم ؟ فكان جوابه بأنه لا ينكر أن الصيغ ، والتراكيب والمباني قد اختلفت عما كانت عليه في الأزمان البعيدة العهد ، إلا أن مادتها الأصلية واحدة ، وهذا هو المهم والمعول عليه في معارضته اللغى بعضها ببعض (٨٤) .

وقد عقب إبراهيم السمرائي على مناظرات الأب (أنستاس) فوصفها بأنها اجتهادات من الغرائب والفرائد ، قال : «والافتراض أن الجرمان الآريين اتصلوا عن طريق إيران بالعرب في العراق شيء يفتقر إلى السند التاريخي ، وإذا كان هذا التقارب الضئيل في الألفاظ ، فليس لنا أن نوسع مقالتنا بالقول في مسألة تاريخية لم تعرف ضبطا وتحديدا» (٨٥) .

وقال ميشال زكريا في مسألة قرابة اللغات المختلفة : «أثبتت التجارب أنه لا يعول مطلقا على التوافق بين المفردات في عملية إثبات القرابة بين اللغات ، ذلك أنه بإمكان عدد كبير من المفردات الانتقال من لغة إلى أخرى ، إبان امتزاج الشعوب مهما تكن هاتان اللغتان مختلفتين أصلا ونموذجا» (٨٦) .

وفي ظني أن هذا التقارب الضئيل في الألفاظ ـ إذا لم يكن وليد الصدفة ـ يظل درسه نافعا في حدود المعقول والمقبول ، أما ما تراه في (المعجم المساعد) من تناظر بين العربية واليونانية فقد يخشى أن يكون فيه قدر من المغالاة (٨٧) .

وعلى أية حال فإنه يهمني في أعقاب استعراض هذه المباحث أن يكون القارىء العربي قد أطمأن إلى حقيقة لا نمل من تردادها هي أن فلسفة النشوء والارتقاء قد عملت عملها

الواضح في إذكاء حركة البحث اللغوي العربي ، وفي توجيهها كذلك . وتلك غاية بحثنا في هذه القضية .

ثنائية الأصول اللغوية :

خلاصة هذه المسألة أن الكلمات العربية تتألف من أصول ثنائية ، وأن ما تراه من ألفاظ ثلاثية أو أكثر إنما هي مستنبطة من حرفين أساسيين شديدين أو رخوين أو متوسطين بين الشدة والرخاوة ، وأن نشأة المادة اللغوية الأولى كانت محاكاة لأصوات الطبيعة ، ولما يطلق الإنسان من أصوات ، وأن تثليث المادة اللغوية قد تم بتضعيف الحرف الثاني ، أو بإضافة حرف آخر هو في الغالب حرف علة أو أحد أحرف الذلاقة أو الحلق او الصفير(٨٨) .

وقد بات الكلام على الثنائية مشغلة الدرس اللغوي منذ بداية الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، بعيد شيوع المذهب الدارويني الذي ترك أثرا جليًا على مجمل العلوم ومنها االلغة ، إذ أقبل باحثوها على تناول الجذر أو الأصل الذي اشتقت منه الكلمات فانتهوا إلى أنه في الكلمات القديمة كان أحادي المقطع يتألف من حرفين متحرك وساكن ، وأنه تطور بتالي العصور إلى ثنائي المقطع فثلاثي ، حتى صارت الكلمات على النحو المألوف لنا الآن(٨٩) .

وأول من تكلم على الثنائية من العرب في العصر الحديث(٩٠) هو الشيخ أحمد فارس الشدياق(٩١) في (سر الليال في القلب والإبدال) الذي طبعه بالآستانة سنة ١٢٨٤ هـ - ١٨٧٠م فلبُّه يقوم على أساس الثنائية متأثرا في ذلك بنظرية النشوء والارتقاء في نظر إبراهيم أنيس(٩٢) .

إن القرائن كلها تغرينا بالقول بأن الشدياق في (سر الليال) كان متأثرا بالنظريات اللغوية المعاصرة وبنظرية النشوء والارتقاء على وجه التحديد(٩٣) ، غير أن من الصواب ألا نهمل أثر مطالعته الواسعة في التراث الإسلامي والثقافة العربية في قيام نظريته الاشتقاقية القائمة على الثنائية بأسسها الأربعة .

الأساس الأول : قوله بنشأة اللغة محاكاة للأصوات الطبيعية واتخاذه المضاعف أصلاً للنشأة حيث يقول : «إني رأيت أن معظم اللغة مأخوذة من حكاية صوت أو حكاية صنعة وأن

حكاية الصوت إنما تأتي من المضاعف نحو : دب ودف ودق وهز وسف وقر ، فإذا أرادوا الزيادة في المعنى ضاعفوا الحرف فقالوا : دبدب ، دفدف ، دقدق ، هزهز ، سفسف ، قرقر)[٩٤] .

إنّ هذا الأساس وإن كان جائزاً أنه مستوحى من آراء العلماء الغربيين فإن فيه مالا يخفى من التأثُّر بالنص الشهير في الخصائص[٩٥] «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات ، كدوي الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، ونهيق الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد ، وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبل»[٩٦] .

الأساس الثاني : زيادة المبنى تعقب زيادة المعنى . إذ يرى الشدياق أن الثنائيات تدل على معان عامة ولكنها إذا ما زيدت فصارت ثلاثية أو أكثر تحدد معناها زيادة على اشتراكها في المعنى الأصلي لجذرها الثنائي[٩٧] .

إن الربط بين زيادة المبنى لزيادة المعنى ليس بجديد ولا هو من مستحدثات الحضارة العصرية بل هو قديم قدم التأليف اللغوي ، إذ يظهر ذلك بوضوح في مقدمة كتاب العين للخليل ، وفيه «صر الجندب صريراً وصرصر الأخطب صرصرة ، فكأنهم توهموا في صوت الجندب عدا وتوهموا في صوت الأخطب ترجيعا ، ونحو ذلك كثير مختلف»[٩٨] .

الأساس الثالث : القيمة المعنوية للصوت ، فمن أسرار العربية عند الشدياق أن كل حرف يختص بمعنى من المعاني دون غيره ، فحرف الحاء يفيد السعة والانبساط ، والدال للين والنعومة ، والميم للقطع . . الخ[٩٩] .

وهذا الرأي ـ وإن بدا مبتكرا ـ قريب مما ذهب اليه ابن جني في تخصيصه الصوت بقيمة معنوية ، ففي الخاء مثلا رخاوة ، وفي القاف صلابة . . الخ[١٠٠] .

الأساس الرابع : القلب ، إذ بنى الشدياق سر الليال على ذكر المادة اللغوية الثنائية ثم مقلوبها ثم مجانسها وهو في هذا الصنيع ربما كان متأثراً بالمعجميين العرب القدامى ، يقول رمزي بعلبكي : «إن تقليب المادة الثنائية ، وإفراد الثنائي في قسم خاص من أقدم سمات المعجم العربي ، كذا صنع الخليل في كتاب العين . . وكذا صنع أيضاً ابن دريد ، بل إن ابن دريد جاوز الخليل إذ جعل الثنائي الصحيح كله في باب كبير ولم يوزعه على رؤوس الحروف

المتفرقة ، كما أفرد بابا ينتظم كل ثنائي ملحق ببناء الرباعي المكرر معتمداً القلب في كل مادة» (١٠١) .

وهكذا ترانا ننتهي بعيد تطوافنا حول ثنائية الشدياق وأصولها إلى ما ابتدأنا به هذا البحث . فالقرائن كلها تغرينا بالقول بأن الشدياق في سر الليال كان متأثرا بالنظريات اللغوية الحديثة خاصة ما أفرزته النظرية الداروينية في مسألة النشوء والارتقاء ، وأنه في الوقت ذاته كان أسير ثقافته التراثية الواسعة ، حتى إن كفة أثر التراثية ترجح عند بعض الباحثين على أثر النظريات اللغوية المعاصرة (١٠٢) .

وعلى أية حال فإن الشدياق يعد أول من تكلم من العرب على الثنائية في العصر الحاضر ، ثم تلاه جورجي زيدان في كتابه الفلسفة اللغوية الذي كان ثمرة من ثمار الفكر الدارويني على نحو ما أسلفنا .

فقد أشرت فيما مضى إلى أن زيدان ذكر في القضية الثالثة : «أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها بالاسترقاء إلى أصول ثنائية أحادية المقطع تحاكي أصواتاً طبيعية» (١٠٣) ، وتشتمل هذه الألفاظ على الاسم والفعل وما يشتق منهما ، واللغويون يردُّون كلا من الاسم والفعل إلى أصول معظمها ثلاثية وبعضها رباعية ولا يرون هذه الأصول قابلة للرد إلى أقل من ذلك ، أما عند جورجي زيدان فهي تقبل ذلك ولو بعد العناء (١٠٤) .

فالألفاظ الرباعية هي في أصلها ثلاثية مزيدة بحرف أصلي نحو جلبب وبلبل ، أو بحرف دخيل كما في نبذر بمعنى بذر وسلطح بمعنى سطح ، وبعثر بمعنى بعث وقطعر من قطع وقس عليه (١٠٥) .

وهكذا نرى أن الأصول الرباعية مزيدة والأصل فيها ثلاثي ، والثلاثي ، أيضاً مزيد الأصل فيه ثنائي غالبا . فالكلمات قط ـ قطب ـ قطع ـ قطف ـ قطم ـ قطل جميعها تشترك بحرفين هما الأصل المتضمن المعنى الأصلي لها وهو القطع إلا أن كل واحدة من الألفاظ المذكورة بعد زيادتها قد استعملت لتنوع من تنوعات معنى القطع (١٠٦) .

وقد تحدث الزيادة في آخر الكلمة على نحو ما قلنا وهو الأغلب ، وقد تكون في الوسط

بن الحرفين الأصليين نحو : فرق من فق ، وقرض من قض وقرص من قص ـ وقد تكون في أول الكلمة نحو : رفت من فت ولهب من هب ورفض من فض . . الخ [١٠٧] .

وينتهي من عرض أمثلته التي لا تخلو من العناء والتكلف [١٠٨] إلى القول : «والخلاصة أننا نستدل من إمكان تجريد قسم عظيم من الأصول الثلاثية إلى أصول ثنائية تحاكي أصواتا طبيعية ، ومن كون ألفاظ اللغة من شأنها الغير والتنوع لفظا ومعنى ، على أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها إلى أصول ثنائية أحادية المقطع تحاكي أصواتاً طبيعية» [١٠٩] .

ذلك عرض موجز لآراء زيدان في ثنائية الألفاظ ، ويكاد الأب أنستاس ماري الكرملي يكون مطابقا له فيما ذهب إليه بأن نشأة الألفاظ وتطورها ، وهي مطابقة ليست عن تأثر بقدر ما هي ناتجة عن توافق منطقي . ونحن هنا نكتفي بما سبق لنا أن عرضناه للكرملي من آراء في هذه المسألة [١١٠] ، فاسحين المجال لما أحدثه الأب مرمرجي الدومينيكي من ضجة في حركة البحث اللغوي حول الثنائية ، وذلك من خلال مؤلفاته المشهورة [١١١] وكذا من خلال محاضرته التي ألقاها بمجمع اللغة العربية بعنوان : (الثنائية والألسنية السامية) [١١٢] .

لقد استفاد الأب مرمرجي كثيراً من ثقافته العربية ، وكذا الغربية العصرية ، ومعرفته باللغات السامية ، ووظف ذلك كله في إقامة أود النظرية الثنائية حتى بلغت من التماسك حداً يكاد يغري المرء بالقول بها [١١٣] وقد أشار في مقدمة كتابيه (المعجمية العربية) و (مجمعات عربية سامية) إلى الثنائيين العرب القدامى والمحدثين ، وكذا القائلين بالثنائية من المستشرقين [١١٤] ثم عرض كما كبيراً من الألفاظ ذات الأصول الثنائية ، نجد مثالاً على ذلك كلمة الفصح ، إذ رأى أن الأصل السامي لهذه الكلمة كان يتألف من الحرفين الأولين أي الفاء والصاد أو ما يشبهها كالباء والسين أو الشين ، وساق لنا كلمات من اللغات السامية المختلفة تكون كل منها من حرفين الأول شفوي والثاني من حروف الصفير وكل هذه الكلمات التي ذكرها تعبر عن معنى الخروج أو الانتشار أو الانفصال . . . الخ ثم افترض أن الأصل السامي الثنائي قد زاد مبناه باتصال الصوت الحلقي وهو الحاء وتخصص المعنى الأصلي وأصبح مقصورا على الاجتياز والعبور . وهكذا نشأت كلمة الفصح الشائعة في

العبرية بوصفه عيداً . ويرى الأب مرمرجي أن الكلمة في صورتها الثلاثية ومعناها الخاص قد انتقلت من العبرية إلى شقيقاتها السامية ، وأنه لولا رجوعنا إلى الأصل الثنائي ما استطعنا الربط بين هذه اللغات في اشتقاق هذه الكلمات ؛ لأن المعنى يكاد يتحد بين هذه اللغات حين تقتصر عل الأصل الثنائي (١١٥) .

والثنائية عند الأب ليست هدامة الثلاثية والرباعية ولا هي مقوضة أركان المعاجم ، إنما هي وسيلة للتأصيل السابق طور التصريف . فالقائل بالثنائية يدع التصريف على ما هو للثلاثي والرباعي ويحصر عمله في المعجمية ، وفي هذا الحقل عينه لا يتوخى ملحق الثلاثي والرباعي ولكنه يرتئي بأنه كما أن الرباعي يسوغ رده إلى الثلاثي كذلك يمكن رد الثلاثي إلى الثنائي مما ينجم عنه أن ليس الثلاثي بدء الاشتقاق بل الثنائي .

ويرى عمليا أن في هذه النظرية فوائد جمّة للمعجمين ، منها تجلي الانسجام والتساوق في تشعب الألفاظ بعضها من بعض ، وتوسع المعاني وتطورها مما هو واضح القصد في الحالة الثلاثية الحاضرة (١١٦) .

لقد أحدثت النظرية الثنائية ضجيجاً في حركة البحث اللغوي بعد الدومينيكي فمن منتصر إلى معترض وإلى مناقش (١١٧) فممن انتصر لها بدرجات متفاوتة ، عبد الله العلايلي (١١٨) وحامد عبد القادر (١١٩) وباكزة رفيق حلمي (١٢٠) ، وتوفيق محمد شاهين (١٢١) . وخلاصة رأي هؤلاء أن الثنائي أكثر ورودا من الثلاثي وأن عددا كبيرا جدا من الأصول الثلاثية وما فوقها يرد إلى أصولها ثنائية الأصل (١٢٢) .

وفي مقابل هذا الاتجاه نرى إبراهيم أنيس يذهب مذهبا من الغرابة إذ يرى أن الكلمة الكبيرة كثيرة الحروف والمقاطع هي الأصل وأن ميل الإنسان في أطوار حياته نحو السهولة والتيسير قد دفعه إلى اختزال الكلمات الكبيرة لا زيادتها «وأن اللغات في أقدم صورها المعروفة كانت تتضمن كلمات كبيرة الحروف طويلة البنية متعددة المقاطع ، وأن هذه الكلمات بتوالي العصور قد أصبحت قصيرة البنية قليلة المقاطع ، وقد تم هذا نتيجة الميل العام لدى الإنسان في كل شؤونه الاجتماعية ومنها اللغة نحو أيسر السبل وبذل أقل الجهود» (١٢٣) .

وقد ختم بحثه بقوله : «وإذا صح بعد هذا ما يقول به بعض الدارسين من أن الإنسان

الأول بدأ كلامه بألفاظ ثنائية الحروف ثم تطورت إلى ثلاثية الحروف . . الخ . فقد كنا نتوقع بعد مرور تلك الملايين من السنين على النطق الإنساني أن تصبح كلماته الآن معظمها من رباعيات الأصول أو خماسياتها ، أو على الأقل كان يجب أن يكون عدد الكلمات الرباعية الأصول في لغتنا العربية أكثر من عدد الكلمات الثلاثية الأصول أو مساوية لها !! . وننتهي من هذا البحث بتلك الحقيقة العلمية التي يجمع عليها المحدثون من علماء اللغات في العالم وهي : أننا لا نكاد ندري شيئا من صور الكلمات التي نطق بها الإنسان الأول ، وإنما الذي ندريه ونجزم به هو أن مقارنة صور الكلمات في العصور التاريخية المختلفة قد برهن لنا على أن الميل العام في تطور كل اللغات نحو اختزال البنية في الكلمات» (١٢٤) .

أما أصحاب الاتجاه الثالث فهم القائلون بوجود الثنائية في أصول بعض ألفاظ العربية والساميات عموما ، ولكنهم ينكرون رد الكلمات ذات الثلاثة أو الأربعة إلى أصول ثنائية ويمثل هذا الاتجاه الأب هنري فليش (١٢٥) ومحمود فهمي حجازي (١٢٦) ورمضان عبد التواب (١٢٧) إذ يرى هنري فليش أن في العربية عدداً قليلا من الكلمات ذات الأصول الثنائية وهي عنده سبع وثلاثون كلمة نحو كلمة يد ، وهناك عدد كبير من الكلمات ذات الأصول الرباعية وهي مسجلة في المعاجم ولكن بعض الإحصائيات التي أجريت على النص القرآني كشفت عن وجود خمسة عشر أصلاً رباعيا فحسب في مقابل ألف ومائة وستين أصلا ثلاثياً ، وهي نسبة جد ضعيفة في نص يعتبر أساسيا في تراث اللغة (١٢٨) .

والجانب الأكبر من الكلمات العربية يتألف من أصول ثلاثية وهو أساس الاشتقاق فيها (١٢٩) .

ويرى محمود فهمي حجازي أن البحث المقارن في اللغات السامية قد أثبت أن الأصل الثلاثي كان عاماً في أكثر اللغات السامية ، وأن كلمات يمكن أن ترد إلى أصول ثنائية ، منها مجموعة الأسماء الدالة على القرابة نحو : أب وأم وأخ وعم ، ومجموعة الألفاظ الدالة على جسم الإنسان نحو : يد ودم ورئة ولثة (١٣٠) . وهناك مجموعة من الأفعال التي نعرفها في شكل ثلاثي يمكن ردها بالمقارنة إلى أصل ثنائي كالفعل سكب . فالظاهر أنه مزيد عن (كب) وسخف عن خف ، ونقص من قص ، ونذل من ذل ، ونجس من جس (١٣١) .

وخلاصة الرأي في الثنائية عند رمضان عبد التواب أنها وإن وجدت في بعض

الكلمات السامية ، فإننا لا يصح أن نعدها الأصل الأول لهذه اللغات [١٣٢] وأن الأب مرمرجي الدومنكي قد خدعه ما آل إليه المضعف في بعض اللغات السامية بعد أن سكنت أواخر كلماتها لسقوط الحركات الإعرابية وغيرها ، فضاع التضعيف منها ، وصارت على حرفين ، فظن أن هذا هو الأصل فيها . . . ونسي أنه عند إسناد المضاعف إلى الضمائر في العبرية والسريانية يظهر التضعيف [١٣٣] .

وإلى هنا نصل إلى الغاية المقصودة من البحث في هذه المسألة وهي الوقوف على أثر الفكر الداروني في إذكاء حركة البحث اللغوي العربي . غير أن من الأنسب أن نذيل هذا البحث ببيان موقفنا من هذه القضية .

إن البحث في الثنائية عندي ينطوي على نفع كبير ، ولم يكن عديم الجدوى ، وإن بدا أنه في تعامله مع النشأة الأولى للغة في عصورها السحيقة ربما يكون قريبا من الخوض في ميتافيزيقا التاريخ الغابر .

والقول بأن ألفاظ اللغة نشأت أحادية المقطع محاكية الأصوات الخارجية ، ثم تطورت بعد ذلك إلى الثلاثي والرباعي تتويجاً أو إقحاما أو تذييلا - إن ذلك يبدو أمرا منطقيا ينسجم مع العقل ولكنّ السؤال الذي يعترض سبيلنا ههنا منذ متى كانت اللغة تسير في تطورها وفق مقتضيات العقل والمنطق ؟! .

وإننا على بعد الشقة بيننا وبين البدايات الأولى لنشأة اللغة قد نجد أن من العسير علينا أن نقنع أنفسنا بأن بعض الكلمات الثلاثية هي مزيدة الثنائي ، وقد عبر عبد الله أمين عن ذلك صراحة بأنه لا يمكننا أن نسلم بأن رجلاً أصله : رج ، وقردا أصله : قر ، وفيلا أصله : في ، كما يقولون [١٣٤] غير أن من الثابت لدينا وجود كلمات ثنائية نحو : يد ودم وأب وأم وأخ . . الخ . وليس من الحكمة حمل هذه الكلمات وأمثالها على الثلاثي قسرا ، وأعتقد أن تأويل الصرفيين لثلاثيتها ينطوي على قدر واضح من التكلف ، يكاد يساوي تكلف الثنائيين في ردهم الثلاثي والرباعي إلى أصلين .

ومن أغرب القول الزعم بأن الكلمات قد وجدت كثيرة الحروف متعددة المقاطع ثم سارت في تطورها نحو الاختزال والنحت تبعا لقانون السهولة والتيسير الذي يحكم اللغات جميعها [١٣٥] .

إن الميل نحو الاختزال والنحت لا يحدث في طور التكون والنشوء بل في عصر الكهولة والهرم . واللغة في هذا الصدد شأنها شأن كل ما يحيط بالإنسان من مستلزماته تنشأ بسيطة ثم تتطور بعد ذلك تطورا يستلزم تهذيبها على مر الزمان ، فألفاظ لغة الإنسان أشبه بالأشجار من حوله تنمو تلقائيا حتى إذا ما كبرت امتدت إليها يد الإنسان بالتنسيق والتقليم .

وثمة مسألة أخرى يحسن التنبيه عليها وقد ساقها ابراهيم أنيس حجة على عدم صحة رأي القائلين بأن الثنائي تطور إلى ثلاثي أو رباعي وهذه المسألة هي أن القول بتطور الكلمة من الثنائية إلى الثلاثية لا يعني بالضرورة أن تظل عرضة للتطور إلى الرباعية فالخماسية فالسداسية . . الخ . حقا إن طريقة التوسع والاشتقاق قائمة على الإرتقاء من الأقل والأنقص إلى الأكثر والأكمل ، ولكن هذا الأكثر والأكمل له حد لا تزيد الكلمة عليه بمرور الدهور والأزمان .

خلاصة القول أن الاختزال والنحت إنما يعتريان الكلمات في مراحل نموها المتأخرة أكثر بكثير من مراحل نشوئها الأولى .

الخاتمـــــة :

وبعد ، فقد استبان لنا ـ في ما تقدم ـ أن الفكر الدارويني كان مشغلة الحياة الفكرية عامة ، واللغوية خاصة ، في أوروبا طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وأن المثقفين العرب ـ وجلهم من النصارى ـ قد شغلوا في بداية اتصالهم بالغرب بنظرية النشوء والإرتقاء التي لم تكن عاصفتها قد هدأت بعد ، وأنهم في مجال اللغة قد تأثروا بها ، بل فتنوا بها ، وقد بدا ذلك واضحا في مباحثهم ، وكذا في القضايا الكبرى التي انبعثت عنها .

فقد لاحظنا في عرض القضية الأولى كيف تدافعت مباحث المؤلفين في الظهور بين عامي ١٨٨١ ـ ١٩٨٨ ثم كيف ظفرت المكتبة العربية بعدد من الكتب تناولت نشأت اللغات وتطورها مستعينة ـ بدرجات متفاوتة ـ بالفكر الدارويني في هذا المجال .

ولاحظنا في القضية الثانية كيف سرت أقوال الداروينيين في ثنائية الأصول اللغوية في مباحث الدارسين ابتداء من الشدياق فصروف فزيدان فالكرملي حتى بلغت الذروة عند الدومينيكي ، وكيف أحدثت هذه النظرية أثراً طيباً في الدرس اللغوي العربي .

الحواشي

١ ـ مقدمة أصل الأنواع ص ٨٥ ، والكتاب من تأليف (تشارلز داروين) ترجمة إسماعيل مظهر .

٢ ـ انظر هذه الأفكار مفصلة في :

أ ـ المقتطف : الجزء الثاني من السنة السابعة ١٨٩٢م ص٦٥ ، الجزء الرابع من السنة العشرين ١٨٩٦م ص٢٤٩ .

ب ـ كتاب (أصل الأنواع) وكذا مقدمة المترجم (إسماعيل مظهر) ص ٣ ـ ٢٦ .

٣ ـ لامارك (١٧٤٤ ـ ١٨٢٩م) .

٤ ـ انظر آراء (لامارك) مفصلة في تطور الحياة لكاترين جارن ص ١٢ ـ ١٣ ، أساسيات علم الجيولوجيا لمحمد يوسف وآخرين ص ٢٨ ـ ٢٩ ، المقتطف : الجزء الثاني من السنة السابعة ١٩٨٢م ص ٧٠ ـ ٧٢ ، ج٤ من السنة العشرين ص ٢٤٩ .

٥ ـ انظر النقد الموجه لآراء (لامارك) في المقتطف : الجزء الثاني من السنة السابعة ١٨٨٢م ص٧٢ .

٦ ـ انظر حياة داروين وثقافة ومؤلفاته ومنهجه في :

أ ـ تطور الحياة لكاترين جارمن ، ص ١٤ ـ ٣١ .

ب ـ المقتطف : الجزء الأول من السنة السابعة ١٨٨٢م ص ١ ـ ٦ .

ت ـ الهلال : عدد أكتوبر١٨٩٤م ص ٨١ ـ ٨٨ .

ث ـ مقدمة إسماعيل مظهر لكتاب (أصل الأنواع) ص٢٣ ـ ٨٤ .

٧ ـ انظر خلاصة النظرية الداروينية في النشوء والارتقاء في :

أ ـ تطور الحياة لكاترين جارمن ص ١٩ ـ ٣١ .

ب ـ المقتطف : الجزء الأول من السنة السابعة ١٨٨٢م ص ١ ـ ٦ ، والجزء الثالث من

السنة نفسها ص ١٢٤ ـ ١٢٧ ، الجزء الرابع من السنة العشرين ١٨٩٦م ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢ .

٨ ـ نقلنا هذه الأفكار وما قبلها بقليل من التصرف عن مجلة الهلال عدد اكتوبر ١٨٩٤م ص ٨٥ ـ ٨٨ .

٩ ـ انظر النقد الموجه للنظرية الداروينية في الأعداد التي ذكرناها سابقاً من المقتطف والهلال ، وانظر كذلك كتاب (الإنسان في القرآن) للأستاذ عباس محمود العقاد ص٨٨ ـ ٩٤ .

١٠ ـ انظر اللغة والتطور ـ د . عبد الرحمن أيوب ص ٣٦ ـ ٤٣ .

١١ ـ ليس من الحكمة الركون إلى النظرية التي ينتصر لها الداروينيون القائلة بأن اللغة مظهر من مظاهر الطبيعة ، فربما كان من الصواب القول إنها كذلك في جانب من جوانب نشأتها . وإنها بنت النظريات المعروفة مجتمعة ، فهي توفيقية ، اصطلاحية ، وتقليد ومحاكاة واستعداد نفسي غريزي وعقلي جماعي . . . الخ وربما كان أقرب إلى الصواب اليوم الأخذ بنظرية (جسبرسن) في نشأة اللغة ، فقد صاغها من مجموع النظريات اللغوية .

١٢ ـ إن مقالة الداروينيين في هذا الشأن تبدو مقنعة إلى حد كبير ، على الرغم من تحذيرات الباحثين من الاندفاع في هذا الاتجاه ، وعلى الرغم من كثرة ما أحصوه من الفروق الكبيرة بين لغة الإنسان وما يسمى بلغة الحيوان وقولهم : إن اللغة الحقيقية ظاهرة خاصة بالإنسان فليس يطعن في كفاية لغة مملكة النحل المنظمة خلوها من ألفاظ تعبر عن أعماق المحيطات أو أعالي الأبراج وناطحات السحاب ، وذلك لمحدودية عالم النحل ومجاله . وليس يطعن في لغة الحيتان عامة قصورها عن أن تكون لها مقدرة لغة البشر على النطق والابتكار ، وكذا قدرة الإنسان على أن يركب من الأصوات المفردة مئات الألوف من المفردات ، وإن يركب من الجملة النواة عدداً لا يحصى من الجمل التشومسكية ، فالمخلوقات ولغاتها لها حدودها التي تتناسب ووظيفة كل فصيل في هذا الكون .

انظر : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، للدكتور نايف خرما ص ١٤١ ـ ١٥٣ .

١٣ ـ يرى نايف خرما أن العلماء لم يتوصلوا بعد في ظل نظرية النشوء الارتقاء إلى معرفة أقرب اللغات الحيوانية صلة بلغة البشرية ، فقد اتضح للعلماء أن لغة القرود تختلف اختلافا جذريا عن لغة الإنسان على الرغم من القرابة بينهما من الناحية البيولوجية .

انظر : أضواء عل الدراسات اللغوية المعاصرة ص ١٦٢ .

١٤ ـ انظر اللغة والتطور ص ٣٧ . وقد بات الكلام على تطور اللغة أمراً مألوفاً على ألسنة الباحثين العرب ، فتراهم يذهبون إلى أن الجاهلية مثلاً حلقة في سلسلة حلقات طويلة من التطور والتغير ، وذهب رمضان عبد التواب إلى أن التطور الصرفي للمفردات يندر أن يشمل جميع الحالات التي يؤثر فيها ، فهو يدع عدداً من الصيغ القديمة تستمر في الاستعمال إلى جانب الصيغ الجديدة ، وهكذا تترك كل حلقة من حلقات التطور الصرفي بقايا لها ، وهذه البقايا من النظام القديم تبدو في صورة الشواذ في داخل النظام الجديد . وقد اعتبر الشواذ أو البقايا المتخلفة عن التطور ركاماً لغويا ، ولكنه لم يعدها حلقة وسطى بين لغة الإنسان ولغة الحيوان . انظر لحن العامة والتطور اللغوي ص٣٧٦ . وذهب مصطفى جواد ومهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي إلى شيء من هذا القبيل باعتبارهم أسماء الأفعال أفعالاً شاذة جمدت عن مسايرة التطور اللغوي ، انظر :

أ ـ المباحث اللغوية في العراق ، مصطفى جاد ص ٧ .

ب ـ في النحو العربي نقد وتوجيه مهدي المخزومي ص ٢٠٠ ـ ٢٠٦ .

ت ـ الفعل زمانه وأبنيته ، إبراهيم السامرائي ص ١٢٠ ـ ١٣٢ .

١٥ ـ انظر في هذا الشأن :

أ ـ الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادىء والأعلام ، د . ميشال زكريا ص ١١٢ ـ ١١٤ .

ب ـ علم اللغة العام ، د . عبد الصبور شاهين ، ص ١٦ .

١٦ ـ اللغة والتطور ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

١٧ ـ المرجع نفسه ، ص ٣٨ .

١٨ ـ المرجع نفسه ، ص ٥٧ .

١٩ ـ اللغة والتطور ، ص ٣٩ ـ ٤١ ـ إن هذا التقسيم المنسجم مع الفكر الداروينى لا يجد سنداً قويا في الدرس اللغوي ، وقد عبر مراد كامل عن ذلك بقوله : (وقد أقام علماء اللغة هذه الأقسام الثلاثة) .

انظر : الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية لجورجي زيدان ص ٢٢ ـ الحاشية . وقال ماريوباي معقباً على رأي أصحاب هذا الاتجاه في تقسيم اللغات : (وتعارض بعض الأدلة هذه النظرية في تقسيم اللغات ، فقد كانت اللغة الإنجليزية في أول عهدها لغة صرفية ولكنها صارت الآن لغة جامدة : كما يتعارض هذه التقسيم مع الأسس المنقية ، حيث تجد أن كل لغة من اللغات يمكن أن تندرج تحت أكثر من قسم واحد) ، لغات البشر ص ٦١

وقد اعترض علي عبد الواحد وافي وصبحي الصالح على رأي شليخر في تقسيم اللغات فذهبا إلى أن مراحل التطور الثلاث موجودة في مختلف الألسنة ، ومن العسير أن تتجرد منها لغة من اللغات . انظر علم اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ١٠٨ ، دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح ص ٤٦ .

٢٠ ـ اللغة التطور ، ص ٤١ .

٢١ ـ لا يبدو أن اختلاف الأصوات في الجماعات الحديثة عنها في الجماعات المتقدمة يعزى لاختلاف تشريحي ، بل يعزى لتفاعلات جملة من العوامل الاجتماعية ، والمدنية والمنهجية ، والسياسية ، فضلاً عن عمل القوانين الصوتية ذاتها .

إننا في العالم العربي لا نملك أن نرد لأسباب تشريحية التغير الذي طرأ على نطق الذال حتى صار زاياً ، والقاف همزة في مصر وبلاد الشام ، علماً بأن هذا التغير قد فشا بصورة واضحة منذ قرن من الزمان ، وإن كان أبو الطيب اللغوي قد ذكر في كتابه الإبدال ٥٦٢/٢ عن بعض العرب قولهم في القفز : الأفز ، وانظر اعتراض د . إبراهيم أنيس على رأي الداروينيين في تفسير التغير الصوتي في كتابه الأصوات اللغوية ص ٢٣١ ـ ٢٣٤ . وانظر رأي فندريس في أسباب التغير الصوتي في كتابه اللغة ص ٦٢ ـ ٨٢ .

٢٢ ـ انظر هذه الآراء في كتاب اللغة والتطور وقد نقلناها بقدر محدود من التصرف .

٢٣ ـ للوراثة أثرها الضيق في الحالة اللغوية ، وذلك أن الرضيع يرث عن أبويه وأجداده خصائص جسمية ، وربما يرث عيوباً لغوية تتمثل في عدم القدرة على النطق والابداع ، ولكنه يكتسب لغته اكتساباً في مراحل عمره المختلفة ، والدليل على أنه لا يرث اللغة أننا لو نقلناه فور ولادته إلى مجتمع يتكلم لغة غير لغة أبويه ، فإنه حتما سيكتسب لغة القوم الذين نزل بينهم دونما إعاقة من عامل وراثي أو عرقي ، يقول نايف خرما في هذا الشأن : «إننا لا يمكننا القول أن الطفل يولد مزودا بلغة معينة حتى ولو كانت تلك اللغة هي لغة آبائه وأجداده ، أو حتى القول بأنه يولد وعنده الاستعداد لتعلم لغة معينة بالذات» أضواء عل الدراسات اللغوية المعاصرة ص ١٥٤ .

٢٤ ـ انظر أسانيد (داروين) التي عرضناها في التمهيد .

٢٥ ـ انظر أسانيد (داروين) التي عرضناها في التمهيد .

٢٦ ـ يقول مراد كامل معقبا على رأي الداروينيين في هذا الصدد «ومن الخطأ أن نعتبر اللغة كائنا مثاليا ، تتطور مستقلة عن البشر ، . . . إن اللغة لا توجد خارج أهلها الذين يفكرون بها ، ويتكلمون بها . . . فاللغة ظاهرة اجتماعية تنشأ كما نشأ غيرها من الظواهر الاجتماعية . . . وليس تطور اللغة إلا مظهر من مظاهر تطور الجماعة» ، اللغة كائن حي لجورجي زيدان ص١٢ .

٢٧ ـ انظر مظاهر هذا التخلف في كتاب : من حاضر اللغة العربية للأستاذ سعيد الأفغاني ص١٣ ـ ١٧ ، والفكر العربي في مائة عام ، ص١ .

٢٨ ـ كان انتقالهم إلى مصر بسبب الفتنة الطائفية سنة ١٨٦٠م .

٢٩ ـ انظر كتاب : دور الشاميين المهاجرين إلى مصر في النهضة الأدبية الحديثة للدكتور أحمد طاهر حسنين .

٣٠ ـ كان جل المستنيرين من النصارى لما ظفروا به من حق التعلم والتعليم باللغة العربية ، ولقربهم من العالم الغربي وثقافته .

٣١ ـ انظر أثرالداروينية في الشرق العربي في كتاب الإنسان في القرآن الكريم للأستاذ عباس محمود العقاد ، ص٩٥ ـ ١١٧ ، وقد كان (شبلي شميل) أقوى أنصارها في العالم العربي .

٣٢ ـ انظر المقالات التي تناولت داروين «المذهب الدارويني» وقد سبق لنا ذكرها .

٣٣ ـ يعقوب صروف (١٨١٢ ـ ١٩٢٧) انظر الأعلام ٢٠٢/٨ ، معجم المؤلفين ٧ ـ ٢٥٣ .

٣٤ ـ انظر المقتطف الجزء العاشر من السنة العاشر ١٨٨٦م ص٣٧٧ ـ ٨٤ ، ٦٦٧ ـ ٦٧٠ ، ٧١٠ ـ ٧١٤ . وانظر الجزء الثالث من السنة الحادية عشرة ١٨٨٦م ص ١٢٧ ـ ١٤١ . الجدير بالذكر أن هذه المقالات لم يذكر اسم مؤلفها ، غير أن يعقوب صروف ذكر في تقديمه كتاب (فلسفة اللغة العربية (لجبر ضومط) أنه شرع في نشر هذه المقالات في المقتطف منذ عام ١٨٨٦م مما يؤكد بأنها له انظر مقدمة كتاب فلسفة اللغة العربية ص د .

٣٥ ـ جورجي زيدان (١٨٦١م ـ ١٩١٤م) انظر معجم المؤلفين ١٢٥/٢ ـ ١٢٦ .

٣٦ ـ جبر ضومط (١٨٥٩ ـ ١٩٣٠) انظر الأعلام ١٠٨/٦ ، معجم المؤلفين ١٠٩/٢ .

٣٧ ـ الأب انستاس ماري الكرملي (١٨٨٦ ـ ١٩٤٧م) ـ انظر الأعلام ٢٥/٢ ، معجم المؤلفين ١٧/٢ ـ ١٨ .

٣٨ ـ إسماعيل مظهر (١٨٩١م ـ ١٩٦٢م) انظر الأعلام ٣٢٧/١ .

٣٩ ـ من أهم مباحثه التي تعنيينا : ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء ، تاريخ الفكر العربي في نشوئه وتطوره ، وانظر تقديم إسماعيل مظهر لكتاب : مقدمة لدرس لغة العرب ص : د ، هـ .

٤٠ ـ أحمد رضا العاملي سنة (١٨٧٢م ـ ١٩٠٣م) ، انظر الأعلام ١٢٥/١ ـ ١٢٦ وأمين الخلوي ١٨٩٥م ـ ١٩٦٦م .

٤١ ـ لا يتفق صروف في هذه المسألة وأنصار الداروينية من علماء اللغة .

٤٢ ـ انظر : المقتطف الجزء العاشر من السنة العاشرة سنة ١٨٨٦ ـ ٥٧٧ . وهو بهذا لا يتفق مع الداروينيين .

٤٣ ـ انظر : المرجع نفسه ، ص٥٧٨ . وفي هذه المسألة أيضا لا يتفق مع الفكر الدارويني .

٤٤ ـ الصفحة نفسها ،وبوسعك أن تلاحظ النوافل بين صروف والداروينيين من علماء اللغة .

٤٥ ـ عقد (ماريوباي) مبحثاً بعنوان : أترجع اللغات لأصل واحد أم لأصول متعددة . فذهب إلى أن نشأة اللغة وأصلها ترتبط أرتباطاً تاماً بنشأة الإنسان وأصله ، فإذا كان أصل البشرية واحداً فلغاتها كذلك ، وإن كان أصلها متعدداً فإن كل جماعة فيها ظهرت لغتها على حدة بطريقة مستقلة عن اللغات الأخرى .

وعرض رأي داروين القائل بأن أوجه الشبه في تركيب الجسم بين مختلف الأجناس البشرية يبرر الاعتقاد بأن الجنس البشري كله ينحدر من أصل واحد . ثم عقب على ذلك بقوله :«ولكن الدلائل لا تثبت ذلك بطريقة قاطعة ، فقد أثار بعض علماء الأجناس احتمال نشأة الجنس الأبيض في أنقى صوره على شواطىء بحر البلطيق ، والأصفر عند منحنى نهر هوانج هو ، والجنس الأسود حول خليج غينيا ، وأن خصائص الأجناس ومميزاتها تتلاشى كلما ابتعدنا عن مراكز التجمع السابق ذكرها ، ومن الواضح أن هذا الافتراض يدل على ثلاثة أصول للجنس البشري يتبعها ثلاث أسر لغوية مختلفة» لغات البشر ص ٤٧ .

إن هذا الافتراض ـ لو سلمنا بصحته ـ ينسف النظرية الداروينية برمتها ، ليس أصل الأنواع من حيوان ونبات فحسب ، بل أصل اللغات كذلك .

٤٦ ـ انظر المقتطف ـ الجزء الثالث من السنة الحادية عشرة ٨٦ ص ٧٤ ـ ٧٧ ، ١٢٧ .

٤٧ ـ هل تموت اللغة حقا مثلما يموت الإنسان ، وينفق الحيوان ويهلك الزرع ؟ يقول : رمضان عبد التواب في معرض كلامه على العربية ولهجاتها : «ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن كل لغة كانت يوماً ما لهجة من لهجات كثيرة للغة من اللغات ثم حدثت عوامل كثيرة أدت إلى موت اللغة الأم أو اندثارها وانتشار كل بنت من بناتها في بقعة من الأرض مكونة لغة لها خصائصها ومميزاتها» ، فصول في فقه العربية ص ٧٣ .

أما محمود السعران فإن موت لغات وحياة أخرى مسألة نسبية عنده ، فالأمر مرهون باستعمال هذه اللغات أو انقطاع دورانها على الألسن . واللاتينية التي هي أشهر مثال يساق على موت اللغات ، إنها عنده لم تمت حقاً ، بل أصابتها تغيرات عميقة أنتجت أشكالاً لغوية حديثة لها (ومن اللغات التي توقف الناس عن استعمالها الغالية التي حلت اللاتينية محلها . . والقبطية التي حلت محلها لغة الفاتحين العرب . .) اللغة والمجتمع ومنهج ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

وفي ظني أنه بوسعنا أن نقول ونحن مطمئنون : إن اللغات التي توقف أصحابها عن النطق بها هي في حكم الميتة ، أما إذا قبلنا مقولة أنها لم تمت حقاً وأنها أنجبت أشكالاً حديثة لها ، فإن ذلك ينصرف على الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، مع علمنا أن القبور تملأ الرحب ، وأن أديم الأرض من هذه الأجساد ، وقد سبقتنا العامة إلى تعميم هذه الفكرة بقولهم : (من خلف ما مات) .

٤٨ ـ ألح صروف على مسألة التغير في اللغة في مخارج الحروف وفي الألفاظ ، ودلالتها على معانيها . وألفاظ التغير أو التغيير ، والإبقاء والإهمال وناموس الطبيعة هي ألفاظ راجت في مباحث الداروينيين .

٤٩ ـ انظر المقتطف : الجزء العاشر من السنة العاشرة سنة ١٨٨٦م ص ٥٦٨٠ ، ٧١٠ ، ٧١٣ .

٥٠ ـ قد أخرنا الكلام على جورجي زيدان وحقه التقديم ، لأن فكرته في الدرس اللغوي قد اكتملت بصدور (اللغة العربية كائن حي) في مطلع القرن العشرين ، وهذا القول لا يعني أنه من الناحية التاريخية ليس من رواد البحث اللغوي الحديث ، بل الصواب أنه الرائد الأول في هذا المجال وكتابه الفلسفة اللغوية يبشهد له بذلك .

٥١ ـ نعني كتاب (الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية) الذي نشر سنة ١٨٠ .

٥٢ ـ انظر : الفلسفة اللغوية ، ص ١٦ .

٥٣ ـ لاحظ توافق هذا التعريف مع تعريف ابن جني للغة .

٥٤ ـ انظر : الفلسفة اللغوية ، ص ١٨ ـ ص٥٨ .

٥٥ ـ انظر : الفلسفة اللغوية ص٥٩ ـ ص٦٠ ، وفي وسع القارىء أن يلحظ بوضوح وجود ابن جني متربعا في فناء الأفكار التي عرضناها لجورجي زيدان ، فصاحب الخصائص موجود في تعريف اللغة ونشأتها ، وفي هذه القضية التي نحن بصدد دراستها ، والتي تذكرنا بما سماه ابن جني الاشتقاق الأكبر وتذكرنا بالفصل الذي عقده بعنوان تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني .

وقل ما بدا لك في سبب وجود ابن جني ههنا ، لعله راجع لثقافة زيدان ومطالعته

الواسعة ، أو تأثره بابن جني ، أو نقله عنه ، وأياً ما كان السبب فقد أخذ من ابن جني ما أخذ واحسن توظيفه في عرض أفكاره الداروينية .

٥٦ ـ المرجع نفسه والصفحة ذاتها .

٥٧ ـ نفسه ص ٦٧ ـ ٦٨ .

٥٨ ـ نفسه ص ٦٩ .

٥٩ ـ ترى نشأة ظبيان أن جورجي زيدان في قوله بالثنائية إنما هو متأثر بما جاء في (سر الليال في القلب والإبدال لأحمد فارس الشدياق) انظر حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام ص ٢٥٠ ، وفي ظني أن تأثر زيدان بالشدياق أمر قائم ، وإن كنا نعتقد أن قول زيدان بالثنائية مرتبط بنظرية النشوء والارتقاء على نحو ما سنوضحه بعد قليل .

٦٠ ـ انظر الفلسفة اللغوية ص ١١٥ ـ ١٢٦ . وليس من شك في أن الضمائر وأسماء الإشارة والموصول يجمعها الطابع الإشاري فأما صلة أسماء الإشارة بأسماء الموصول فأمرها لا يخفى في شواهد النحو القرآنية والشعرية . حسبنا أن نذكر على عجل توجيه النحاة لقوله تعالى : (وما تلك بيمينك) ، وقوله : (ها أنتم هؤلاء حاججتم) ، وتوجيههم قول الشاعر :

عدس ما لخلوق عليك إمارة ... نجوت وهذا تحملين طلق

وقد أنحى مصطفى جواد باللائمة على النحاة لعدم اهتدائهم إلى أن الأسماء الموصولة مأخوذة من أسماء الاشارة انظر : المباحث اللغوية في العراق ص ٨

ولأمر لا يبتعد كثيراً عما نحن بصدده نرى مهدي المخزومي في تقسيمه الكلام العربي يخرج الضمائر وأسماء الاشارة والموصول والشرط والاستفهام من حياض الاسهم ليحلها في قسم مستقل هو الكنايات ، انظر : في النحو العربي قواعد وتطبيق ص ٤٦ ـ ٦٣ .

٦١ ـ انظر الفلسفة اللغوية ، ص١٢٧ ـ ١٢٩ .

٦٢ ـ المرجع نفسه ، ص١٣٠ .

٦٣ ـ انظر مقدمة كتاب (اللغة العربية كائن حي) ، ص١٩ . وانظر تفصيل الأفكار المذكورة في ثنايا الكتاب .

٦٤ - انظر المرجع نفسه ، ص٢٣ - ١٣٨ .

٦٥ - انظر : مقدمة كتاب فلسفة اللغة العربية وتطورها ص : أ - هـ .

٦٦ - انظر المرجع نفسه ، ص : ج ، د .

٦٧ - نفسه ، ص : ج .

٦٨ - في رأيي أن هذا الكلام ربما يفتقر إلى السند العلمي والتاريخي .

٦٩ - مقدمة كتاب فلسفة اللغة العربية وتطورها ، ص : ج ، د .

٧٠ - انظر كتاب الخواطر العراب في النحو والإعراب - بيروت ١٩٠٩م .

٧١ - المقالات الثلاث هي :

أ - اللغة العربية ما أخذت وما أعطت ، ص ١١١ - ١٢٥ .

ب - ارتقاء اللغة العربية ، ص ١٧٣ - ١٩٣ .

ج - اللغة العربية واللغات الأوروبية ، ص ١٩٤ - ١٩٩ .

٧٢ - ههنا مسألتان هامتان :

الأولى : للاشتقاق أثره الواضح في تنمية اللغة ، غير أن الإسراف في الاشتقاق قد يفضي إلى الترهل اللغوي .

انظر رأي فندريس في محاسن الاشتقاق وعيوبه ، اللغة ، ص ٢٢٥ - ٢٤٥ .

الثانية : ليس بالاشتقاق وحده تنمو الفاظ اللغة أية لغة ، هذه اللغات غير الاشتقاقية شاهدة على ما نقول ، والأهم من ذلك أنه على الرغم من أن كبار الكتاب كانوا ينعون على لغاتهم قصورها عن الوفاء بما يحتاجون من ألفاظ فإننا نوافق فندريس وديكارت في ردهما على أولئك الأدباء ، يقول فندريس : «والواقع أننا لا نعلم إطلاقاً لغة قصرت عن إنسان عنده فكرة يريد التعبير عنها فلا تنصت إلى أولئك المؤلفين العاجزين الذين يحملون لغاتهم مسؤولية النقص الذي في مؤلفاتهم لأنهم هم المسؤولون على وجه العموم عن هذا النقص ، يقول ديكارت (أولئك الذين يفكرون خير تفكير ويهضمون أفكارهم خير هضم ليجعلوها واضحة مفهومة ، يستطيعون دائما أكثر من عداهم أن يفهموا الآخرين آراءهم ولو لم يتكلموا غير اليونانية السفلى» ، اللغة ص ٤٢١ .

٧٣ ـ فلسفة اللغة العربية وتطورها ، ص ١١٨ .

٧٤ ـ انظر هذه الأفكار في كتاب فلسفة اللغة العربية وتطورها ، ص ١٧٣ ـ ١٩٩ .

٧٥ ـ انظر : نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ص ٢ وهذا أمر عجيب ، لأن ذلك يعني أنه شرع يكتب في نشأة اللغة وهو ابن خمسة عشر ربيعا فهو قد ولد عام ١٨٦٦م .

٧٦ ـ المرجع نفسه ، ص ١٠٧ .

٧٧ ـ نفسه ، ص ١٦ ـ ٥٠ .

٧٨ ـ نفسه ، ص ١٢٩ ، وانظر تعقيب محمد سالم الجرح على محاولة الكرملي للتأريخ لتطور العربية ـ انظر ذلك في الجزء الخامس والثلاثين من مجلة مجمع اللغة العربية ص ٩٧ ـ ٩٨ .

٧٩ ـ وصف إبراهيم السامرائي هذه الآراء بأنها من الغرائب الغرائد . انظر : الأب أنستاس ماري الكرملي وأراؤه اللغوية ص ٨٨ .

٨٠ ـ مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الأول ص ٢٨٠ .

٨١ ـ نشوء اللغة العربية ، ص٥٠ ، انظر مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الأول ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

٨٢ ـ انظر : نشوء اللغة العربية ص ٧٠ ـ ص٧٤ ، وقد ذكر العقاد شيئا قريبا من هذا القبيل كان قد أذاعه الشيخ محمد أحمد مظهر في باكستان ، حيث سرد مئات من الكلمات الأجنبية يحسبها من مشتقات العربية على صورة من الصور اللفظية أو المعنوية .

ومن أمثلة ذلك أن كلمة Bit في الإنجليزية بمعنى قطع وهي من مادة (بت) العربية . . . الخ .

قال (العقاد) معقبا : وقد وفق الشيخ كل التوفيق في بعض هذه الكلمات ، ولكنه أوغل جدا في التخريجات المتتابعة للوصول بالكلمة إلى جذرها العربي فيما يراه) .

انظر : أشتات مجتمعات في اللغة والأدب (ص ١٥ ـ ١٦) ، وقد وقع في العالم الغربي شيء من هذا القبيل في القرن السابع عشر حين ذهب بعض الهواة من اللغويين إلى الأدعاء بأن بعض الكلمات اللاتينية واليونانية واللهجات المحلية من أصل عبري ، وحاولوا تأييد وجهة نظرهم عن طريق سرد كلمات عبرية أو كلدانية مقلوبة في

الشكل مع زيادة حروف عيها وإبدال بعض الحروف وعكس وضع بعضها الآخر حتى تطابق الكلمات الونانية واللاتينية) ، لغات البشر ص ٤٦ .

٨٣ ـ نشوء اللغة العربية ، ص ٧٠ .

٨٤ ـ المرجع نفسه ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

٨٥ ـ الأب أنستاس ماري الكرملي وآراؤه اللغوية . ص ٩٠ .

٨٦ ـ الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادىء والأعلام ، ص ١١٥ .

٨٧ ـ انظر : المعجم المساعد ـ الجزء الثاني ـ مادة (الأم) ص ٣٧ وهي عندنا مثال للمغالاة في التأويل .

٨٨ ـ انظر : ثنائية الأصول اللغوية للأستاذ حامد عبد القادر ، مجلة مجمع اللغة العربية ج ١ ص ١١٣ .

٨٩ ـ انظر تطور البنية في الكلمات العربية للدكتور إبراهيم أنيس ـ مجلة مجمع اللغة العربية ج ١١ ص ١٦٦ .

٩٠ ـ في وسع القارىء العربي أن يجد إشارات كافية حول ثنائية أصول بعض الألفاظ العربية في مباحث أعلام البحث اللغوي العربي القدامى أمثال الخليل في معجمه (العين) وابن فارس في مقاييس اللغة . . الخ .

٩١ ـ أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧) انظر الأعلام : ١٩٣/١ .

٩٢ ـ انظر تطور البنية في اللغة العربية مجلة مجمع اللغة العربية ج ١١ ص١٦٦ ، ويرى حلمي خليل أن الشدياق في (سر الليال) قد (وقع فريسة النظريات التي كانت تبحث في نشأة اللغة وأصلها ، والتي سيطرت على الفكر اللغوي في القرن التاسع عشر) انظر علم المعاجم عند أحمد فارس الشدياق ص٣٠ ، في المعجمية العربية ص ١٩٨ .

٩٣ ـ كان أحمد فارس الشدياق قد تردد بين لندن وباريس حيث النهضة الفكرية ، وكان عارفا بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، ثم إنه طبع كتابه (سر الليال) في حدود عام ١٨٧٠م أي بعد أكثر من عشرة أعوام على ذيوع النظرية الداروينية وذلك في رأيي وقت يكفي الشدياق ليستفيد باطلاعه الواسع مما أحدثته تلك النظرية في تصنيف كتابه .

٩٤ ـ سر الليال في القلب والإبدال ، ص٢٢ .

٩٥ ـ انظر : في المعجمية العربية المعاصرة ص ٣١ والكلام لرمزي بعلبكي .

٩٦ ـ الخصائص ، ٤٦/١ (٤٧ .

٩٧ ـ انظر سر الليال ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

٩٨ ـ العين ٣٦/١ وانظر في المعجمية المعاصرة ص ٣٣ ـ ٣٤ .

٩٩ ـ انظر سر الليال ، ص ١ ، ص١١١ .

١٠٠ ـ انظر الخصائص ١٥٧/٢ ـ ١٥٨ .

١٠١ ـ في المعجمية العربية المعاصرة ص٣٧ .

١٠٢ ـ يقول محمد علي الزركان معقباً علي منهج الشدياق في تأليف (سر الليال) على أساس من الثنائية : «إن هذا ليذكرنا بكتب اللغة التي قرأها الشدياق ، وسار على منهجها في اتخاذ الفعل الثنائي المضاعف أصلا . ككتاب العين للخليل بن أحمد ، والجمهرة لابن دريد ، والتهذيب للأزهري ، والمحكم لابن سيده ، والأفعال لابن القرية ، ومقاييس اللغة والمجمل لابن فارس وغيرها . ويبدو لنا أن تلك الكتب هي التي أوحت إلى الشدياق فكرة إنشاءأ معجمه (سر الليال في القلب والإبدال) على النحو الذي ارتضاه من اتخاذ الفعل الثنائي المضاعف أصلا» ، في المعجمية العربية المعاصرة ص ١٣٤ .

١٠٣ ـ الفلسفة اللغوية ، ص٩٨ .

١٠٤ ـ المرجع نفسه والصفحة ذاتها .

١٠٥ ـ نفسه ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

١٠٦ ـ انظر الفلسفة اللغوية ، ص ٩٩ ـ ص ١٠٠ ولعل محدودية موضوع الثنائية وقول جورجي زيبدان بدلالة الألفاظ المضاعفة على معنى القطع ،لعل ذلك هو الذي أغرى نشأة ظبيان بقولها إن جورجي زيدان كان متأثراً في ذلك بأحمد فارس الشدياق . انظر حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام ـ د . نشأة ظبيان ص٢٥ وقد أشرنا إليها قبلا .

١٠٧ ـ انظر : الفلسفة اللغوية ، ص ١٠٠ ـ ص١٠١ .

١٠٨ ـ ذاك رأي إبراهيم أنيس وأنا أوافقه . انظر مقالة الدكتور إبراهيم أنيس : تطور البنية في الكلمات العربية . . مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ١١ ص ١٦٧ .

١٠٩ ـ الفلسفة اللغوية ص١١٣ .

١١٠ ـ انظر رأي الأب أنستاس ماري الكرملي في مسألة نشأة اللغات عامة والعربية خاصة الذي عرضناه في هذا البحث .

١١١ ـ انظر :

أ ـ المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية ، مطبعة الآباء الفرنسيين بالقدس سنة ١٩٣٧ .

ب ـ مجمعات عربية سامية ، مطبعة المرسلين اللبنانيين جونيه ـ لبنان من ١٩٥٠ .

ت ـ هل العربية منطقية أم أنحات .

١١٢ ـ انظر : مجلة مجمع اللغة العربية ج /١٩٥٩/٨م ، ص ٣٧٤ ـ ص ٣٨٣ .

١١٣ ـ انظر أصول اللغة بين الثنائية والثلاثية للدكتور توفيق محمد شاهين ص ٣١ .

١١٤ ـ انظر : المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية ٥ ـ ٧ ، معجمات عربية سامية ص ٥ ـ ٧ .

١١٥ ـ انظر : المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية ص ٦ ـ ص٧١ وانظر تطور البنية في الكلمات العربية ، مجلة مجمع اللغة العربية ج ١١ ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

١١٦ ـ الثنائية والألسنية السامية ـ مجلة مجمع اللغة العربية ج ٨ ص ٣٨٣ .

١١٧ ـ جمع توفيق محمد شاهين معظم الآراء التي قيلت في الثنائية وذلك في كتابه : أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية .

١١٨ ـ انظر : مقدمة لدرس لغة العرب .

١١٩ ـ انظر : مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ١١ ، ص ١١٣ ـ ١٣٣ .

١٢٠ ـ انظر : الثنائية والميزان الصرفي في اللغات العربية في الجزيرة العربية ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، المجلد الأول ، تموز ١٩٧٨م ص ٣٨ ـ ٧٨ .

١٢١ ـ انظر : أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية ، ص ٩٣ .

١٢٢ ـ انظر في هذا الشأن خاتمة أبحاث حامد عبد القادر ، باكزة حلمي ، توفيق شاهين .

١٢٣ ـ تطور البنية في الكلمات العربية ، ص ١٦٨ من الجزء الحادي عشر من مجلة مجمع اللغة العربية ، وانظر : دلالة الألفاظ ، للدكتور إبراهيم أنيس ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

١٢٤ ـ تطور البنية في الكلمات العربية ، ص ١٧٢ .

١٢٥ ـ انظر : العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد للأب هنري فليش ، ص ٥٣ ـ ٢٠١ .

١٢٦ ـ انظر : علم اللغة العربية الدكتور محمود فهمي حجازي ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٨ .

١٢٧ ـ انظر : فصول في فقه العربية للدكتور رمضان عبد التواب ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠١ .

١٢٨ ـ انظر : العربية الفصحى هنري فليش ص ٥٣ ، وانظر مذكرة رقم ٤ الملحقة بالكتاب ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

١٢٩ ـ انظر : المرجع نفسه الصفحات ذاتها .

١٣٠ ـ انظر : علم اللغة العربية ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧ .

١٣١ ـ المرجع نفسه ، ص ٢٠٨ .

١٣٢ ـ فصول في فقه اللغة العربية ، ص ٣٠١ .

١٣٣ ـ المرجع نفسه والصفحة ذاتها .

١٣٤ ـ الاشتقاق للأستاذ عبد الله أمين ، ص ١٥٩ .

١٣٥ ـ يقول صبحي الصالح معقبا على رأي أصحاب الثنائية ورأي القائلين بأن الكلمات بدأت طويلة في أصل بنائها : «نميل إلى الاعتقاد بأن اللغات تتفاوت في أنماط نشأتها وتطورها ، وأن ما يصدق على اللغات الإنسانية المختلفة ربما لا يصدق تماما مع لغتنا : فلا يبعد أن تكون هذه الظاهرة الثنائية أوضح في نشأة لغتنا أو اللغات السامية خاصة منها في نشأة اللغات الإنسانية عامة» : دراسات في فقه اللغة ،« ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

المصادر والمراجع

١ ـ الأب أنستاس ماري الكرملي وآراؤه اللغوية ـ د . إبراهيم السامرائي ، مطبعة دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

٢ ـ اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي ، د . رياض قاسم ، مؤسسة توفل بيروت ١٩٨٢ .

٣ ـ أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، عباس محمود العقاد ، دار المعارف بمصر / الطبعة الخامسة .

٤ ـ الاشتقاق ، عبد الله أمين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٥ ـ أساسيات علم الجيولوجيا ، د . محمد يوسف وآخرون . الناشر جون دائل وأولاده نيويورك ١٩٨٣ .

٦ ـ أصل الأنواع ، تشارلز داروين ، ترجمة إسماعيل مظهر ، مكتبة النهضة ، بيروت وبغداد ، دت .

٧ ـ الأصوات اللغوية . د . إبراهيم أنيس ، الطبعة الخامسة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٧٩م .

٨ ـ أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية ، د . توفيق محمد شاهين ، مكتب وهبة ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

٩ ـ أضواء على الدراسات اللغوية الحديثة ، د . ناف خرما ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٧٨م .

١٠ ـ الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٠م .

١١ ـ الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادىء والأعلام ، د . ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣م .

١٢ ـ الإنسان في القرآن ، عباس محمود العقاد ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، دت .

١٣ ـ تطور الحياة ، كاترين جارمن ، ترجمة بانة أرناؤوط الشرقاوي ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ٩٨٣م .

١٤ ـ حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام ، د . نشأة ظبيان ، دمشق ، ١٩٧٦م .

١٥ ـ الخصائص ، ابن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، القاهر ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٦م .

١٦ ـ الخواطر العراب في النحو والإعراب ، جبر ضومط ، المطبعة الأدبية ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٠٩م .

١٧ ـ دراسات في فقه اللغة ، د . صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١٠ ، ١٩٨٣ .

١٨ ـ دلالة الألفاظ ، د . إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٢ ، ١٩٦٣م .

١٩ ـ سر الليال في القلب والإبدال ، أحمد فارس الشدياق ، الآستانة ، ١٢٨٤هـ .

٢٠ ـ العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد ، الأب هنري فليش تعريب وتحقيق د . عبد الصبور شاهين ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٦م .

٢١ ـ علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٢ ، ١٩٤٤ .

٢٢ ـ علم المعاجم عند أحمد فارس الشدياق ، د . حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٨٧م .

٢٣ ـ علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية ، د . محمود فهمي حجازي ، نشر وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٣م .

٢٤ ـ فصول في فقه العربية ، د . رمضان عبد التواب ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م .

٢٥ ـ فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الطبعة السابعة .

٢٦ ـ فلسفة اللغة العربية وتطورها ، جبر ضومط ، مطبعة المقتطف بمصر ١٩٢٩م .

٢٧ ـ الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، جورجي زيدان ، دار الهلال ١٩٦٩م .

٢٨ ـ في علم اللغة العام ، د . عبد الصبور شاهين ، مؤسسة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٨٤م .

٢٩ ـ في المعجمية العربية المعاصرة ، إصدار جمعية المجمعية العربية بتونس ، طبع دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، ١٩٨٧م .

٣٠ ـ في النحو العربي قواعد وتطبيق ، د . مهدي المخزومي ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

٣١ ـ لغات البشر أصولها وطبيعتها وتطورها ، تأليف : ماريوباي ، ترجمة ، د . صلاح العربي ، القاهرة ، ١٩٧٠م .
٣٢ ـ اللغة ، ج فندرميس ، تعريب الدواخلي القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠م .
٣٣ ـ اللغة العربية كائن حي ، جورجي زيدان ، دار الهلال ، القاهرة ، دت .
٣٤ ـ اللغة والتطور ، د . عبد الرحمن أيوب ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
٣٥ ـ اللغة والمجتمع . د . علي عبد الواحد وافي ، ط٢ ، القاهرة ١٩٥١ .
٣٦ ـ اللغة والمجتمع ، د . محمود السعران ، دار المعارف بمصر ، ط٣ ، ١٩٦٣م .
٣٧ ـ المباحث اللغوية في العراق ومشكلة العربية العصرية ، د . مصطفى جواد ، مطبعة العاني بغداد ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥م .
٣٨ ـ مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، عمان .
٣٩ ـ مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة .
٤٠ ـ مجلة المقتطف .
٤١ ـ مجلة اللسان العربي ، الرباط .
٤٢ ـ مجلة الهلال ، القاهرة .
٤٣ ـ معجمات عربية سامية ، الأب أ .س مرمرجي الدومينيكي ، مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونيه ، لبنان ، ١٩٥٠ .
٤٤ ـ المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية ، الأب أ .س مرمرجي الدومينيكي ، مطبعة الآباء الفرنسيين ، القدس ١٩٣٧م .
٤٥ ـ المعجم المساعد ، الأب أنستاس ماري الكرملي ، دار الحرية بغداد ، ١٩٧٢م .
٤٦ـ معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٥٧م .
٤٧ ـ نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ، الأب أنستاس ماري الكرملي ، المطبعة العصرية ، القاهرة ، ١٩٣٨م .

وسائل الإعلام الأمريكية والصورة العربية

د. تيسير أبو عرجة
كلية الآداب - جامعة البنات الأردنية

ملخص

يحاول هذا البحث تقديم جوانب من المعالجات الاعلامية في وسائل الإعلام الامريكية على اختلاف أنواعها لموضوع الصورة العربية مبيناً الجذور التاريخية لتشويه صورة العرب في الغرب عموماً وفي الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص نظراً للدور الذي تحتله الولايات المتحدة في قيادة النظام العالمي الجديد بعد انتهاء الحرب الباردة إضافة إلى القوة الامريكية المتعاظمة على صعيد الاعلام وصناعته وخصوصية الإعلام الأمريكي وأساليب معالجاته الإخبارية التي تتسم بالإثارة والسُّرعة وسط تنافس شديد بين أجهزة الإعلام ومؤسساتها الاحتكارية .

كما يهدف البحث إلى بيان النظرة الأمريكية للاسلام والأصولية الاسلامية خاصة مع علو نغمة الارهاب والتي ترفعها أجهزة الإعلام الأمريكية وتكررّها ضد ما تسميه الارهاب العربي والاسلامي ، الذي يجد مساحات واسعة في وسائل الإعلام الامريكية سواء المكتوبة أو الاليكترونية ، إضافة إلى استخدام السينما لإنتاج أفلام عديدة تلح على الاساءة للإنسان العربي والمسلم وتظهره بصورة الارهابي الذي يقتل الأبرياء ويروع الآمنين ويهددّ الحياة الأمريكية والحضارة الغربية .

ويحاول البحث كذلك توضيح أبعاد السيطرة الصهيونية على الاعلام الأمريكي من خلال شهادات نفر من الباحثين المختصين نظراً للصلة الوثيقة بين هذه السيطرة الاعلامية وتشويه الصورة العربية .

واختار الباحث عدداً من النماذج التي تندرج تحت عنوان الارهاب العربي والاسلامي ليفرد لها قسماً خاصاً بها كحادث انفجار أوكلاهوما والحملات الإعلامية الملحّة على الإرهاب العربي الملصقة بكل من شعب فلسطين ودولتي السودان وليبيا .

Abstract

This paper attempts to present some aspects of various American media treatments of the character of the Arab, stemming from the historical roots of the distortion of the concept of the Arab in the west, particularly in the United States. The subject takes on added importance due to the increasingly crucial role played by the United States in the New World Order, and to the great advances in the mass communication industry especially in America.

The paper also aims at revealing the American attitude to Islam and Islamic fundamentalism, especially in Light of the repeated charges of terrorism against moslems and the constant use of the terms "Islamic terrorism" and "Arab terrorism". This will be made especially clear in view of the wide coverage in the American media, written and seen, of the picture of the Arab/Moslem as a terrorist who kills inocent people, terrorizes peaceful citizens, and threatens American Life and Western civilization.

The paper also demonstrates the tremendous Zionist control over American mass media, with statements by specialists in this field, This is a pivotal point because of the close connection between this control and the distortion of the concept of the Arab.

The writer selects some examples of the so-called "Arab and Islamic terrorism" such as the Oklahoma Bombing, and the urgent media campaigns against the "terrorism" of the Palestinians, the Sudan and Lybia.

١ـ المقـــدمة

حظيت الصورة القومية باهتمام الباحثين في الدراسات النفسية والاجتماعية لمعرفة أثرها على السلوك الانساني وكذلك فهم وتفسير العلاقات بين الدول المختلفة فقد اتضح أن عدداً كبيراً من صنّاع القرار لا يستجيبون للحقائق الموضوعية للمواقف بقدر ما يخضعون لتأثير ما لديهم من صور عن أنفسهم وعن العالم الذي يتعاملون معه وهذا يفسّر العلاقة الوثيقة بين الصورة والقرار . فالصورة هي الإطار النفسي العام لاتخاذ القرارات ، أو هي البيئة النفسية التي تتم فيها عملية صنع القرار (١) .

وتعتبر بحوث الصورة العربية في وسائل الإعلام الغربية من الدراسات الجديدة الى حد كبير في حقل الدراسات الإعلامية ، كان (ميخائيل سليمان) أحد روادها عندما قام بوضع دراسته التحليلية للصحافة الغربية إزاء حرب عام ١٩٥٦ وكذلك حرب عام ١٩٦٧ . وكانت تلك الدراسات معبرة عن التحيّز الغربي والأمريكي بالذات لإسرائيل في حروبها مع العرب انسجاماً مع السياسة الغربية المؤيدة لإسرائيل والمعادية للعرب . وكانت عناصر تلك الصورة المشوهة للعرب تتمثل في تشويه الشخصية العربية والحضارة العربية والعادات والتقاليد العربية . وقد واصل (ميخائيل سليمان) بحوثه واهتماماته في هذا المجال بصفته أستاذاً للعلوم السياسية في جامعة (كانساس ستيت) الأمريكية ، وقدّم للمكتبة العربية عدداً مهماً من البحوث والمقالات التي كانت خلاصاتها ونتائجها لا تبتعد كثيراً عن المقولات والقوالب السلبية التي سبق للصحافة الأمريكية أن ركّزت عليها في المراحل السابقة . ومن ذلك كتابه (صورة العرب في عقول الأمريكيين) الذي يبيّن فيه أشكالاً مختلفة من التحامل الأمريكي على الجالية العربية في الولايات المتحدة .

وقد ساهم كل من هشام شرابي وجاك شاهين ووليد خدوري وأدمون غريب في تقديم اضواء كاشفة على التشويه الذي تتعرض له الشخصية العربية في الإعلام الأمريكي .

وكانت الصورة العربية أيضاً محور بحوث ودراسات جامعية شارك فيها عدد من الباحثين مثل (نادية سالم) بعنوان «صورة العرب في وسائل الإعلام الأمريكية» و (حلمي ساري) بعنوان «صورة العرب في الصحافة البريطانية» و (سامي مسلم) بعنوان «صورة العرب في

صحافة ألمانيا الإتحادية» و (مارلين نصر) بعنوان «صورة العرب في الكتب المدرسية الفرنسية» .

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الصورة ما تزال تتعرض للطعن والتشويه ، وأن التحامل الذي بدأته وسائل الإعلام الغربية لم يتوقف ، بل ازداد رسوخاً وتشعباً وأخذ مسارات مختلفة أصبحت فيها العداوة موجهة للعرب والمسلمين معاً وطالت الاسلام نفسه كدين ، ولم تستثنِ هذه الهجمة الجديدة على الشخصية العربية أياً من العرب ، الذين تقرنهم هذه الوسائل بالارهاب وتنعتهم بشتى النعوت والصفات مع عدم الاقتصار على وسيلة إعلامية واحدة . حيث توظف في هذه الحملة الصحافة والتلفزيون والسينما بإمكانياتها التأثيرية الهائلة .

وحصراً لموضوع البحث الذي يتصف بالسعة والشمول ، سوف نقصر اهتمامنا بالصورة العربية في وسائل الإعلام الأمريكية ، لاعتبارات كثيرة أهمها القدرات الهائلة التي تتمتع بها هذه الوسائل وصلة ذلك بقيادة الولايات المتحدة للمعسكر الغربي والعلاقات العضوية بينها وبين إسرائيل والمصالح الحيوية الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط .

ويمكن القول ، إن تعبير وسائل الإعلام الأمريكية يشمل كافة مؤسسات الأنباء وشبكات الاتصال ، المطبوعة والمسموعة والمرئية . وفي الولايات المتحدة الأمريكية ما لا يقل عن ألفي صحيفة يومية وثمانية الاف صحيفة أسبوعية وأحد عشر الف مجلة وفي السنوات الأخيرة زاد عدد المجلات الكبرى كما زاد توزيعها . وهناك سلاسل صحفية تضم أعداداً كبيرة من الصحف والمجلات داخل المجموعة الصحفية الواحدة .

ويلاحظ أن ٩٧٪ من المدن التي تطبع فيها صحف يومية لا يوجد فيها سوى ناشر واحد ، لذلك تدعى (مدن المالك الواحد) ويتمتع الناشرون في هذه المدن باحتكار ، غالباً ما ينتج عن أن تكاليف الطباعة المرتفعة قد افلست سائر الناشرين .

ويعتبر الناشر الاسترالي (ميردوخ) واحداً من أصحاب هذه المجموعات الصحفية الاحتكارية خاصة بعد امتلاكه (نيويورك بوست) و (نيويورك ماجازين) و (فيلادج فويس) الأسبوعية التي تصدر في نيويورك .

ولا تجاري ناشري الصحف في اتجاهاتهم لحيازة المزيد من الممتلكات الصحفية سوى شركات التلفزيون . شركة (سي بي اس) مثلاً . وسعت أعمالها لتشمل نشر الكتب والمجلات ، عندما اشترت شركة نشر الكتب (هولت رينهارت أند ونستون) وعدداً كبيراً من المجلات . ووسعت شركة (آر سي اي) أعمالها أيضاً وأصبحت تمتلك (راندوم هاوس) التي تعتبر من أكبر دور نشر الكتب في الولايات المتحدة .

ومن تكتلات الشركات الهامة الأخرى ، هناك شركة (نيويورك تايمز) التي تمتلك عشر صحف في فلوريدا ، وثلاث صحف في كارولينا الشمالية ، ومحطة تلفزيون في ممفيس ، ومحطتي راديو في نيويورك ، وشركة لنشر الكتب ، وعدة مجلات من بينها (فاميلي ساركل) و (غولف دايجست) و (يو إس) و (تنيس) . وتمتلك شركة (واشنطن بوست) ثلاث صحف يومية . ومجلة نيوزويك . وأربع محطات تلفزيون وشركة لنشر الكتب . أما شركة (تايم) التي تربو مبيعاتها على ألف مليون دولار ، فتنشر مجلة (تايم) و (لايف) و (سبورتس ايلاستر ايتد) و (فورتشن) و (بيبل) . كما وسعت نشاطها أيضاً ليشمل نشر الكتب وإنتاج الأفلام والتلفزيون السلكي (٢) .

لقد قال (كيفين فيليبس) الناقد الإعلامي ومؤلف كتاب (حكم وسائل الإعلام) : كانت اسبارطة القديمة دولة عسكرية ، وكانت جنيف أيام جون كالفن دولة دينية ، بينما كانت انجلترا في أواسط القرن التاسع عشر أول دولة صناعية في أوروبا . أما الولايات المتحدة فهي اليوم أوّل دولة لوسائل الإعلام في العالم .(٣)

وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية أضخم مركز لاحتكار الصناعات الثقافية في العالم . وهي القطب المهيمن على إنتاج الصورة والمعلومات حيث تغطي مجموعة من المؤسسات العملاقة والخاصة الجانب الأكبر من الإنتاج العالمي للصورة .(٤)

وهناك العديد من المظاهر التي تؤكد تعاظم قوة الولايات المتحدة الأمريكية وتنامي نفوذها الإعلامي على المستوى الدولي ، إذ تفيد الاحصائيات بأن خمسة وستين في المائة من الأخبار والمعلومات التي يتم تداولها في العالم بشكل أو بآخر ترد من الولايات المتحدة الأمريكية . وفي دراسة لليونسكو اتضح أن ما يقرب من ثلث البرامج التلفزيونية التي تذاع

في العالم ، برامج امريكية ، والنسبة في ازدياد مستمر وفي مجال وكالات الأنباء ، فإن وكالة الاسوشيتدبرس واليونايتدبرس الأمريكيتين تقدمان خدماتهما إلى ٢٥ ألف مشترك خارج الولايات المتحدة ما بين صحف ومحطات للراديو ومحطات للتلفزيون ، ولهما مائتا مكتب في مختلف أنحاء العالم ويعمل بهما حوالي عشرة آلاف شخص .

ومن المظاهر الهامة الدالة على تعاظم القوة الاعلامية الأمريكية ، ان من بين اكبر عشر وكالات إعلانية في العالم ليس هناك سوى شركة واحدة غير امريكية ، ومن بين اكبر خمس وعشرين وكالةإعلان دولية هناك احدى وعشرون وكالة أمريكية .(٥)

ويشار إلى أن الخدمات الإخبارية التي تقدمها وكالات الانباء العالمية التي تقف وكالتا الاسوشيتدبرس واليونايتدبرس الأمريكيتان في طليعتها تعتبر ـ كما يقول راسم الجمال ـ أحد المصادر الأساسية للمعلومات التي توجه السياسات الخارجية للدول ، فإذا كانت وزارات الخارجية تعتمد على بعثاتها الدبلوماسية في الحصول على المعلومات ، فإن هذه البعثات تعتمد اعتماداً أساسياً على هذه الوكالات في الحصول على أسرع معلومات ممكنة ، ويتزايد الاعتماد على الوكالات الغربية الأربع في دول العالم الثالث على وجه الخصوص .(٦)

إن طبيعة المؤسسات الصحفية الأمريكية والأداء الذي تتميز به جعل نقاد الصحافة يشتكون من أن هذه الصحافة تهتم بإبراز الشخصيات على حساب القضايا والأسلوب على حساب الجوهر . وأن صحفاً ومجلات عديدة أخذت تفرد المزيد من مساحتها لما يسمى (الثرثرة) أي أخبار المجتمع والمشاهير من الناس والاشاعات والقيل والقال . كما ازداد بروز الصحفيين كمواضيع لمقالات صحفية او برامج تلفزيونية بعد أن اصبحوا هم شخصيات في الأخبار .

ويقرر بعض النقاد الاجتماعيين أن سلطة وسائل الإعلام قد تضخمت كثيراً ، خاصة بعد أن تواجد التلفزيون في كل مكان .

ويشار إلى أن الاثارة صارت سمة لوسائل الإعلام المرئية والمسموعة ، وتبدو هذه السمة واضحة في طريقة عرضها للأخبار ، إذ يتركز العرض على العناصر التي تحقق لها الإثارة ،

وانجذاب الجمهور إليها ، دون أن تهتم بتقديم معلومات تشرح القضايا الجوهرية للمشاهد والمستمع ، وتعينه على التعمق في فهم أبعاد الخبر وانعكاساته .(٧)

إن الإعتراف بالتأثير القوي الذي تلعبه وسائل الإعلام داخل المجتمع الأمريكي ، والشهادات التي يقدّمها نقاد الصحافة الأمريكية ، حول نوعية الاهتمامات وطبيعة المعالجات وأشكال التغطية الإخبارية التي تهتم بها الصحافة الأمريكية يدلنا على المساحة المهمة التي تحتلها وسائل الإعلام الأمريكية على خريطة الحياة السياسية والإعلامية وقدرتها على الإقناع والتأثير سواء كانت تركز حملاتها الإعلامية في الإتجاهات السياسية أو الإقتصادية أو الإجتماعية .

٢-جذور العداء للعرب واسبابه في الولايات المتحدة

إذا عدنا إلى جذور تشويه الصورة العربية في الغرب بصفة عامة ، وفي الولايات المتحدة بصفة خاصة ، فإننا نجد مجموعة من العوامل أو المصادر بينّها هشام شرابي ، في النقاط الآتية .(٨)

أولاً : الايديولوجية المعادية للاسلام التي تعود إلى القرون الوسطى .

ثانياً : عنصرية عصر الأمبريالية .

ثالثا : الدعاية الصهيونية المعادية للعرب .

رابعاً : المسلك العربي نفسه .

ويرجع (السيد يسن) أسباب سيادة الاتجاه المعادي للعرب والمؤيد لإسرائيل في وسائل الإعلام الغربية بوجه عام وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص إلى عاملين اثنين هما (ضعف الإعلام العربي من ناحية ، والتطويق الصهيوني للرأي العام الغربي من ناحية أخرى) .

غير أن ضعف الإعلام العربي يرد في جانب منه إلى أنه لم يتبع الطريقة العلمية في فهم بناء وتكوين المجتمعات الغربية والقوى الاجتماعية والسياسية التي تؤثر في الرأي العام الغربي . في الوقت الذي استطاع الإعلام الصهيوني أن يحسن استثمار كل العوامل

التاريخية الكامنة وراء العداء الغربي للعرب ، وقد تمثل هذا النجاح فيما كشفت عنه الدراسات التي اجريت لتحليل الصحافة الأوروبية والأمريكية فيما يتعلق بالتغطية الإخبارية عن إسرائيل والعرب ، حيث تقدم صورة إيجابية للمجتمع الإسرائيلي في مقابل صورة سلبية للمجتمع العربي .(٩)

أما الدكتور (أدمون غريب) فقد أشار إلى أن أسباب فشل وسائل الإعلام الأمريكية في تقديم شؤون «الشرق الأوسط» بإنصاف وموضوعية تتمثل فيما يلي :(١٠)

١ ـ الثقة شبه العمياء التي يعطيها الأمريكيون لأجهزة الإعلام .

٢ ـ الجهل والتحيز الثقافي الذي يعود لأسباب تاريخية وسياسية ودينية .

٣ ـ تشابه نمط التفكير لدى الصحفيين الأمريكيين حول الأحداث السياسية الأمر الذي يمليه واقع الإعلام الأمريكي وخاصة الجهل بتاريخ وأصول الصراع العربي الإسرائيلي .

٤ ـ التعاطف مع اليهود بسبب معاملة النازيين لهم .

٥ ـ طبيعة وسائل الإعلام الأمريكية التي تركز على أهمية الحدث المثير أو البارز في دول العالم الثالث دون إعطاء الخلفية التاريخية لهذا الصراع .

٦ ـ القوى الصهيونية الموالية لإسرائيل والمتغلغلة في أجهزة الإعلام الأمريكي على أعلى مستوياته والتي تتسم بالتنظيم القوي وشدة التصميم .

٧ ـ فشل العرب في فهم وسائل الإعلام الأمريكية وكيفية التعامل معها ومعرفة أهمية الإعلام والعلاقات العامة .

٨ ـ الخلافات المستمرة ما بين الدول العربية التي تعطي صورة سلبية عن الوطن العربي .

وتجدر الاشارة إلى أن بعض الدول العربية إضافة إلى جامعة الدول العربية قد حاولت بذل الجهود الاعلامية الهادفة للتعريف بالقضايا القومية العربية على الساحة الامريكية خاصة بعد التأييد الكاسح الذي قدمته الصحافة الأمريكية لاسرائيل في حرب حزيران عام ١٩٦٧ وما رافقها من غياب إعلامي عربي واضح في ذلك الوقت . ولكن الرسائل الاعلامية العربية الموجهة للرأي العام الأمريكي والغربي بقيت مع ذلك تتصف بعدم وضوح الأهداف

وعدم دقة اللغة الاعلامية المستخدمة وعدم مواصلة الرسالة الإعلامية نظراً لغياب الاستراتيجية الواضحة للاعلام العربي فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية باعتبارها محور الصراع الدائر بين الأمة العربية والحركة الصهيونية ناهيك عن الخلافات السياسية العربية التي كانت تعيق باستمرار أي جهد إعلامي مؤثر موجه الى الغرب .

٣-تحليل ظاهرة العداء للعرب في أمريكا بعد انتهاء الحرب الباردة

تشكل المرحلة الراهنة في العلاقات بين العرب والولايات المتحدة ، بعد انتهاء الحرب الباردة ضعفاً في هيكل القوة العربية لصالح الولايات المتحدة وإسرائيل وذلك من عدة زوايا أشار إليها (إبراهيم كروان) قائلاً إن القطبية الثنائية كانت تسمح للدول العربية بالمناورة وحرية الحركة في المجال الدولي ، إذ كان ممكناً تحت شعار عدم الانحياز ان تقوم دول عربية كمصر والعراق بتأليب إحدى القوتين الأعظم على الأخرى لتحقيق اهدافها . وقد اختفت هذه الامكانية مع اختفاء القطبية الثنائية .

كما أن الهيكل الجديد للقوة يزيد من دعم مركز إسرائيل (استمرار المساعدات العسكرية من الولايات المتحدة والهجرات اليهودية الكبيرة من الإتحاد السوفيتي السابق) ونظراً لافتقار الولايات المتحدة إلى الحياد إزاء الصراع العربي الإسرائيلي فإن التسوية التي تلعب فيها الولايات المتحدة وحدها دور الوسيط ، إنما يصعب تصور أن تكون عادلة .

كما إنه يمكن استبدال عدو بآخر حينما تحل مرحلة جديدة . فالانهيار المفاجىء للاتحاد السوفيتي قد يخلق لدى الولايات المتحدة الدافع للبحث عن مثيل للتهديد السوفيتي في القومية العربية ، أو الأصولية الاسلامية ، أي (التهديد الأخضر بدلاً من التهديد الأحمر) أو عدو مصطنع يمكن استخدامه للتعبئة تحت شعار مكافحة الارهاب الدولي [١١]

وقد بيّن (برهان غليون) أن الولايات المتحدة تحمل عداءً متميزاً للعرب من بين كل شعوب الأرض ، وأن لهذا العداء أسباباً أربعة هي :

١ ـ الموقع الاستراتيجي الحساس للعالم العربي .

٢ ـ النفط وحاجة الغرب إليه والسيطرة عليه .

٣ ـ إسرائيل وحاجة الغرب لها ، وعقدة الضمير الغربي تجاهها .

٤ ـ وأخيراً الحسابات التاريخية والحضارية في الصراع بين الإسلام والغرب . ويعتبر (غليون) أن الغرب لن يقبل بالعرب إلاّ إذا استسلموا له وسلموه مصيرهم في كل من هذه القضايا .(١٢)

لقد حدّدت الولايات المتحدة نظرتها إلى المنطقة العربية في إطار تربّعها على النظام العالمي بعد تفكك الاتحاد السوفيتي وبعد حرب الخليج ، على أساس أن الصراع العربي - الإسرائيلي هو مصدر التوتر وزعزعة الاستقرار . لذا فإنها في الوقت ذاته الذي كانت ترسم فيه خريطة جديدة للمنطقة ، كانت تسعى لتسوية نهائية لهذا الصراع ، وتحديد موقفها من دول المنطقة على أساسه . وقبل توضيح أبعاد الخريطة الأمريكية المقترحة ، فإننا نشير إلى أ ن الاستراتيجية الأمريكية (القديمة والحديثة) لا تعترف بشيء اسمه (النظام الاقليمي العربي) ، ولا تعترف بمعاملة العرب كأمة واحدة ، بل تتعامل مع كل قطر على حدة حسب مصالحها ، ويظهر ذلك واضحاً في تجاهل كل دور لجامعة الدول العربية في الأزمات الكبرى (حرب الخليج ، والصومال ، وقضية الصحراء) .(١٣)

ولعل ما شهده لبنان من تدمير وحرق منذ أواسط السبعينات تحت ضربات الحرب الأهلية والاعتداءات الإسرائيلية يعد نموذجاً لما فعلته السياسات الغربية بزعامة الولايات المتحدة في المنطقة العربية . وها هو الكاتب اللبناني (أنسي الحاج) يوضح جانباً من ذلك قائلاً :

«في لبنان أصبحنا من أكثر العارفين بواقع السياسة الأمريكية فهي منذ ١٩٧٥ تبيعنا في أسواق المقايضات والصفقات ، وما كان في هذه المبيعات محطة واحدة لغير ازدواجية القول والفعل ولغير الميكافيلية . وقد سجّلت السياسة الأمريكية نجاحاً باهراً في إلحاق لبنان بركب البلدان المفلسة والجائعة والمدمرة بعدما كان ، رغم مشكلاته الكثيرة ، زينة العرب والشرق . (١٤)

إن انتهاء حقبة الحرب الباردة وانهيار القطب الثاني في المعادلة العالمية (الاتحاد السوفيتي) وما آلت إليه حرب الخليج جعل الطريق ممهّداً لما بدأ يطلق عليه النظام العالمي

الجديد بطبعة أمريكية خالصة فيها ظلال من الحديث عن الشرعية الدولية التي يتم تفعيلها على قاعدة التفوق العسكري والتي من أجل بلوغها لأهدافها الاستراتيجية لا تبالي بالازدواجية والكيل بمكيالين .

ويقول (جاك شاهين) إن الأمريكي عندما يسمع لفظ (عربي) يتبادر إلى ذهنه أنه (عدو لأمريكا) أو (عدو النصرانية) ، أو «إنسان مخادع» أو «شخص غير ودود» أو ربما «شخص مولع بالحرب والقتال» هذه الصورة الذهنية المترسخة تساعد على تعميق الشعور بعدم الثقة وسوء الفهم» (١٥)

ويقول (ميخائيل سليمان) إن عبارات العرب : والعروبة ، والقومية العربية ، والدين المقرون بها ، أي الاسلام و (المسلمون) ، قد أعطيت دلالات سلبية جداً في الولايات المتحدة . والنتيجة أن المفاهيم والآراء والجماعات والشعوب المرتبطة بهذه العبارات ينظر اليها كأنها غريبة وخارج النطاق ، كما ينظر إليها كتهديد للمجتمع والحكومة الأمريكيين . وعلى سبيل المثال قام فؤاد عجمي ، في خطاب له في ٣ حزيران عام ١٩٩٢ ، في حفلة جمع التبرعات لإسرائيل ، مدعومة من مؤسسة القدس ، بإدانة القومية العربية بوصفها (أكثر ايديولوجية مميتة في العالم) وفي الحفلة نفسها قال هنري كيسنجر بوضوح ، وهو استاذ سابق في هارفارد ، ووزير الخارجية الأمريكية ومستشار الأمن القومي في البيت الأبيض سابقاً : (لا يمكنك في الواقع تصديق أي شيء يقوله عربي) . كذلك قام مثقفون ونقّاد عدة بكتابة مقالات نشرت في الصحافة الأمريكية تحت عناوين (مخيفة) مثل (المسلمون قادمون ، المسلمون قادمون) و (الاسلام الصاعد قد يسحق الغرب) .(١٦)

بالإضافة إلى ما تقدمه وسائل الإعلام الأمريكية وهي تعرض لأفعال مجموعات صغيرة محددة من المسلمين لكي تلصقها بالاسلام كدين وبالمسلمين جميعهم . فإذا ارتكب أحد المسلمين جريمة فإن كافة المسلمين يتحملون مسؤولية ذلك . وقد ظهر ذلك واضحاً عند الانفجار الذي حدث للمركز التجاري الأمريكي في نيويورك .

ويرى مؤلفا كتاب (العلاقة الحميمة : تورط أمريكا في إسرائيل ١٩٤٧ إلى اليوم) أن أسباب سوء الفهم في العلاقات الأمريكية العربية وعدم فهم الأمريكيين للعرب وحاجاتهم

مع العلم ان المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط تتطلب إقامة أفضل العلاقات مع العرب ، تعود إلى أن العرب يقدمون أنفسهم في الولايات المتحدة كـ «لبنانيين وسوريين وسعوديين» . الخ ، وليس كعرب متوحدين ، كما أن تأثير إسرائيل واللوبي اليهودي كبير في جعل الرأي العام الأمريكي يقف موقفاً معادياً للعرب .(١٧)

ويمكن القول إن العرب لم يستطيعوا داخل الولايات المتحدة امتلاك الوسائل الإعلامية القادرة على مجابهة الهجوم الاعلامي الذي يتعرض له العرب والشخصية العربية داخل الولايات المتحدة وخارجها ، علماً بأن الأمريكيين الأفارقة ، على سبيل المثال ، وقد كانوا عرضة من قبل للهجوم الأعلامي ضد شخصيتهم القومية ، باتوا يمتلكون صناعة اتصالية تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم وحماية مصالحهم من خلال امتلاكهم للعديد من المحطات الاذاعية والتلفزيونية . وقد أصبح بإمكان هذه المحطات حشد الجماهير السوداء على المستوى القومي في الحملات الانتخابية كما حدث مع القس جيسي جاكسون في محاولته الوصول الى الرئاسة ، وكذلك المساعي الناجحة لجعل يوم ميلاد الزعيم الزنجي مارتن لوثر كينج عيداً وطنياً ، أو الحملة التي تم القيام بها في الولايات المتحدة لانهاء الفصل العنصري في جنوب افريقيا .(١٨)

ولعل غياب التوجه العربي الى إقامة صناعة إعلامية مهمّة على الساحة الامريكية يؤدي الى عدم قدرة العرب على التصدي لما يتعرضون له من الهجوم والتشويه . في الوقت الذي لا تنقص العرب الأمريكيين القدرة على إدارة المشروعات الإعلامية وإنتاج الافلام السينمائية ولكن الذي ينقصهم هو الأموال اللازمة لانجاز هذه المهام .

٣-١- العداء للإسلام «والأصولية» الاسلامية.

إن العداء للإسلام الذي يعتبر مادة اساسية في ما تقدمه وسائل الاعلام الغربية والأمريكية على وجه الخصوص يشكل قاعدة مهمة تنطلق منها السهام الموجهة للشخصية العربية الإسلامية .

ويتأسس هذا العداء على النظرة العنصرية ضد العرب والمسلمين الذين ينظر اليهم كأناس مجبولين على العنف ورافضين للتطوير والتحديث .

وهذا التحامل على الاسلام نلمسه بوضوح ، بصورة فاضحة وبتعبيرات سياسية ذات مغزى في الحركات الدينية الأمريكية الجديدة ، فالسيد (بيل جراهام) عدو لدود للشعب الفلسطيني لأن الفلسطينيين مسلمون ولأن مفاهيمه التوراتية تعطي فلسطين لليهود بموجب (وعد الهي) . وبالتالي يصبح تأييد الاستعمار الصهيوني الاستيطاني مظهراً من مظاهر العقيدة الدينية تماماً كما يصبح الدفاع عن أمن اسرائيل مبدأ مقدساً من مبادىء السياسة الخارجية الأمريكية . (١٩)

وكان (ادوارد سعيد) من أكثر المهتمين بتحليل ظاهرة العداء التاريخي للإسلام في كافة كتبه ودراساته وأهمها (الاستشراق) و (تغطية الاسلام) إلخ ، وقد تحدث عن النظرة الغربية المعادية للاسلام مبيناً : أن هذه الظاهرة تبدو أكثر وضوحاً من ذي قبل فمن ناحية هناك السيل العارم من الموضوعات والبرامج التي تنشرها وتنقلها وسائل الاعلام الأمريكية عن ولادة وعودة ونهضة الاسلام ، ومن ناحية أخرى فإن هناك أجزاء في العالم الاسلامي ، فلسطين وإيران وأفغانستان ، تمر في مراحل تطور تاريخي خاص بها إلاّ أنه يؤثر من وجهة النظر الغربية على الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي . لقد وجدت ، من خلال أبحاثي تطابقاً كاملاً بين وجهات نظر الخبراء في شؤون الشرق والإسلام وبين الطريقة التي تغطي بها وسائل الإعلام امور الشرق والاسلام . الفكرة المركزية في الحالتين هي ذاتها أن الاسلام يشكل تهديداً . من نظرية (برجنسكي) (هلال الأزمات) إلى نظرية (برنارد لويس) الأستاذ الجامعي عن (عودة الاسلام) نجد التشابه الكامل . الاسلام بالنسبة لهما يعني نهاية الحضارة كما نعرفها (نحن) الاسلام لا إنساني وغير ديموقراطي ولا سامي وغير عقلاني هكذا يفهم برنارد لويس الاسلام وعلى الأساتذة الجامعيين الذين ترتبط حياتهم المهنية بتدريس الاسلام إمّا أن يقبلوا بهذه المفاهيم أو يخرسوا . وكانت النتيجة كارثة في الولايات المتحدة . فليس هناك أي قطاع ذو قيمة في المجتمع أو الوسط الثقافي يتعاطف مع العالم الاسلامي . (٢٠)

ويشار إلى أن هذا الموقف العدائي المعلن لبرنارد لويس من الاسلام ، يشكل محور كافة كتبه ومقالاته ومحاضراته ومنها كتابه (الشرق الأوسط والغرب) الذي شنّ فيه هجوماً عنيفاً على الاسلام والعرب ، ولا سيما في الفصل المعنون (ثورة الاسلام) . وكتابه الآخر (الشيوعية والاسلام) االذي يتبنى فيه : نمطاً محدداً من التوجه في تحليل المجتمع الاسلامي ، توجه يتصف بافتراض فرضيات مسبقة ومعدّة سلفاً تؤلف في نظره جوهر المجتمع الاسلامي ، وتسند الرأي القائل بأن الاسلام بطبيعته استبدادي ، اعتدائي ، وغير ديموقراطي .(٢١)

ويرى فهمي جدعان أنه : « . . منذ رينان حتى برنارد لويس وباتاي ، وبينهم شرائح عديدة من تيارات الاستشراق العرقي والرومانسي والسياسي والثقافي ، خضعت «الأنا العربية» لشتى أنواع التشكيلات والتمثيلات ، وقد اتجهت جملة هذه التحليلات إلى تثبيت الذات العربية والاسلامية في جملة من الصيغ المبتسرة والجواهر «المعلقة» الأبدية ، فالعرب غارقون في التمثيلات الحسية الذرية ، وهم عاجزون عن التفكير العقلي المجرد ، والمسلمون متبلدون عقلياً ، والشرق صوفي في جوهره ، وذكاء العرب ذكاء غير منظم ، وهم عاجزون عن الوحدة المنضبطة الملزمة ، والغدر من طبعهم ، يعبدون القوة والنجاح ، أهل قول بلا فعل ووعد بلا إنجاز ، انفصاليون شهوانيون يبحثون عن المتعة وينتجون لأنفسهم جنسياً إلى غير نهاية ، عقولهم متحجرة متبلدة ، وأنواتهم استبدادية» .(٢٢)

وإذا كان الغرب يعني بالتحديد أوروبا ذات العلاقات الاقدم والأعرق مع العرب والمسلمين فكيف انتقلت الصورة العربية إلى الثقافة الشعبية الأمريكية وبالتالي إلى وسائل الإعلام الأمريكية ، هنا يمكن القول ، إن الثقافة الأوروبية الإمبراطورية قد أورثت أفكارها جاهزة للثقافة الأمريكية الوليدة التي لم تكن قادرة على الإفلات من ذيليتها للثقافة الأم ، وإن أي تتبّع للنتاجات الثقافية الأمريكية المبكرة سيكشف على نحو لا يقبل الشك بأن الاستقبال الأمريكي للشرق العربي ـ الاسلامي هو نسخة طبق الأصل لما سبق أن تم تثبيته من أنماط تفكير في أوروبا . ففضلاً على التشبث بالأسطورة الآرية التي تنطوي على شعور وسواسي فوقي ونظرة دونية نحو كل ما هو سامي عربي ، كانت التعبيرات الأدبية الأمريكية

آنذاك تزدحم بعناصر التعامل الأوروبية وأساليبها وتأسيساً على هذا الإرث شديد الوطأة ، ظهر الاعجاب الأمريكي بواحد من أعظم النتاجات الفولوكلورية مجهولة التأليف (الف ليلة وليلة) (٢٣)

ولكن وسائل الاعلام الأمريكية باتجاهها إلى تغطية الاسلام ، كما يقول (ادوارد سعيد) في غضون السنوات القليلة الماضية خاصة بعد أحداث الثورة الايرانية ، قد جعلت الاسلام معروفاً ، إلا أن هذه التغطية زاخرة بالمغالطات ويجري مجراها أعمال الخبراء الأكاديميين المختصين في الأسلام والاستراتيجيين الجغرافيين الذين يتحدثون عن (هلال الأزمة) . والمفكرين الحضاريين الذين يستنكرون (أفول الغرب) . ولقد زودت هذه التغطية مستهلكي الأخبار بالشعور بأنهم باتوا يفهمون الاسلام ، دون أن تشعرهم ـ في الوقت نفسه ـ بأن الجانب الأعظم من هذه التغطية الناشطة إنما يقوم على مادة هي أبعد ما تكون عن الموضوعية . ونجد في الكثير من الحالات أن الاسلام قد أباح عدم الدقة بامتياز ، بل إنه أباح شتى ضروب التعبير عن العصبية العرقية الجامحة والكراهية الثقافية حتى العرقية ـ الجنسية والعداء المستحكم العميق ـ غير أنه عداء يفترض أن يكوّن تغطيةً عادلةً متوازنةً مسؤولةً للاسلام . (٢٤)

وأصبحنا في هذه الآونة ، نجد أن الأصولية الاسلامية هي اكثر عنصر يشغل الحياة الأمريكية فيما يتعلق بالشأن الشرق أوسطي حيث تعقد من أجلها الندوات والمؤتمرات ، ويشتد حولها الجدل والحوار ، وتضعها مراكز الأبحاث في مقدمة أولوياتها ونشاطاتها ، إضافة إلى وسائل الاعلام التي ترى فيها مادة يومية جديرة بالتعليق والتحليل .

وها نحن نعيش اليوم ذروة هذا الهجوم على الاسلام والعروبة معاً ، بعد أن عشنا فصولاً من تركيز الهجوم تارة على العروبة وطوراً على الاسلام ، ويتمثل هذا الهجوم في إطار الحملة الغربية ، السياسية والاقتصادية والعسكرية ، الحضارية والثقافية والاعلامية ، ضد كل ما يمت إلى الاسلام والعروبة بصلة . مستخدمين بذلك كل الوسائل المتاحة ، بما في ذلك والت ديزني المخصصة للاطفال ، التي تتحدث مؤخراً عن (علاء الدين والليالي العربية) فتصف بلادنا بأنها (بلاد البرابرة حيث يقطعون أذنك إذا لم يعجبهم وجهك) . (٢٥)

ويرى (جلال أمين) أن فكرة الترويج لاعتبار الاسلام هو (الخطر الجديد) للغرب تقف وراءها إسرائيل ، وهي المستفيد الأول من محاولة ترسيخها في التفكير الغربي ، فاسرائيل تستفيد من ذلك في تحقيق هدفين : الأول : إن تشويه صورة العرب والمسلمين في الغرب من شأنه بالنتيجة إظهار إسرائيل بصورة مشرقة ، والثاني : إن إظهار العرب والمسلمين في صورة «إرهابيين» من شأنه إخفاء الوجه الارهابي لإسرائيل ، أي إخفاء حقيقة أن الارهابيين الحقيقيين في المنطقة هم الإسرائيليون . ويترتب على ذلك أن ارتكاب إسرائيل أية أعمال وحشية وارهابية ضد الفلسطينيين أو لبنان يجري تفسيره بسهولة في الغرب على أنه دفاع إسرائيلي عن النفس . (٢٦)

ولعل ما أورده (جلال أمين) يتأكد من خلال الأطروحات التي ألح عليها (شمعون بيريز) في كتابه (الشرق الأوسط الجديد) الذي أبدى فيه تخوفه الشديد من الحركات الاسلامية أو الأصولية الاسلامية ، بالإضافة إلى ما أورده (نتنياهو) في كتابه (الارهاب : كيف يمكن للغرب أن ينتصر) الذي ذكر فيه أنّ الإسلام دين عنف وإرهاب وأنه يجب على الغرب محاربة الاسلام بعد انحسار الخطر الشيوعي .

وفي الوقت الذي يتم فيه هذا العداء المؤسسي والمنظم للاسلام فإن الصحافة الغربية والأمريكية لا تذكر شيئاً عن الأصولية المسيحية واليهودية .

ولعل (الأصولية المتطرفة) التي فبركتها وسائل الاعلام الغربية ، والتي يبدو فيها الأصولي على غير حقيقته من حيث هو عالم محقق ، وباحث يعود بالأشياء إلى أصولها . فلا نرى منه إلاّ اللحية والثوب القصير وقنبلة توشك أن تنفجر . . . لعل هذه الأصولية المختلفة ، أن تكون منذورة لتغييب الأصول الحقيقية للدين الاسلامي ، أو لتصور الحياة المختلف الذي يخشى الغرب منه على نفسه . (٢٧)

ومما يجدر ذكره ، أن هذه القوى نفسها التي تنظر إلى الاسلام ومنتسبيه بطريقة عدائية هي التي سمحت لنفسها أن تتحالف مع المسلمين في أفغانستان لمواجهة الاتحاد السوفييتي عندما قام بغزو تلك البلاد ، وتم تسليح المجاهدين وفتح المجال لتدريب المتطوعين العرب والمسلمين لمحاربة السوفييت عندما كانت المصلحة الأمريكية الغربية تستدعي ذلك .

ولعله من الغرابة كما يقول (معن بشور) أن مثل هذه الحملة التي قلما تميز بين العربي والمسلم سواء كان العربي غير مسلم ، أو المسلم غير عربي ، لا تميز كذلك بين حلفاء الغرب من العرب المسلمين وبين الآخرين ، وكلنا يذكر كيف وصلت هذه الحملة العنصرية ضد العرب والمسلمين إلى أوجها إبان حرب الخليج ، على الرغم من أن كل دعاوى الغرب الأطلسي كانت تقوم على أنه قد أرسل جيوشه للدفاع عن سيادة بلد عربي بوجه عدوان بلد عربي آخر . . بل كلنا يذكر كيف تستخدم ، ومن زمن كوفية الخليجي ، وجمل الصحراوي وتهتّك النفطي ، في وسائل الإعلام الأمريكية والغربية للتشهير بالعرب والمسلمين كلهم . (٢٨)

ويقول (محمد سيد محمد) إن هذه النماذج والأمثلة التي يقدم بها الاسلام في وسائل الاعلام الأمريكية تحاول فر ض أنماط وقيم ومعلومات خاطئة ومزيفة إلى جانب تكرارها وتجنب التفاصيل وغياب الرؤية الأصلية والصحيحة . ويمكن القول ، بأن هذا التركيز القوي لوسائل الإعلام مجتمعة ، يشكل نواة مشتركة من التفسيرات توفّر صورة معيّنة للاسلام ، وتعكس ، دون شك ، الاهتمام والمصالح المسيطرة في المجتمع الذي تخدمه هذه الوسائل . (٢٩)

ويمكن القول إن الهجوم على الاسلام والعرب يتم تداوله في كافة وسائل الإعلام الأمريكية من صحف ومجلات ومحطات إذاعية وتلفزيونية وأفلام سينمائية .

٢.٣ الصهيونية وتشويه الصورة العربية في امريكا

إن هناك اتفاقاً بين كافةالباحثين في موضوع الصورة العربية ، على الدور الذي لعبته الحركة الصهيونية في تشويه هذه الصورة ، وذلك اتساقاً مع منهج هذه الحركة في تثبيت دعائم إسرائيل وتسهيل مشروعها الاستعماري الإستيطاني من خلال خلق أجواء العداء المستحكم للفلسطينيين والعرب الذين يواجهون المشروع الصهيوني ويحاربونه .

ويشار إلى أنّ الصهيونيين استغلوا بلباقة المخاوف الغربية والتحامل ضد العرب لخلق صورة سلبية مبالغ فيها ضد العرب والثقافة العربية في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية .

وهذا التشويه هو السبب الرئيسي في لا مبالاة الغرب خلقياً تجاه الجرائم التي ترتكبها الصهيونية ضد الفلسطينيين . (٣٠)

فقد أشاعت وسائل الإعلام الغربية صورة الارهابي العربي التي بدأت تظهر في افق الرأي العام الغربي بعد فترة وجيزة من حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ . وارتبطت هذه الصورة بالمقاومة الفلسطينية التي بدأت عملياتها بعد تلك الحرب في سبيل إحياء الهوية الفلسطينية . (٣١)

وعبرت وسائل الإعلام الأمريكية عن تجاهلها للحقوق الفلسطينية وانحيازها الأعمى للسياسات الإسرائيلية . وكان العرب الفلسطينيون يوصمون دائما بالعنصرية ولا يحظون بأية صورة من صور التفهم أو التعاطف معهم ومع قضيتهم .

وتجمع كافة الدراسات التي تتناول العلاقات الإسرائيلية ـ الأمريكية على مدى السيطرة التي تتمتع بها الحركة الصهيونية داخل الحياة السياسية الأمريكية . فها هو (دالاس) وزير خارجية أمريكا إبان حرب ١٩٥٦ يقول : «إني أدرك كيف يكاد يستحيل تنفيذ سياسة خارجية في الشرق الأوسط لا يقرّها اليهود» . كما استنكر (دالاس) فيما بعد سيطرة اليهود المروعة على وسائل الاعلام الاخبارية والسور الذي أقامه اليهود حول أعضاء الكونغرس الأمريكي . . قائلاً : إن ما يقلقني هو نفوذ اليهود الذي يطغى على ساحتنا بصورة تامة يكاد يستحيل معها على الكونغرس أن يفعل شيئاً بدون موافقتهم : فمن خلال أصحاب النفوذ من الشعب اليهودي ، تفرض السفارة الإسرائيلية على الكونغرس ما تريده . (٣٢)

ويوضح المفكر اليهودي (اليعازر) ، وهو أحد الصهاينة الأمريكيين البارزين ، أن النفوذ اليهودي في أوساط الصحافة الأمريكية بالشكل الذي هو عليه الآن ، يعود إلى الجهود التربوية الحثيثة التي تمت عبر سنين طويلة لجعل هؤلاء الرجال الذين هم في موقع المسؤولية والذين يقررون طبيعة الاتجاه الذي تسير فيه افتتاحيات الصحف ، وما تبثه الاذاعات ، وشبكات التلفزيون مدركين لعدالة القضية الاسرائيلية . (٣٣)

ويذكر (محمد ربيع) وهو أحد الباحثين المهتمين بالسيطرة الصهيونية على وسائل

الإعلام الأمريكية ان : تركيز الإعلام الأمريكي على إسرائيل قاد الرأي العام الأمريكي إلى الإعتقاد بأنها الطرف الرئيسي والأهم في كافة تطورات الوضع في الشرق الأوسط، السياسية وغير السياسية . وبالتالي تسبب ذلك الموقف الإعلامي في تضليل الشعب الأمريكي وتعقيد فهمه لطبيعة الصراع العربي ـ الإسرائيلي ، وتعطيل مقدرته عل الإطلاع على مواقف الأطراف العربية وتدارسها بتجرد وحيادية . وبسبب أهمية أمريكا وأهمية الإعلام الأمريكي في توجيه الرأي العام والتأثير في سياسات وتوجهات الدولة الداخلية والخارجية اتجهت الصهيونية إلى محاولة السيطرة على العملية الإعلامية واجهزتها الرئيسية . وبسبب غياب العرب شبه الكامل عن الساحة الأمريكية استطاعت إسرائيل والصهيونية تحقيق أهدافها دون مواجهة تحديات عربية .(٣٤)

وكان (ستيف بيل) محقاً في تساؤله حينما قال : إذا لم تكن هناك سيطرة صهيونية على وسائل الاعلام الأمريكية فلماذا يا ترى كانت النظرة المعادية للعرب منذ إنشاء إسرائيل ولماذا كان الأمريكيون يميلون لمعرفة ما يجري في الشرق الأوسط من خلال العيون الإسرائيلية .(٣٥)

ولعل ما ذكره (بول فندلي) عضو مجلس الشيوخ الأمريكي السابق في كتابه (الخداع) يمثل وثيقة صارخة «للارهاب» الاعلامي الذي تمارسه جماعات الضغط الصهيونية داخل الولايات المتحدة وازاء كافة وسائل الاعلام فيها . ومن ذلك ، ما قاله (فندلي) حول الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ الذي كان الحرب الأولى من حروب الشرق الأوسط التي تمّ بثُّها على شاشات التلفزيون بكل فظائعها وأثارت التقارير اليومية المصورة حول قصف القوات الإسرائيلية للمدنيين احتجاجات دولية . أما في الولايات المتحدة فقد هب مؤيدو إسرائيل لمناصرتها مع الزعم بأنهم يرون بارقة أمل وسط كل تلك المعاناة . وعندما اشتدت الاحتجاجات العالمية على إسرائيل شنت هي ومؤيدوها حملة شرسة ضد وسائل الاعلام فوصف راديو الجيش الإسرائيلي توماس ل . فريدمان الكاتب في (النيويورك تايمز) بأنه «يهودي يكره نفسه» وهاجمت مجلة (نيوريببلك) الصحافة بوصفها معادية لإسرائيل ، فوجهت سؤالاً للقراء في باب (بنت هاوس) يقول : (لماذا انضم الصحفيون الأمريكيون بحماسة إلى الرعاع الذين ينهشون لحم اسرائيل) .(٣٦)

وأشار (فندلي) إلى الدور الخطير الذي لعبه اللوبي الإسرائيلي داخل الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة منظمة (إيباك) أي اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشؤون العامة أو لوبي إسرائيل الرسمي في الولايات المتحدة منذ عام ١٩٥١ .

وجاء في تقرير لصحيفة (نيويورك تايمز) في عام ١٩٨٧ أن إيباك غدت قوة رئيسية في رسم سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط . وأصبحت المنظمة على جانب من القوة يمكنها من التأثير على اختيار المرشح الرئاسي لرجال إدارته ، ومن الوقوف في وجه بيع الأسلحة لأي قطر عربي ، ومن التوسط في إقامة العلاقات العسكرية الوثيقة بين البنتاغون (وزارة الدفاع الأمريكية) والجيش الإسرائيلي . وتقوم وزارة الخارجية وصانعو سياسة البيت الأبيض واعضاء مجلس الشيوخ وقادة الجيش باستشارة كبار المسؤولين فيها .(٣٧)

وقد قامت الحركة الصهيونية بقيادة هذه المنظمة بجهود متواصلة لتدمير الصورة الانسانية للعرب وذلك بأساليب متعددة بدءاً مما تتضمنه الكتب الدراسية من مقولات تؤكد استحالة قبول التعايش مع العرب .

ويرى (جمال نصّار) أن قوة اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة تعتمد على قوة الجاليات اليهودية فيها ودورها في الانتخابات السياسية وأجهزة الرأي العام والمصالح الاقتصادية وخاصة المصالح المالية منها . وعليه فإن دور اللوبي الصهيوني حاسم في تقرير مستوى العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية .(٣٨)

ويتفق (فكتور شلهوب) مع وجهة النظر هذه معتبراً أن القوة الرئيسية للوبي الإسرائيلي تنبع من الموقع الممتاز الذي يحتله اليهود في أمريكا لا سيما في المرافق والقطاعات الحساسة مثل عالم المال والاعلام وغيرهما . وهو يستند في الأساس على الجدار الصلب للعلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية الخاصة . كما أن هذه القوة مستمدة من كون مناخات هذا الفلك مواتية له ومعادية للقضايا العربية وضمن هذا الإطار من الطبيعي أن يساهم اللوبي في تعزيز روابط العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية ويتأثر بها في آن معاً .(٣٩)

وتوكيداً لهذه الصورة الموضحة لدور اللوبي اليهودي على الساحة الأمريكية نجد بين

أيدينا بحثاً لا يقل خطورة في شرح خلفيات الدعم الأمريكي للحركة الصهيونية والمشاريع الإسرائيلية مبنياً على الأسس الدينية ، بيّن فيه (يوسف الحسن) كيف توفر (الحركة المسيحية الأصولية الأمريكية) البيئة الملائمة للنفوذ الصهيوني وترسيخ مجموعة من الآراء المتحاملة على العرب في شعور الرأي العام الأمريكي وثقافته وفي سياسة الولايات المتحدة الأمريكية (الشرق أوسطية) الأمر الذي أدّى بشكل مباشر أو غير مباشر إلى الانحياز إلى إسرائيل وحركتها الصهيونية . (٤٠)

ويعتبر القس (بات روبرتسون) واحداً من هؤلاء الذين يخدمون إسرائيل ويهاجمون العرب على أسس دينية وهو أحد الأوائل من رجال الكنيسة الذين تنبهوا إلى أهمية تأثير الكنيسة المرئية العام وقوة هذا التأثير . وهو يمتلك إحدى أكبر الشبكات المرئية وهي (شبكة الاذاعة المسيحية) . ويبدو برنامجه باستمرار معادياً للعرب ، وهو يعتبرهم (أعداء الله) ويعتبر أنه لا مجال للعدل مع الفلسطينيين طالما ان رغبة الله هي في تأسيس إسرائيل وفي تعيين حدودها . ولا مجال لديه في برنامجه لأي حوار مع المسيحيين العرب ، لكنه يفتح برنامجه لضيوف من إسرائيل ومن الجماعة اليهودية الأمريكية . كما يحتفل في برنامجه بأعياد اليهود باستمرار . (٤١)

٤ـ الوسائل الإعلامية الأمريكية والصورة العربية

١.٤ الصحافة الأمريكية والصورة العربية

توصل عدد من الباحثين العرب في سلسلة الدراسات التي قدّموها حول الصورة العربية في الصحافة الأمريكية إلى تقرير مدى التشويه الذي لحق بهذه الصورة خاصة إبان الحروب العربية الإسرائيلية التي شهدتها العقود الأخيرة في أعقاب إنشاء الدولة العبرية في فلسطين . ومن هؤلاء الباحثين (ميخائيل سليمان) الذي كشفت دراسته للتغطية الاخبارية عن الشرق الأوسط في سبع مجلات أمريكية (تموز / يوليو ـ ديسمبر ١٩٥٦) : أن صورة العربي النموذجي هي صورة بدوي مرتحل من سكان الصحراء . ويظن أن الإلحاح في إبراز تلك الصورة هي نتيجة للتأكيد المفرط على صورة ذلك البدوي (المثيرة للاهتمام) و (الرومانسية) . أمّا الإسرائيليون فقد عرضوا بصفتهم أناساً يشبهون الغربيين وكذلك بصفتهم

ديموقراطيين . في حين عرض العرب بصفتهم (شقاة) ومعتدين على الإسرائيليين (المحبين للسلام) . وعرض اهتمام إسرائيل الأساسي على أنه (أمنها) دون أي نيات سيئة من جانبها . وحين هاجمت إسرائيل جاراتها العربيات بشدة تفوق المعتاد جرى تبرير أعمالها على أنها . (غارات انتقامية) .[(٤٢)]

أمّا في حرب حزيران ، فقد أظهر التحليل الذي قام به (ميخائيل سليمان) ان صورة العرب في نظر الصحف الأمريكية تمثلت بالهجوم الشديد على شخصية جمال عبد الناصر . ولكن حملة التحقير والذم لم تكن مقتصرة على الرئيس عبد الناصر . فقلما أسبغت أي صفات حميدة على العرب عامة في حين أن الإسرائيليين يعتبرون منزهين عن الخطأ . فالصورة الرومانطيقية القديمة التي كانت تمثل العربي بدوياً يتنقل في الصحراء ويعيش فيها حلت محلها صورة أخرى تمثله رجلاً مكفهر الوجه ، متحايلاً وجباناً . وهي صورة دعمتها الأفلام السينمائية والتلفزيونية . وبالمقابل كانت الصحف الأمريكية تصور الإسرائيليين كشعب فتي مليء بالحيوية والنشاط ، مجتهد ، يحب مباهج الحياة ، لوحت بشرته أشعة الشمس .[(٤٣)]

وقد استطاعت إسرائيل في حرب ١٩٦٧ أن تنجح نجاحاً باهراً في فرض وجهة نظرها على العالم من خلال خطة اعلامية ذكية ، واكبت بحرص وحذق شديدين حركتها السياسية قبيل وأثناء وبعد حرب عام ١٩٦٧ .[(٤٤)]

ويذكر (تحسين بشير) أن المنظمات الصهيونية لم تكتف بالتحيز الواضح في الصحافة لصالح إسرائيل بل إنها لجأت إلى طريق الدعاية المباشرة واغراق الصحف وخاصة صحيفة (نيويورك تايمز) بالاعلانات المدفوعة التي ركزت على الموضوعات الآتية :[(٤٥)]

أ - انقاذ اليهود من مجزرة جديدة .

ب - تجنب ميونيخ جديدة أمام التحدي الشيوعي في الشرق الأوسط .

جـ - التذكير بويلات اضطهاد اليهود .

وكانت تدفع مثل هذه الاعلانات المنظمات التي تتمتع بالاعفاءات الضريبية ويقدر ثمن الاعلان الواحد بحوالي عشرة الاف دولار .

أمّا في حرب عام ١٩٧٣ ، وإزاء النجاحات العسكرية التي تحققت للعرب على جبهات القتال خاصة في الأيام الأولى للحرب ، فقد أظهر تحليل الصحف والمجلات الأمريكية : مدى التحسن في النشر الأمريكي عن الشرق الأوسط في عام ١٩٧٣ . إذ لم تكن هناك إدانة للزعماء العرب ، وهذا تغيير ملحوظ عما كان عليه الحال في السنين السابقة . كان الرئيس عبد الناصر يوجّه إليه اللوم عن جميع «مشاكل» الشرق الأوسط . أما خلفه أنور السادات فقد تحاشى معاداة وسائل الاعلام الغربية فيما يبدو ، والواقع أنه صار موضع إطراء ، وإن كان ضئيلاً ، من أوساط معينة . ولعل الأهم انه نجا بجلده من الانتقاد في أعمدة الرأي لهذه المجلات . (٤٦)

وهذا التغيير الطفيف في مواقف الصحافة الأمريكية إزاء الشخصية العربية أظهرته دراسة (نادية سالم) بعنوان (صورة العرب والاسرائيليين في الولايات المتحدة الأمريكية) التي أكدت أثر الحروب على الصورة القومية حيث كان لحرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ دور كبير في تشكيل الصورة الأمريكية عن الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية . ولكنها بينت أن التغير الذي طرأ على الصورة الأمريكية للشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية لم يلغ كل جوانب الصورة القديمة . فقد استمرت بعض معالم الصورة القديمة وأضيفت إليها معالم جديدة مع بعض التعديلات التي طرأت على بعض السمات كنتيجة مباشرة للحرب . (٤٧)

لقد استخدمت الصحافة الأمريكية فن الكاريكاتير بما له من تأثير كبير في نفوس مطالعيه وقدرة نقدية ساخرة في الحملات ضد الارهاب الذي يتم إلصاقه بالعرب .

ويذكر (ادمون غريب) أن الحملة الكاريكاتورية على العرب تهدف إلى : (٤٨)

- إظهار العرب بشكل إرهابيّين أو مؤيّدين للارهاب .
- إظها ر إسرائيل بمظهر الضحية البريئة .
- إظهار الأوبك بمظهر الرجل العربي الشرير الجشع والخطر .
- إظهار العرب وكأنهم برابرة لا قيمة لحياة الإنسان أو كرامته عندهم .

● إظهار العرب بأنهم عملاء أو حلفاء للسوفييت (وذلك قبل انهيار الاتحاد السوفيتي) .

ويذكر أن الثروة النفطيّة العربية التي كانت سبباً في الكثير مما لحق بالعرب من ويلات وتمزيق وحروب واستدعاء للقوة العسكرية التي تتواجد الآن في المنطقة خاصة بعد حرب الخليج التي نتجت عن الاحتلال العراقي للكويت عام ١٩٩٠ ، هذه الثروة النفطية كانت موضع سخرية مريرة وهجوم شديد ضد البترول العربي والانسان العربي بصفة عامة .

ويرى (وليد خدوري) أن رسامي الكاريكاتير الأمريكيين صوروا منتجي النفط العرب يرتدون القفاطين راسمين على وجوههم ابتسامة مخادعة مزعجة بينما هم يمسكون في أيديهم بمضخات الوقود مهدّدين بقطع امدادات النفط وخنق المجتمعات الغربية . وأن هؤلاء العرب يبتزون الولايات المتحدة بل إنهم يمارسون أفعالاً قذرة ضد النسر الامريكي كنتف ريشه وسحقه حتى الموت .

والهدف من هذه السلسلة من الكاريكاتيرات هو إثارة المخاوف من تضاؤل قوة الولايات المتحدة ومن تعرضها للابتزاز لتتخذ موقفاً مضاداً لإرادتها الحرة ، وأن النفط العربي هو السبب الوحيد لزوال القوة الأمريكية وأن العرب من بين جميع أمم الأرض ، هم الذين يوجهون الضغط على السياسة الخارجية للولايات المتحدة . (٤٩)

٢ـ٤ التلفزيون الأمريكي والصورة العربية

لقد أمعن التلفزيون الأمريكي كثيراً في تشويه صورة العرب إلى درجة أصبح معه الخيال الجامح الذي يستخدمه هذا التلفزيون جزءاً من التراث الشعبي الأمريكي وبات يمنع إقامة علاقة من الثقة والصداقة بين العرب والأمريكيين . (٥٠)

ويرى أحد نقاد برامج التلفزيون الأمريكي أن مهمة صنّاع برامج التلفزيون هي الاستحواذ على انتباه الناس والامساك بهم لفترة تكفي للإعلان عن منتج ، كما يقول ـ جون كوندري ـ وفي ضوء السيكولوجيا الانسانية فإن هذا العمل ليس سهلاً ، فالكائنات الانسانية تضجر بسرعة . ولكي يحصل التلفزيون على انتباهنا ، فلا بدّ له ان يتغير باستمرار . إن اهتماماته محصورة في الحاضر المباشر فحسب ، وهو غير معني بالبحث في

مشكلات تتعدى الحلول قصيرة الأمد . وليس هناك من سبب من وجهة نظر الدراما التلفزيونية لأن تعنى بالواقع . فإذا كان تحريف الواقع يشد انتباه الجمهور ، إذن فالتحريف هو المطلوب . فالظفر بانتباه المشاهدين هو الاهتمام الأساسي للتلفزيون . (٥١)

ويرى هؤلاء النقاد أن هذه التغطيات الاخبارية تتسم بالخطورة وقت الأزمات لأنها تزيد الضغط على السياسيين للاستجابة فوراً للتقارير الاخبارية التي تكون غير كاملة ودون قرينة وخاطئة أحياناً بسبب فوريتها . أمّا الجمهور فيكون عرضة للتأثر بكل ما يقدم إليه في أوقات الأزمة بصورة سريعة ، إن التدفق الضخم للمعلومات في مثل تلك اللحظات سوف يتضمن السليم وغير السليم ، والمسؤول وغير المسؤول . ويظل ما هو غير عادي وعنيف مصدراً للأخبار . ويشد النزاع الانتباه ، بينما يمر الوئام والسلام دون تسجيل ، وغاية ما يتم تغطيته هي القضايا والأماكن التي تشغل الاهتمامات الأمريكية أمّا التلفزيون فإنه يعرض العنف مع اهتمام غير كاف بالسياق ، وإعطاء أولئك الذين يعتمدون على هذه الوسيلة صورة محدودة ومشوهة ومنطوية على التهديد المتواصل . (٥٢)

وتتمثل خطورة الدور الذي يقوم به التلفزيون الأمريكي فيما يقدمه من برامج ترفيهية ومسلسلات تلفزيونية تتخذ طابع الترفيه ، وفي هذا الصدد يقول (جاك شاهين) : «إنني اعتبر ان هذه الصورة المعادية للعرب في برامج الترفيه التلفزيونية تسحب نفسها على السياسة الأمريكية . ففي الوقت الذي تعامل فيه الأمة العربية والحضارة العربية باحتقار على يد معظم كتّاب هوليوود ومخرجيها ، تكون النتيجة أن العديد من الأمريكيين وممثليهم السياسيين يتشبّعون بانطباعات ومشاعر معادية للعرب مستمدة من التواتر المكثف من التشويه المتعمد في البرامج التلفزيونية . (٥٣)

وهناك أهمية قصوى للتأثير الذي تحدثه برامج التسلية التلفزيونية لأن كثيراً من الأمريكيين يكوّنون الصور من خلال برامج التسلية أكثر ممّا تكوّنه الأخبار في هذا الصدد . إن برامج إخبارية عديدة جيدة قد لا تستطيع إلغاء تأثير هدّام يحدثه برنامج ترفيهي واحد يقدم في وقت ذروة المشاهدة .(٥٤)

وقد امتلأت العديد من البرامج الاخبارية والمسلسلات التلفزيونية بألوان مختلفة من

الإساءة للعرب ، ومن هذه المسلسلات : (فيغاس) و (دونيت) و (الفتيات الأمريكيات) و (اليانصيب) و (ماكلاود) و (المرأة البوليس) و (في يوم من الأيام) و (أمسية في بيزنطة) و (رجل بستة ملايين دولار) . وتدور كلها حول تحقير العرب واتهامهم بالابتزاز وتجارة الرقيق وشراء المدن ومحاولة شراء أمريكا والسيطرة على العالم بأموالهم . إضافة إلى المسلسلات التي تصف العرب بالإرهاب والتخريب وخطف الطائرات وقتل المدنيين والقاء القنابل على الأمريكيين .

ويبدو أن صنّاع هذه البرامج والمسلسلات يتناسون أن الغرب وأمريكا بالذات هي إحدى أكبر قلاع العنف في العالم وأن هذا المجتمع الغربي ، كما يقول هشام شرابي ، قد يخلق نظاماً اجتماعياً اقتصادياً لا يزال يرتكز على استغلال الانسان وقهره وعلى كبته . إن الغرب الحديث قائم على العنف والاستغلال وهو مضرج بالدماء ، وإذا قسناه بمقدار القتل والدمار الذي سببه في عصرنا لوجدناه أكثر وحشية وأشد همجية من أي مجتمع في التاريخ . إن الإنسان في هذه الحضارة لا يكون القيمة الأساسية أو الهدف الأخير للمجتمع كما تقول نظرياته ومثله الأخلاقية . إنه أداة للنمو الاقتصادي الأعمى والتوسع الاستهلاكي من دون نهاية ، ولا يشكل غاية انسانية في حد ذاته إلاّ في أوقات الوعظ في الكنائس والمناسبات الخطابية .(٥٥)

٣.٤ السينما الأمريكية والصورة العربية

لقد استخدمت السينما الأمريكية لتوجيه اقسى الاهانات وأبشع صنوف التجريح للصورة العربية والشخصية العربية . وهناك أفلام عديدة انتجتها (هوليوود) تندرج تحت هذا الوصف وتم توظيفها للنيل من الإنسان العربي واتهامه بالإرهاب سواء كان داخل الوطن العربي أو خارجه .

وبرغم الجهود الكبيرة التي بذلها الأمريكيون العرب لتصحيح هذه الصورة القالبية عن العرب عبر السنوات الطويلة إلا أن هذه الصورة ما تزال باقية إلى الآن . وهي تظهر بقوة في صناعة الأفلام التي تركز على قضية الارهاب وإلصاقه بالعرب .

وقد تعاملت سينما هوليوود مع العربي والمسلم ، على أنهما من الأشرار ، وبالتالي فهما من الأعداء ، وحاولت منذ البداية أن تسخر منهما وتلصق بهما مجموعة من الأحكام الجاهزة التي تؤدي إلى التنفير والاحتقار ، باعتبارهما يمثلان الشر بجميع أشكاله . وإصرار السينما الهوليودية على تحقير الانسان العربي والتحذير منه تأكد بشكل واضح بعد حرب عام ١٩٦٧ وكذلك حرب عام ١٩٧٣ ، والصلة واضحة بين هذا الاصرار وبين السياسة الأمريكية . (٥٦)

إن سينما (هوليود) تصور العرب في رواياتها كإرهابيِّين متعصبين يقتلون الضحايا الأبرياء ببرود ويفتقرون إلى الحس الانساني . و«هوليود» هي أولاً مع اليهود ضد العالم كله . وعندما منعت بعض الدول العربية والإسلامية عرض فيلم (لائحة شندلر) تطوع البيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية للدفاع عن الفيلم و(التشهير) بكل من يمنعه بدعوى أنه معادٍ للسامية .(٥٧)

ولعل هذه السيطرة اليهودية على (هوليود) تنسجم مع ما ذكره الممثل العالمي الشهير (مارلون براندو) في (ابريل ١٩٩٦) من أنّ اليهود هم سادة هوليود والاعلام وهم الذين يسيطرون على السينما ، وهم الذين صبّوا كل الأوصاف وعلى الجميع عبر الشاشات الكبيرة والصغيرة ، وقد حقروا الجميع دون استثناء . وقد لقي هذا الممثل الكبير من العنت والهجوم المرير من كافة الوسائل الاعلامية التي يسيطر عليها اليهود حتى اضطر إلى الاعتذار عن تصريحه هذا . . . وكان الاعتذار بمثابة اعتراف بقوة سيطرة اليهود والحركة الصهيونية على الاعلام الغربي والأمريكي .

ويقول (جاك شاهين) إن العربي كان يصور في الأفلام السينمائية القديمة وكأنه مخلوق بعيد عن الحضارة ، متشرد لا تحكمه الضوابط الأخلاقية . وفي الأفلام الحديثة يصور العربي كإنسان همجي ، خاصة في الأفلام التي تم تصويرها في الثمانينات ، ونادراً ما نسمع عن اعتراض على هذا التصوير من المشاهدين ، أو نقرأ عن ذلك في الصحف ، ولذا نرى أن هذا التصوير قد أصبح مألوفاً لدى القارىء ، وسائداً في الافلام ، بل ربما أصبح مقبولاً ومستمراً . (٥٨)

لقد ركزت أفلام الثمانينات كثيراً على الارهاب وأبرزت زعامات ارهابية عربية طرحت

جانباً كل ما هو إنساني ، وتمكنت من اشعال شرارة التخريب والعنف داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد أسقطت أيضاً الهدف الذين يحاربون أو «يخرّبونَ» من أجله . وحاولت الأفلام التنقل بأحداثها الدموية بين الولايات المتحدة الأمريكية لتجعلها جميعاً في متناول الارهاب العربي .(٥٩)

ومن ذلك كان ، الفيلم الوثائقي (الجهاد في أمريكا) الذي قدمه (ستيفن إيميرسون) وتضمن عرضاً وثائقياً مخيفاً ومشوهاً لصورة القيم الاسلامية وحياة المسلمين في أمريكا وذلك بربطها بالارهاب وبنطاق واسع من النشاطات والتصريحات غير المشروعة . وقد جاء الفيلم منسجماً مع التوجه الطويل للصحافة الأمريكية بتقديم تغطية سلبية وعنصرية للعرب والمسلمين ولعرب أمريكا ومسلميها .

وكذلك فيلم (محاكمة إرهابي) الذي يعتبر أبشع صورة للموقف الأمريكي المتحيز والمعادي للعرب وقضاياهم العادلة . فالفيلم عبارة عن قصة خيالية تدور حول شاب فلسطيني متهم بالمشاركة في محاولة اغتيال مدنيين أمريكيين في اسبانيا .

والفيلم التلفزيوني (ترو لايز True Lies) وفحواه أن الأمريكيين في خطر فالعرب باتوا يملكون الأسلحة النووية وهم يخططون للانتقام من شعوب الولايات المتحدة . وقد كان هذا الفيلم حافلاً بالأكاذيب والصور القالبية ضد العرب الارهابيين الذين يحتجزون الرهائن .

ومن الأفلام التي تقدم العربي بصورة الإرهابي أيضاً : نحو الليل ، النسر الحديدي ، قوة الدلتا .

وقد جرى التركيز على هذه الصورة وترسيخها في أذهان المشاهدين في فيلمين تلفزيونيين آخرين أخرجا عام ١٩٨٥ هما : تحت الحصار ، طيران الرهائن . وكذلك هناك تسعة أفلام أخرى تظهر العربي بشكل يبعث عل السخرية مع أن موضوعات قصصها لا علاقة لها بالعرب من قريب أو بعيد ، ولا بالأرض العربية . وهذه الأفلام هي : أيها الشيطان ، نيران سان إلمو ، مسألة ليست بسيطة ، عودة الى المستقبل ، تجوال في بيفرلي هيلز ، الحياة والموت في لوس أنجلوس ، سائقي الخاص وشارلوك هولمز الصغير .(٦٠)

أمّا فيلم النسر الحديدي الذي أنتج عام ١٩٨٦ فقد جرى تصويره في إسرائيل . وهذا الفيلم يعمل على زيادة مشاعر الخوف والكراهية للعرب . وهذا يدعم الصورة الذهنية للعربي

المتوحش كما تظهرها الأفلام الأمريكية . . . العربي الذي يكره الأمريكيين ، ويعمل على تعميق وترسيخ جذور الكراهية للعرب التي كانت مقصورة على البعض ، فيعمل على نشرها بين أفراد الشعب الأمريكي كله ، وإلى تعميم هذه الكراهية على كل العرب . (٦١)

ولم تسلم أفلام الكارتون الموجّهة للأطفال من هذه الروح العدائية الاتهامية الموجّهة للعرب . فها هو فيلم الكارتون (علاء الدين) الذي أنتجته (والت ديزني) يصف العرب بالتوحش والبربرية وهم (سيقومون بقطع أذنك إذا لم يعجبهم وجهك . وهذه هي البربرية بعينها) .

وهناك خطورة كبيرة تتجلى في هذا النوع من الأفلام المقدمة للأطفال حيث تصل الرسالة الملغومة إلى الطفل الأمريكي والأوروبي تؤكدها لغة سينمائية باهرة تجعل المشاهد يشارك بطله الصغير أخيلته وأوهامه التي يتخذها وسيلة للهروب من عالمه الهادىء ، من أجل أن تغرس في أعماقه ما تريد تقديمه من أفكار ودعايات عن عوالم الآخرين . (٦٢)

ومما يلفت النظر أن عدداً من هذه الأفلام المسيئة للعرب والمسلمين يتم تصويره في بعض البلاد العربية ، ومن ذلك أفلام (إمرأة الأعمال ، مريم ، جوهرة النيل ، بوليرو) وكان آخرها فيلم (عشتار) الذي انتجته الشركة الصهيونية (كولمبيا) للسينما ويعتبر هذا الفيلم مثالاً للأفلام الصهيونية الأمريكية التي تمجد أسطورة البطل الأمريكي وتحطّ من قدر العرب والمسلمين الذين يمثلون في الفيلم قمة التخلف والرجعية والطغيان .(٦٣)

كما يشار إلى أن أفلام المصارعة الحرة تعتبر من أكثر الأفلام المشحونة بالدعاية السياسية والايديولوجية الصهيونية . ويبدو وكأن هذه الأفلام قد أعدت خصيصاً للمنطقة العربية . وهناك أبطال يؤدون أدوارهم في هذه الأفلام أريد لهم ان يحملوا أسماء عربية كما أريد لهم ارتداء الزي العربي وأريد لألقابهم وأزيائهم العربية أن تكون ذات دلالة منفرة وكريهة (عبد الله الجزار) و (أبو العقال) و (أبو الكوفية) و (عبد الله السوداني) . . . إلخ . . وقد أريد أيضاً لهذه الشخصيات التي تحمل القاباً عربية وترتدي أزياء عربية أن تكون نموذجاً لكل المعاني الشريرة على مستوى الشكل ، وعلى مستوى السلوك ، فهي نماذج فريدة للغدر والخيانة والحقد الذي يبرز على حلبة المصارعة ، وقلوبهم لا تعرف الرحمة أو القيم الأخلاقية .(٦٤)

٥.نماذج من الحملات الاعلامية الأمريكية: اتهام العرب بالإرهاب

١.٥.الاعلام الأمريكي وانفجار أوكلاهوما:

إن هذا الهجوم الاعلامي على الشخصية العربية يترافق مع الحصار الدولي الذي تتعرض له الدول العربية. «فهناك حصار التبعية الاقتصادية والسياسية جنباً إلى جنب مع حصار الديون، الذي يشمل أغلبية الدول العربية، وهناك الحصار بدعوى التأديب، كما في حالتي العراق وليبيا والسودان، وهناك حصار الوجود العسكري الأجنبي المباشر كما في الخليج». (٦٥)

وقد أصبحت تهمة الارهاب تلصق بالعرب، حتى قبل التحقق من مدى صحة هذه الاتهامات التي تطلق جزافاً مثلما حدث بشكل فوري متسرع بعد حادث الانفجار في مدينة أوكلاهوما الأمريكية، حيث كان تعبيراً صارخاً عن العدوانية المتأصلة ضد الشعوب العربية والمسلمة وعن الصورة المنطبعة عنها التي تكرسها وسائل الاعلام الأمريكية في أذهان الأمريكيين.

ففي الساعات التي اعقبت الانفجار، تبرعت عدة شبكات تلفزة ومحطات إذاعة وصحف امريكية وغربية بنهش الصورة العربية والولوغ في دمها دون رحمة. فهذه محطة C.N.N. تشير إلى أن شخصاً ذا ملامح شرق أوسطية شوهد يغادر المنطقة بعد الانفجار. وها هي محطة إذاعية في منطقة بوسطن تطلب من المستمعين مساعدتها حول ما يجب فعله للانتقام من الذين يضعون المناشف «على رؤوسهم» (أي العرب). (٦٦)

وكانت تغطية (سي. أن. أن) وغيرها تغطية سريعة تبحث عن أجوبة مهما كانت كاذبة وزائفة لتقديمها لجمهور غاضب ومتسرع. أما صحيفة (نيويورك تايمز) فكانت تغمز من قناة العرب الأمريكيين والمسلمين الأمريكيين، ولم تكن تتحدث عنهم كأقلية باتت ضحية. وكتب الكاتب (أ. أ. روزنتال) مقالين مطولين ضد حكومات شرق أوسطية إدّعى أنها تدعم الإرهاب. وأشارت الصحيفة إلى أن مجرمي أوكلاهوما من المسلمين، وأنه بسببهم فإن المتهمين في تفجير مركز التجارة الدولي سينقلون من سجنهم لحمايتهم.

وحملت الصحيفة مقالاً آخر عن انفجار أوكلاهوما ، يقارن هذا الانفجار بانفجار مركز التجارة الدولي وبالانفجارات التي تستهدف الأمريكيين والتي أصبحت علامة مسجلة ترمز للإرهاب الشرق أوسطي . (٦٧)

وقد انطلقت كل هذه التهم والدعوات للانتقام من العرب والمسلمين قبل التعرف على الجهة المسؤولة عن الانفجار ، الذي ثبت فيما بعد تورط الأمريكيين أنفسهم فيه .

وإذا كان المجرم بريئاً حتى تثبت إدانته ، فما حصل بالنسبة للمسلمين العرب تجاوز هذا المفهوم ، وهذا راجع إلى تلمس وسائل الإعلام الأمريكية طريق إعلام الموقف بل والموقف المسبق ، مما أبعدها عن الحقيقة ، وبما لم يترك فرصة لجميع أطراف القضية للتعبير عن آرائهم . وهذا أوجد غضباً أمريكياً على المستوى الشعبي ضد العرب والمسلمين قد لا ينتهي بسرعة لأن عملية الاتصال عملية تراكمية . وهذا التراكم «الاتهامي» لكل ما هو مسلم وعربي يدعم وجهة نظر المجتمع الأمريكي ، ويحتم وجود ردّة فعل قوية تجاه هذه الفئة ، وبالتالي حدوث الاساءات القولية والفعلية ضدها .(٦٨)

وهو الأمر الذي لقيه العرب بالفعل بعد قيام وسائل الاعلام الأمريكية بتوجيه أنظار الجمهور إليهم حيث تسبب ذلك في «جرائم كراهية ومضايقات وسيل متدفق من خطابات الكراهية . سببت استياء ، وخوفاً وسط الجاليات الاسلامية والعربية في أمريكا . لقد اتضحت القدرة الرهيبة لوسائل الاعلام على التحريض في هذه القضية . وكانت وسائل الاعلام مخطئة» .(٦٩)

٢.٥.الاعلام الأمريكي و «الارهاب» الفلسطيني:

لقد كان هناك مساحة كبيرة من مادة وسائل الاعلام الأمريكية مكرسّة للحديث عن «الارهاب» الفلسطيني الذي نتج عن المعارك التي سبق للثورة الفلسطينية أن خاضتها ضد الاحتلال الإسرائيلي وقد لجأت هذه الوسائل في حملاتها الاعلامية والصحفية ضد هذا «الارهاب» الذي كان في واقع الأمر كفاحاً مشروعاً تعترف به كافة المواثيق الدولية لأنه يتم في مواجهة احتلال عسكري جاثم على مقدرات الأرض والانسان . لجأت إلى الأساليب الآتية :

■ كتابة أخبار العمليات الفدائية تحت عناوين بارزة وذلك لاستجلاب السخط عليها وانتزاع التعاطف مع الاسرائيليين .

● كتابة الافتتاحيات والتعليقات والاهتمام بالصور لتعريف الجمهور الأمريكي على الضحايا وعائلاتهم .

■ اعتبار الأعمال العدوانية الإسرائيلية داخلة في إطار الردّ الإنتقامي على «الإرهاب» العربي .

● الحيلولة دون نشر الأخبار التي تدين الأعمال العدوانية الإسرائيلية .

■ عدم إتاحة الفرصة لنشر ما يكتبه مراسلو الصحف الأمريكية في المنطقة خاص بما يتعرض له السجناء والمعتقلون العرب من تعذيب داخل السجون الإسرائيلية .

● التركيز في العناوين الصحفية على عبارة . . . الارهابيون العرب .

■ الانحياز الأعمى لإسرائيل من جانب الصحفيين من اليهود الأمريكيين .

● نشر الأخبار التي تحمل التشويه والإهانة للعرب .

■ تعريض الكتّاب والصحفيين الذين يتجرأون على النقد للضغط الشديد من جانب جماعات الضغط اليهودية .

وقد تعرض الأطفال الفلسطينيون لجانب من حملة التشويه الصحفية الأمريكية . ففي مقال بعنوان (أطفال العنف لـ م .ت .ف) كتبته مجلة (Parade) الأمريكية التي تصدر في نيويورك ، قال كاتبه : إن أطفال منظمة التحرير الفلسطينية يتعلمون منذ البداية على القتال من أجل أرض لم يروها ، وقبل أن يصلوا سن المراهقة فإنهم يكونون على استعداد للقتل من أجلها . وفي نفس المقال يكرر الكاتب كلمة (حقد) ضد الإسرائيليين . وفي المقال صور لأطفال فلسطينيين يحملون بنادق (حقيقية) لكي يركزوا على صورة الإرهاب . أمّا مجلة «التايم» الأمريكية فقد نشرت مقالاً حول أطفال الحرب . وفي داخل المقال صورة طفل فلسطيني أو شبل يحمل بندقية وعلى رأسه خوذة وهو على صغر سنه يدخن سيجارة . وطبعاً مجرد الصورة بهذا الشكل هو محاولة لتشويه صورة الطفل الفلسطيني . وهم بهذه الصورة يريدون ان يقولوا للعالم بأن الطفل الفلسطيني ليس لديه أي تربية أخلاقية ، وعندما يقارن هذا الطفل بأطفال الغرب فمن الطبيعي أن يشمئز الانسان الغربي من هذا المنظر .(٧٠)

وقد ذكر مؤلفا كتاب (العلاقة الحميمة) (جورج بول ودوجلاس بول) أن بعض الممارسات التي قام بها بعض فصائل المقاومة الفلسطينية في الستينات أثّر في إيجاد جو عدائي ضد المنظمة والفلسطينيين في الولايات المتحدة ، لأن (إيباك) استغلت تلك الممارسات من أجل تشويه صورة الفلسطينيين . على أساس أنهم ارهابيون يريدون رمي اليهود في البحر وتدمير الديموقراطية في إسرائيل . إلاّ أنه بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان في عام ١٩٨٢ ، ومجازر صبرا وشاتيلا ، وفي ما بعد الانتفاضة ، واعلان المنظمة عن استعدادها الاعتراف باسرائيل ، كل تلك التطورات ساهمت في تحسين الموقف الفلسطيني لدى الرأي العام الأمريكي .(٧١)

٣.٥.الاعلام الأمريكي واتهام السودان بالإرهاب:

ينظر إلى السودان اليوم ، كواحدة من الدول العربية المصنّفة على قائمة الدول التي تحتضن الارهاب وتشجعه الأمر الذي جعلها معرضة للحصار وفرض العقوبات بحجة قيامها بتدريب الإرهابيين وإيجاد معسكرات لهم .

وقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية تحميل السودان وزر عملية الانفجار الكبرى التي تعرض لها مبنى التجارة الدولية في نيويورك في مستهل عام ١٩٩٣ . وقد نفى السودان صلته بذلك .

كما نفى حسن الترابي ، زعيم الجبهة القومية الاسلامية في السودان ، أن تكون السودان قد قامت بتدريب إرهابيين دوليين ، وأكّد في حديث مع شبكة سي .إن .إن (C.N.N.) الاخبارية الأمريكية أن الأمريكان أنفسهم هم الذين قاموا بتدريب هؤلاء الإرهابيين في باكستان وأفغانستان ضد الروس .

أمّا (غازي صلاح الدين) وزير الدولة السوداني فيرى أن قرار الولايات المتحدة بإدراج السودان ضمن قائمة الدول الارهابية إنما هو قرار سياسي أرادت به الولايات المتحدة أن يسهم في تشويه صورة السودان وأضاف : إن الولايات المتحدة هي التي تدعم الارهاب لأنها تدعم الكيان الصهيوني ، وهو أكبر جهة إرهابية في العالم وقرار الولايات المتحدة بنظر صلاح الدين ، سيكون مدخلاً لـ (فتح أبواب الصراع الحضاري والثقافي بينها وبين السودان) . ذلك

لأنها ، كما يجمل الرئيس السوداني : استهدفت الاسلام ، فالولايات المتحدة ، في رأيه ، (تريد أن تربط بين الإسلام والارهاب) مؤكداً (أن أسباب استهداف أمريكا السودان هو الإسلام) .(٧٢)

٤.٥.الاعلام الأمريكي واتهام ليبيا بالإرهاب:

كانت ليبيا من أكثر الدول العربية تعرضاً لهجوم الاعلام الأمريكي تحت دعاوي الارهاب والتحريض عليه ، خاصة في عهد الرئيس (رونالد ريغان) .

ويشير (جريجوري نوكس) إلى أن إدارة ريغان وليست وسائل الاعلام الخبرية ، هي التي جعلت من معمر القذافي وليبيا قصة إخبارية . إذ أنه لولا جهود الادارة لإبقاء ليبيا في الأخبار لوجهت وسائل الإعلام إليها إهتماماً أقل بالتأكيد . وما جعل معالجة الإدارة لهذه القضية أمراً يثير الاشمئزاز ، إنها ركزت سخطها على ليبيا لتحويل الأنظار عن فشلها بالتعامل بصورة فعالة مع مشكلات إرهاب أكثر خطورة في أماكن أخرى . كما أن الارهاب أصبح ذريعة لمعاقبة القذافي عن أنشطة أخرى لم تكن إدارة ريجان تحبها . (٧٣)

ففي بدايات عهد الرئيس ريغان الذي تسلم زمام الحكم عام ١٩٨٠ وبعد ستة أشهر من هذا التاريخ كان الإعلام الأمريكي يطلق على القذافي بأنه أخطر رجل في العالم . وقد كان الارهاب صفة أساسية تلصق بـ ليبيا خاصة في الخطاب «الريغاني» . ولم تكن هذه اللغة السياسية مقتصرة على ريغان بصفة شخصية فقط بل إنها كانت لغة يستخدمها العاملون في إدارته وكذلك الأشخاص البارزون في الحياة السياسية والاعلامية الذين جعلوا من ليبيا رمزاً لقيادة الارهاب في العالم (٧٤)

وقامت إدارة ريغان باختراع سيناريو قامت وسائل الاعلام الأمريكية بترويجه حول فرقة الاغتيال التي قامت ليبيا بإرسالها إلى داخل الولايات المتحدة في ٣٠ نوفمبر ١٩٨١ وأن هذه الفرقة ستقوم باغتيال الرئيس وضرب طائرة الرئيس وقصف الحرس الرئاسي بالصواريخ أو استخدام الأسلحة من مسافات قريبة . وإن لم تفلح في قتل الرئيس تقوم هذه الفرقة بالاعتداء على بقية المسؤولين الأمريكيين وعائلة الرئيس نفسه . وأصبحت أخبار هذه الفرقة المزعومة حديث وسائل الاعلام وشغلها الشاغل .(٧٥)

وحظيت هذه القصة بالتغطيات الصحفية الدرامية المثيرة ، كل ذلك بهدف خدمة السياسة الأمريكية ومصالحها سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي ، والتي نتج عنها حملة صحفية استغرقت خمسة أسابيع خضعت فيها ليبيا للهجوم الصحفي المتواصل والاتهام بالارهاب دون أن تستطيع الادارة الأمريكية تقديم أية أدلة تسند هذه الاتهامات ، وكانت النتيجة فرض العقوبات الاقتصادية على ليبيا .(٧٦)

وكان من أهداف هذه القصص الأخبارية المختلقة تدمير صورة ليبيا في العالم .

وكما قال (سول لينوفيتز) مبعوث الرئيس كارتر إلى الشرق الأوسط : لقد وجدت إدارة ريغان أنه مما يلائم هدفها أن تجعل ليبيا تبدو باعتبارها (بعبع) الشرق الأوسط ، ورمزاً للارهابي الشرير .(٧٧) وشرح (جيوفري كيمب) خبير الشرق الأوسط بمجلس الأمن القومي خلال السنوات الأربع الأولى من عمل الإدارة ، لماذا وقع الاختيار على القذافي هدفاً للهجوم الأمريكي بقوله : إن ليبيا هدف أسهل من إيران ، وأعتقد أنه بعد الانتخابات مباشرة ، كان هناك شعور عام بأن الولايات المتحدة قد تعرضت للاذلال ، وأنه لا بد من عمل شيء ما لإعادة بعض الاحساس بالوضع الأمريكي في العالم ، وأن توجيه ضربة عنيفة إلى إيران لم يكن أمراً وارداً بسبب مشكلات الامداد والتموين العسكري . أما ليبيا فقد كانت ، من ناحية أخرى ، مستوفاة تماماً لحدوث ردّ أمريكي ، وكان هناك قضية جاهزة لذلك في عملية المواجهة بخليج سدرة .(٧٨)

وذلك عندما أعلنت ليبيا من جانب واحد ، وقتذاك ، أن خليج سدرة مياه ليبية إقليمية . وقد شن الأمريكيون هجوماً جوياً في خليج سرت ضد الطائرات الليبية اعتبره ريغان «رسالة إلى أعداء الحرية في العالم» .(٧٩)

وبمراجعة تقارير أخبار وكالة الاسوشيتد برس لعام ١٩٨١ . يجد المرء أنه في خلال العام الأول من رئاسة ريجان ، كان من النادر أن يمر أسبوع بدون قصة رئيسية تنتقد القذافي ، يكون مصدرها الإدارة وكانت «الأسوشيتد برس» ومنافذ الأخبار الأخرى تبرز القصص في أغلب الأحيان دون تساؤل كثير وكان بين هذه القصص سيل من الاتهامات ضد القذافي ، تستهدف تأكيد وصف الإدارة بأن ليبيا دولة بلا قانون .

ثمّ أكد الرئيس ريجان في ٢ اكتوبر خبراً نشرته (الواشنطن بوست) بأنه أجاز حملة

سرية لتشويه المعلومات ضد القذافي . ووفقاً لريجان فإن هذه الحملة تستهدف جعل القذافي يذهب إلى فراشه كل ليلة وهو يتساءل عما قد نفعله لردعه عن مساندة الإرهاب . وقد قال جورج شولتز من ناحيته : إنه لا يعرف شيئاً عن أي قرار يجعل الناس ينطلقون بقول أكاذيب لوسائل الاعلام ، أما إذا كانت هناك وسائل تستطيع أن نثير بها أعصاب القذافي فلماذا لانستخدمها ، وبصراحة ، ليست هناك أية مشكلات بشأن شن حرب نفسية ضد القذافي .(٨٠)

وقد اعترف كيمب وهيوز وآخرون بأنه كانت هناك دوافع عديدة للتركيز على القذافي . وفي عام ١٩٨٦ كانت الولايات المتحدة قد أصيبت بعدة نكسات كبرى على أيدي الارهابيين ، بلا (انتقام سريع أو فعال) كما كان ريجان قد وعد . حيث لقي أكثر من ٣٠٠ أمريكي حتفهم في لبنان ، واحتجزت رهائن هناك لفترات أطول مما عاناه الأمريكيون في إيران ، وكانت أعمال الإرهابيين الاستفزازية مثل خطف طائرة شركة الخطوط الجوية العالمية T W A في بيروت ، وحادث القتل على السفينة اكيلي لورو ، قد روعت الجمهور الأمريكي ، ومن حسن حظ إدارة ريجان أن القذافي كان هناك للمساعدة (في وضعنا على الطريق) .(٨١)

وكانت الادارة الأمريكية قد شنت هجوماً جوياً على ليبيا في إبريل عام ١٩٨٦ تحت شعار مكافحة الإرهاب الليبي ومعاقبة القذافي .

٦- الخلاصة

توصل الباحث في دراسته إلى أن الصورة العربية في وسائل الإعلام الأمريكية تعرضت وما تزال لكافة أشكال التجريح والتشويه استناداً إلى عدد من الأسباب التاريخية والدينية والسياسية . وأن هذا التشويه تتم ممارسته في كافة وسائل الاعلام الأمريكية .

وقد استفاد الباحث من جهود الباحثين ودراساتهم السابقة التي أمدّت هذا البحث بالكثير من عناصر المادة والأفكار التي طرحها ، وكان لها دورها في التعريف بهذه القضية التي فرضت نفسها على الاعلام العربي وعدد من المثقفين والمفكرين العرب في العقود الثلاثة الأخيرة .

وبيّن البحث العلاقة الوثيقة بين أساليب الاعلام الأمريكي في التعامل مع الصورة العربية

وبين طريقة عمل تلك الوسائل الاعلامية التي تهتم بالاثارة واطلاق الأحكام المتسرعة .

وقدّم البحث جوانب النظرة الأمريكية للاسلام استناداً إلى فكر بعض المستشرقين وأطروحاتهم القائمة على العداء للاسلام والتهجّم عليه كدين يوصف من جانبهم بالاستبداد والعداء للمسلمين الذين يوصفون بالتبلّد والذهنية المتخلفة .

وتم ايضاح الدور الذي لعبته الحركة الصهيونية في تشويه الصورة العربية خاصة وأن هذه الحركة لها أساليبها العديدة في التغلغل والسيطرة على أجهزة الاعلام الأمريكية تسندها قوة اللوبي اليهودي داخل المرافق السياسية والاعلامية والمالية في الولايات المتحدة .

وعرضت الدراسة للكيفية التي تعالج بها الصورة العربية في الوسائل الاعلامية المختلفة ومنها الصحافة المكتوبة والرسوم الكاريكاتورية والبرامج التلفزيونية والمسلسلات والسينما بما تنتجه من أفلام تقوم عل تشويه الصورة العربية ورميها بتهم الارهاب والتعصّب إلخ .

وقد أشارت الدراسة إلى عدد من الأفلام السينمائية وبيّنت الفكرة الرئيسية التي تلح عليها هذه الأفلام وخطورة تأثيرها بما تحمله من مضامين مسيئة للعرب والمسلمين .

وخص البحث مسألة الارهاب التي يثيرها الاعلام الأمريكي متهماً العرب والمسلمين بها بعدد من الصفحات لأنها تعتبر المقولة الاكثر بروزاً وإلحاحاً في وسائل الاعلام الأمريكية خاصة وأن هذه التهم تطلق جزافاً لخدمة أغراض وسياسات معينة وقد شكلت حادثة انفجار أوكلاهوما دليلاً على هذه التغطية الاعلامية المتسرعة والمتجنّية على العرب مما عرضهم لحملات الكراهية والاتهام بدون أدلة .

وكذلك ما كان يلصق بالكفاح الفلسطيني المشروع من تهم الارهاب وتبرير اشكال العدوان الإسرائيلي بصفته رداً مبرراً على «الارهاب» الفلسطيني .

وأشار البحث إلى اتهام الاعلام الأمريكي للسودان بالارهاب وإيواء الارهابيين خاصة منذ تسلم الجبهة القومية الاسلامية الحكم في السودان .

وقدم البحث جملة من الحقائق التي أعلن عنها بعض الساسة والإعلاميين الأمريكيين حول اختراع القصص والمعلومات عن «الارهاب» الليبي لتبرير الحملات الاعلامية ضد ليبيا وكذلك الهجمات العسكرية التي تمت ضدها في عهد إدارة الرئيس رونالد ريغان .

الهوامش

١ ـ علي عجوة ، العلاقات العامة والصورة الذهنية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٣ ، ص٢٩ .

٢ ـ وكالة الإعلام الأمريكية ، نشرة بعنوان : دور وسائل الاعلام ، بدون تاريخ ، ص٩ ـ ١٠ .

٣ ـ وكالة الاعلام الأمريكية ، المصدر السابق ، ص٦ .

٤ ـ الحبيب الإمام ، صناعة الثقافة والاحتكار العالمي ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٤٣٤ ، يناير ١٩٩٥ ، ص٣٣ .

٥ ـ فاروق أبو زيد ، انهيار النظام الاعلامي الدولي ، القاهرة ، مطابع الأخبار ، ١٩٩١ ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

٦ ـ راسم الجمال ، دراسات في الاعلام الدولي : مشكلة الاختلال الاخباري ، جدة ، دار الشروق ، ١٩٨٥ ، ص٨٤ .

٧ ـ لوك دوفالس ، ندوة الفيصل الفكرية في فرنسا : (الدراسات العربية الاسلامية الواقع والتطلعات) ، مجلة الفيصل السعودية ، العدد ٢١٤ ، سبتمبر / اكتوبر ١٩٩٤ ، ص١٤

٨ ـ الاعلام الغربي والعرب ، أبحاث ومناقشات ندوة الصحافة الدولية بلندن ، ١٩٧٩ ، من منشورات وزارة الاعلام والثقافة بدولة الامارات العربية المتحدة ، مداخلة (هشام شرابي) ، ص١٩٨ .

٩ ـ السيد يسن ، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر ، بيروت ، دار التنوير ، ١٩٨١ ص ٧٥ ـ ٧٧ .

١٠ ـ الاعلام الغربي والعرب ، المصدر السابق ، مداخلة (ادمون غريب) ، ص٨٨ .

١١ ـ ابراهيم كروان ، المعضلات العربية في التسعينات ، السياسة الدولية ، العدد ١١٧ ، يوليو ١٩٩٤ ، ص١٠ .

١٢ ـ نقلاً عن : شفيق ناظم الغبرا ، نقد العقل العربي المغامر : حالة أزمة الخليج ، السياسة الدولية ، ١١٩ ، يناير ١٩٩٥ ، ٢٧ ـ ٢٨ .

١٣ ـ ميلود المهذبي وأحمد دياب ، اتحاد المغرب العربي والمجموعة الأوروبية في استراتيجية العلاقات الدولية ، المستقبل العربي ، ١٨٤ ، حزيران ١٩٩٤ ، ص٧٣ .

١٤ ـ عودة الاستعمار من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج ، مجموعة من المؤسين ، مقال (أنسي الحاج) ، لندن / قبرص ، رياض الريّس للكتب والنشر ، ١٩٩١ ، ص ١٧٢ .

١٥ ـ جاك شاهين ، العربي كما تراه هوليود ، نشرة اللجنة الأمريكية العربية لمكافحة التمييز ، نوفمبر ١٩٩٤ ، ص٥ .

١٦ ـ ميخائيل سليمان ، نظرة الأمريكيين إلى العرب وتأثير ذلك على العرب في الولايات المتحدة ، المستقبل العربي ، ١٧٧ ، نوفمبر ١٩٩٣ ، ص٩٦ ـ ٩٧ .

١٧ ـ أحمد سعيد نوفل ، عرض كتاب : العلاقة الحميمة ـ تورط أمريكا في إسرائيل ١٩٤٧ إلى اليوم ، المستقبل العربي ، ١٨٥ ، يوليو ١٩٩٤ ، ص١٤٢ .

18 - Jannette L.Dates & William Barlow, Split Image, Howard University Press, Washington. D.C.1990, P.246.

١٩ ـ الاعلام الغربي والعرب ، مصدر سابق ، ص١٩٩ ـ ٢٠٠ .

٢٠ ـ المصدر السابق ، مداخلة (ادوارد سعيد) ، ص١٣٠ ـ ١٣١ .

٢١ ـ حلمي ساري ، صورة العرب في الصحافة البريطانية ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٨ ، ص٦٨ ـ ٦٩ .

٢٢ – فهمي جدعان ، الطريق إلى المستقبل ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٩٦ ، ص١١٩ .

٢٣ ـ محمد الدعمي ، مرآة الاستشراق وخصائص الوعي الأمريكي بالشرق العربي الإسلامي ، المجلة الثقافية (الجامعة الاردنية) العدد ٣٦ ، اكتوبر ١٩٩٥ ، ص١١ .

٢٤ ـ برنارد لويس وادوارد سعيد ، الاسلام الأصولي في وسائل الاعلام الغربية من وجهة نظر امريكية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٩٤ ، ص٦٧ .

٢٥ ـ معن بشور ، العلاقة بين العروبة والاسلام : إشكالية التكامل والتمايز ، المستقبل العربي ، ١٨٣ ، أيار ١٩٩٤ ، ص٤٦ .

٢٦ ـ عبد المالك سالمان ، حوار مع (جلال أمين) : قضايا وتحديات أمام الفكر العربي ، المستقبل العربي ، ١٩٨ ، أغسطس ١٩٩٥ ، ص١١٣ .

٢٧ ـ ابراهيم العجلوني ، التراث العربي وواقعة الانتداب الكوني ، المجلة الثقافية ، اكتوبر ١٩٩٥ ، ص٢٠ ـ ٢١ .

٢٨ ـ معن بشور ، مصدر سابق ، ص٤٦ .

٢٩ ـ محمد سيد محمد ، الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٩٤ ، ص١٠١ .

٣٠ ـ الاعلام الغربي والعرب ، سابق ، ص٢٠١ .

31 - Michael C.Hudson & Ronald G.Wolfe, The American Media & The Arabs, George Town University, 1980, P.10.

٣٢ ـ بول فندلي ، الخداع ، ترجمة : محمود يوسف زايد ، بيروت ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ١٩٩٣ ، ص٥٣ .

٣٣ ـ الاعلام الغربي والعرب ، سابق ، ص٩٧ .

٣٤ ـ محمد عبد العزيز ربيع ، توجهات الاعلام الصهيوني على الساحة الأمريكية ، مجلة العلوم الاجتماعية ، المجلد١٥ ، العدد ١ ، ١٩٨٧ ، ص٢٧٠ ـ ٢٨٨ .

35 - Michael C.Hudson & Ronald Q.Wolfe, op. cit, P.56.

٣٦ ـ بول فندلي ، مصدر سابق ، ص٨٦ .

٣٧ ـ بول فندلي ، سابق ، ص١١٥ ـ ١١٦ .

٣٨ ـ جمال نصار ، مداخلة في (ندوة الدستور في واشنطن) حول العلاقات الأمريكية الإسرائيلية ، الدستور ، ١٩٩٥/١٢/٢٤ .

٣٩ ـ فكتور شلهوب ، المصدر السابق ، ندوة الدستور .

٤٠ ـ يوسف الحسن ، البعد الديني في السياسة الأمريكية ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٠ ، ص٩ .

٤١ ـ يوسف الحسن ، المصدر السابق ، ص١١٥ .

٤٢ ـ ميخائيل سليمان ، صورة العرب في عقول الأمريكيين ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٧ ، ص٤٦ .

٤٣ ـ المرجع السابق ، ص٥٤ .

٤٤ ـ السيد يسن ، مرجع سابق ، ص٧٥ .

٤٥ ـ تحسين بشير ، النشاط الاعلامي العربي في الولايات المتحدة ، بيروت ، مركز الأبحاث

الفلسطيني ، ١٩٦٩ ، ص٢٢ .

٤٦ ـ ميخائيل سليمان ، مرجع سابق ، ص٧٧ .

٤٧ ـ نقلاً عن علي عجوة ، مرجع سابق ، ص١٣٦ .

٤٨ ـ الاعلام الغربي والعرب ، مرجع سابق ، ص١٠٠ .

٤٩ ـ المرجع السابق ، ص٦٨ .

٥٠ ـ المرجع السابق ، ص٢٦ .

٥١ ـ جون كوندري ، سارق الوقت : التلفزيون والطفل الأمريكي ، ترجمة : رضا أحمد ، مجلة الثقافة العالمية ، الكويت ، العدد ٦٦ ، السنة ١١ ، سبتمبر ١٩٩٤ ، ص١٢١ .

٥٢ ـ جيمس ف . هوج الابن ، انتشار وسائل الاعلام ، ترجمة : حامد يوسف سليمة ، مجلة الثقافة العالمية ، الكويت ، العدد ٧١ ، السنة ١٢ ، يوليو ١٩٩٥ ، ص١٢٩ ـ ١٣٠ .

٥٣ ـ الاعلام الغربي والعرب ، سابق ، ص٢٨ .

54 - The American Media & The Arabs, op.cit. P. 60 - 61.

٥٥ ـ هشام شرابي ، مقدمات لدراسة المجتمع العربي ، بيروت ، دار الطليعة ، ط٤ ، ١٩٩١ ، ص٧٦ .

٥٦ ـ محمد عباس نور الدين ، الخلفية الايديولوجية للاعلام الغربي ، المستقبل العربي ، ١٩٩ ، سبتمبر ١٩٩٥ ، ص٧٦ .

٥٧ ـ شوقي رافع ، هوليود الحلم واللحم ، العربي الكويتية ، ٤٣٩ ، يونيو ١٩٩٥ ، ص٩٢ .

٥٨ ـ نشرة اللجنة الأمريكية العربية لمكافحة التمييز ، سابق ، ص٦ ـ ٧ .

٥٩ ـ محمد سيد محمد ، مرجع سابق ، ص١٠٧ .

٦٠ ـ نشرة اللجنة الأمريكية العربية ، سابق ، ص٧ .

٦١ ـ المصدر السابق ، ص٩ .

٦٢ ـ أحمد رأفت بهجت ، الإسلام والمسلمون على شاشة السينما العالمية ، مجلة العربي الكويتية ، ٤٣٩ ، يونيو ١٩٩٥ ، ص٨٧ .

٦٣ ـ محمد عباس نورالدين ، مصدر سابق ، ص٧٨ .

٦٤ ـ علي وطفة ، التحديات الإعلامية في الوطن العربي : بحث في مضمون الدعاية الإعلامية لتلفاز «الشرق الأوسط» ، المستقبل العربي ، ١٨٧ ، سبتمبر ١٩٩٤ ، ص٧١ .

٦٥ ـ المستقبل العربي ، ١٨٤ ، يونيو ١٩٩٤ ، المؤتمر القومي العربي الخامس ، بيان إلى الأمة ، ص١٥٤ .

٦٦ ـ نبيل الشريف ، أبشع أنواع الإرهاب ، الدستور بتاريخ ١٩٩٦/٣/١٢ .

٦٧ ـ حنين راي ، التغطية الإعلامية الأمريكية لانفجار اوكلاهوما ، ترجمة يوسف الشولي ، الدستور بتاريخ ١٩٩٦/٣/٧ .

٦٨ ـ أحمد عبد الملك ، أوكلاهوما . . بين التعصب وحرية الإعلام ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٤٤٢ ، سبتمبر ١٩٩٥ ، ص٣٥ .

٦٩ ـ حنين راي ، المصدر السابق .

٧٠ ـ محمود اللبدي ، أساليب الإعلام الصهيوني ، بيروت ، منشورات فلسطين المحتلة ، ١٩٨٢ ، ص٩٢ ـ ٩٣ .

٧١ ـ أحمد سعيد نوفل ، مصدر سابق ، ص١٤٢ ـ ١٤٣ .

٧٢ ـ عبد السلام البغدادي ، السياسة الأمريكية تجاه السودان ، المستقبل العربي ، ٢٠٦ ، ابريل ١٩٩٦ ، ص٤٣ .

٧٣ ـ سيمون سرفاتي ، وسائل الإعلام والسياسة الخارجية ، ترجمة : محمد مصطفى غنيم ، القاهرة ، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية ، ١٩٩٥ ، ص٦٨ .

74 - ThemBa Sono, The VILIFIED Revolution, Progress Press Publications, Langley Park. Maryland, U.S.A, 1985, P. 36-37.

75 - Ibid, P. 38.

76 - CECIL Black and Saleh Abu Osba, Libya In Perspective, P. 108.

٧٧ ـ سيمون سرفاتي ، المرجع السابق ، ص٧٠ .

٧٨ ـ المرجع السابق ، ص٧٢ .

79 - Z. Abbas and N. Hyman, Responsible Reporting, Volume four, Highclere Limited, Jersey, C.I., p. 46.

٨٠ ـ سيمون سرفاتي ، سابق ، ص٧٢ ـ ٧٤ .

٨١ ـ المرجع السابق ، ص٧٧ .

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية

١ ـ إبراهيم كروان : المعضلات العربية في التسعينات ، السياسة الدولية ، العدد ١١٧ ، يوليو ١٩٩٤ .

٢ ـ إبراهيم العجلوني : التراث العربي وواقعة الانتداب الكوني ، المجلة الثقافية ، اكتوبر ١٩٩٥ .

٣ ـ أحمد سعيد نوفل : العلاقة الحميمة ـ تورط أمريكا في إسرائيل ١٩٤٧ إلى اليوم ، المستقبل العربي ، ١٨٥ ، يوليو ١٩٩٤ .

٤ ـ أحمد رأفت بهجت : الاسلام والمسلمون على شاشة السينما العالمية ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٤٣٩ ، يونيو ١٩٩٥ .

٥ ـ أحمد عبد الملك : أوكلاهوما . . . بين التعصب وحرية الاعلام ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٤٤٢ ، سبتمبر ١٩٩٥ .

٦ ـ الحبيب الامام : صناعة الثقافة والاحتكار العالمي ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٤٣٤ ، يناير ١٩٩٥ .

٧ ـ السيد يسن : الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر ، بيروت ، دار التنوير ، ١٩٨١ .

٨ ـ الاعلام الغربي والعرب : أبحاث ومناقشات ندوة الصحافة الدولية بلندن١٩٧٩ ، من منشورات وزارة الثقافة والاعلام بدولة الامارات العربية المتحدة .

٩ ـ المستقبل العربي ، العدد ١٨٤ ، يونيو ١٩٩٤ ، المؤتمر القومي العربي الخامس ، بيان إلى الأمة .

١٠ ـ برنارد لويس وإدوارد سعيد : الإسلام الأصولي في وسائل الاعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٩٤ .

١١ ـ بول فندلي : الخداع ، ترجمة : محمود يوسف زايد ، بيروت ، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع ، ١٩٩٣ .

١٢ ـ تحسين بشير : النشاط الاعلامي العربي في الولايات المتحدة ، بيروت ، مركز الأبحاث الفلسطيني ، ١٩٦٩ .

١٣ ـ جاك شاهين : العربي كما تراه هوليود ، نشرة اللجنة العربية الأمريكية لمكافحة التمييز ، نوفمبر ١٩٩٤ .

١٤ ـ جمال نصار : العلاقات الأمريكية الإسرائيلية ، ندوة الدستور في واشنطن ، الدستور ١٩٩٥/١٢/٢٤ .

١٥ ـ جون كوندري : سارق الوقت (التلفزيون والطفل الأمريكي) ، ترجمة : رضا أحمد ، مجلة الثقافة العالمية ، الكويت ، العدد ٦٦ ، السنة ١١ ، سبتمبر ١٩٩٤ .

١٦ ـ جيمس ف . هوج الابن : انتشار وسائل الاعلام ، ترجمة : حامد يوسف سليمة ، مجلة الثقافة العالمية ، الكويت ، العدد ٧١ ، السنة ١٢ ، يوليو ١٩٩٥ .

١٧ ـ حلمي ساري : صورة العرب في الصحافة البريطانية ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٨ .

١٨ ـ حنين راي : التغطية الاعلامية الأمريكية لانفجار اوكلاهوما ، ترجمة : يوسف الشولي ، الدستور بتاريخ ١٩٩٦/٣/٧ .

١٩ ـ راسم الجمال : دراسات في الإعلام الدولي (مشكلة الإختلال الإخباري) ، جدة ، دار الشروق ، ١٩٨٥ .

٢٠ ـ سيمون سرفاتي : وسائل الاعلام والسياسة الخارجية ، ترجمة : محمد مصطفى غنيم ، القاهرة ، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية ، ١٩٩٥ .

٢١ ـ شفيق ناظم الغبرا : نقد العقل العربي المغامر (حالة أزمة الخليج) ، السياسة الدولية ، العدد ١١٩ ، يناير ١٩٩٥ .

٢٢ ـ شوقي رافع : هوليود الحلم واللحم ، مجلة العربي الكويتية ، العدد ٤٣٩ ، يونيو ١٩٩٥ .

٢٣ ـ عبد السلام البغدادي : السياسة الأمريكية تجاه السودان ، المستقبل العربي ، العدد ٢٠٦ ، إبريل ١٩٩٦ .

٢٤ ـ عبد المالك سالمان : حوار مع (جلال أمين) : قضايا وتحديات امام الفكر العربي ، المستقبل العربي ، العدد ١٩٨ ، اغسطس ١٩٩٥ .

٢٥ ـ عل عجوة : العلاقات العامة والصورة الذهنية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٣ .

٢٦ ـ علي وطفة : التحديات الاعلامية في الوطن العربي : بحث في مضمون الدعاية الاعلامية لتلفاز الشرق الأوسط ، المستقبل العربي ، العدد ١٨٧ ، سبتمبر ١٩٩٤ .

٢٧ ـ فاروق أبو زيد : انهيار النظام الاعلامي الدولي ، القاهرة ، مطابع الأخبار ، ١٩٩١ .

٢٨ ـ فكتور شلهوب : العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية ، ندوة الدستور في واشنطن ، الدستور بتاريخ ١٩٩٥/١٢/٢٤ .

٢٩ ـ فهمي جدعان : الطريق إلى المستقبل ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٩٦ .

٣٠ ـ لوك دوفالس : ندوة الفيصل الفكرية في فرنسا (الدراسات العربية الإسلامية الواقع والتطلعات) ، مجلة الفيصل السعودية ، العدد ٢١٤ ، سبتمبر / اكتوبر ١٩٩٤ .

٣١ ـ مجموعة من المؤلفين : عودة الاستعمار من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج ، لندن ، رياض الريّس للكتب والنشر ، ١٩٩١ .

٣٢ ـ محمد الدعمي : مرآة الاستشراق وخصائص الوعي الأمريكي بالشرق العربي الاسلامي ، المجلة الثقافية ، العدد ٣٦ ، اكتوبر ١٩٩٥ .

٣٣ ـ محمد سيد محمد : الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٩٤ .

٣٤ ـ محمد عبد العزيز ربيع : توجهات الاعلام الصهيوني على الساحة الأمريكية ، مجلة العلوم الاجتماعية ، المجلد ١٥ ، العدد ١ ، ١٩٨٧ .

٣٥ ـ محمد عباس نور الدين : الخلفية الايديولوجية للاعلام الغربي ، المستقبل العربي ، العدد ١٩٩ سبتمبر ١٩٩٥ .

٣٦ ـ محمود اللبدي : اساليب الاعلام الصهيوني ، بيروت ، منشورات فلسطين المحتلة ، ١٩٨٢ .

٣٧ ـ معن بشور : العلاقة بين العروبة والاسلام ـ إشكالية التكامل والتمايز ، المستقبل العربي ، العدد ١٨٣ ، أيار / مايو ١٩٩٤ .

٣٨ ـ ميخائيل سليمان : نظرة الأمريكيين إلى العرب وتأثير ذلك على العرب في الولايات المتحدة ، المستقبل العربي ، العدد ١٧٧ ، نوفمربر ١٩٩٣ .

٣٩ ـ ميخائيل سليمان : صورة العرب في عقول الأمريكيين ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٧ .

٤٠ ـ ميلود المهذبي وأحمد دياب : اتحاد المغرب العربي والمجموعة الأوروبية في استراتيجية العلاقات الدولية ، المستقبل العربي ، العدد ١٨٤ ، حزيران ١٩٩٤ .

٤١ ـ نبيل الشريف : أبشع أنواع الارهاب ، الدستور بتاريخ ١٩٩٦/٣/١٢ .

٤٢ ـ هشام شرابي : مقدمات لدراسة المجتمع العربي ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٩١ .

٤٣ ـ وكالة الاعلام الأمريكية : نشرة بعنوان : دور وسائل الاعلام ، بدون تاريخ .

٤٤ ـ يوسف الحسن : البعد الديني في السياسة الأمريكية ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٠ .

ثانيا : المصادر الأجنبية

45 - CECIL BLACK & SALEH ABU OSBA: Libya In Perspective.

46 - JANNETTE L.DATES & WILLIAM BARLOW: Split Image. Howard University Press, Washington D.C. 1990.

47 - MICHAEL C.HUDSON & RONALD G.WOLFE: The American Media & The Arabs. George Town University, 1980.

48 - THEMBA SONO : The VILIFIED Revolution, Progress Press Publications, Langley Park, Maryland, U.S.A. 1995.

49 - Z.ABBAS & N.HYMAN : Responsible Reporting, Volume Four. Highclere Limited Jersy.

تقويم البرامج التدريبية بوحدات القطاعين الحكومي والخاص في الأردن

د. نادر أحمد أبو شيخة
د. مروة كامل أحمد
جامعة فيلادلفيا - عمّان

ملخص

استهدفت الدراسة التعرف على أثر الخصائص الوظيفية والشخصية للمتدرب على كل مما يلي :

- تقبل الرؤساء المباشرين للمقترحات المقدمة من قبل المتدربين فيما اكتسبوه من المشاركة في البرامج التدريبية .
- فلسفة المتدرب تجاه التدريب والمعلومات والمهارات والاتجاهات التي اكتسبها ، وانعكاس ذلك على سلوكه الوظيفي وأدائه في العمل .
- تطبيق أو عدم تطبيق ما اكتسبه المتدرب من البرامج التدريبية في بيئته التنظيمية .

استعانت الدراسة بقائمة استبيان صممت لهذه الغاية ، وتم توزيعها على عينة من المتدربين في وحدات القطاعين الحكومي والخاص في المملكة الأردنية الهاشمية .

جاءت النتائج لتعكس أثر الخصائص الوظيفية والشخصية للمتدرب على فلسفته تجاه التدريب ، وعلى المعلومات والمهارات والاتجاهات التي اكتسبها ، وانعكاساتها على سلوكه الوظيفي واداائه في العمل .

أوصت الدراسة بضرورة الأهتمام باختيار المتدربين ، للتأكد من مدى اشباع تلك البرامج لإحتياجاتهم التدريبية . كذلك ضرورة تهيئة المناخ التنظيمي الذي يسهم في اتاحة الفرصة للمتدرب لتطبيق ما اكتسبه من معلومات ومهارات .

Abstract

This study aims at Knowing the effect of the tainee's personal and functional characteristics on the following :

- The extent of the supervisor's acceptance of the recommendation and new ideas the trainee gained from the training programs.
- The philosophy of the trainee towards the training programs and the knowledge he/she gained from the training program.
- Teh application of what the trainee gained from the training programs.

A total of (140) trainees from public & private sectors in Jordan were selected to participate in this study. Data have been collected by a questionnaire especially designed for this study and the response rate was 87%. Means and analysis of variance were employed to analyze the data using SPSS.

The major findings of this study show that there is an effect of some variables on the trainee's attitude, skill, knowledge & philosophy.

The study provides some suggestions & recommendations to improve the effectiveness of the training programs in the Jordanian public & private sectors.

The study reveals positive impact of training on the traines's behavior and performance.

مقدمة

مشكلة الدراسة:

شهد العقدان الأخيران من هذا القرن زيادة كبيرة في جميع انواع برامج التدريب في الادارة لأسباب عديدة ، منها زيادة الوعي بأهمية التدريب بوصفه من الأدوات الضرورية للأداء الكفء للاعمال . وقد تمت ترجمة هذا الوعي بأنشاء معاهد ومراكز ومدارس للادارة ، واستحداث الادارات الخاصة في الوزارات والمصالح في الدول العربية . ومنها كذلك استحداث بعض نظم الخدمة المدنية (أو العامة) في الدول العربية نصا يقضي بأن اجتياز الموظف بنجاح لبرنامج تدريبي شرط اساسي من شروط الترقية . ومنها أيضاً زيادة حجم مجتمع الادارة العليا العربي . أذ يقرر «نبيل شعث» أن هذا المجتمع (بين مدير ادارة ورئيس ادارة) لا يقل عن اربعين الفا في سنة ١٩٨٧ ، وسيزيد هذا المجتمع خمسة وعشرين الفا أخرى سنة ٢٠٠٠ (شعث ، ١٩٨٨) .

ان هذه الزيادة في حجم نشاط التدريب الاداري وما تطلبه من انفاق الكثير من الوقت والجهد والمال يجعلنا نثير التساؤل التالي ، هل نمارس التدريب لمجرد التدريب وانه في محصلته النهائية مضيعة لوقت المدربين والمتدربين والادارة على السواء ، وهل من توافر أساس سليم لتقويم هذا النشاط ، بوصفه هدفا في ذاته ، أم هو وسيلة موجهة لصالح اهداف العمل ؟

بداية ، يمكن لنا أن نجترىء فنقول ، أن هذا التطور الذي تم تحقيقه في مجال التوسع في التدريب ، والوعي بأهميته ، وانفاق الجهود والأموال عليه لم يقابله تطور مماثل في اجراءات تقويم البرامج التدريبية ، اذ بقيت معظم برامج التدريب الاداري دون تقويم أو تم تقويمها بصورة سطحية لا تسمن ولا تغني من جوع ، إما لافتقار موضوع التقويم الى الاسس والمنهجية والمعايير العلمية المتطورة ، وأما لأعطاء اثر التدريب وزنا أكبر أو أصغر من غيره من العوامل الاخرى المؤثرة في أداء الموظف وكفاءة الاداء ، بسبب غياب الرابطة بين التدريب والعوامل الأخرى المتغيرة ، وإما لان تقويم الانشطة التدريبية أمر غير ضروري لانه على درجة عالية من القيمة وليس ثمة اختلاف على أهميته ، وأنه خدمة جيدة يجب توسيع نطاقها ليشمل اكبر عدد من العاملين ، وأنه يجب أن لا تثار الشكوك حول التدريب . ومنها كذلك كثرة

الصعوبات التي تصاحب التقويم وما تتطلبه عملية التقويم من مهارات . وربما أخيراً ، عدم رغبة الادارة في اضاعة الوقت في اختبار شيء برهن على نفسه أنه جيد .

ومهما يكن السبب في ذلك ، فان الادارة ما دامت ترى في التدريب أداة ادارية تطويرية هامة فأنها لا بد أن تتساءل عن كيفية استخدام هذه الاداة بنجاح ، وانها مدعوة الى استنباط الطرق والاساليب لتحسين التدريب واستخدامه في تحقيق اهدافها ومعرفة انعكاساته على كفاءة المنظمة .

اننا في الرأي مع الادارة لا نشكك بأهمية تدريب العاملين ، ولكن القول بأن التدريب أمر ضروري وجيد شيء ، وكيف يمكن جعله اجود شيء آخر . وانه ليس لدينا من الادلة التجريبية ما يكفي للقطع بما اذا كان التدريب على النحو الذي تم (ويتم) في الأردن يؤدي الى تحسين في أداء العاملين . وتتضاعف دهشتنا لغياب التقويم عن مسرح التدريب وغياب وجود اجراءات جديرة بالثقة في هذا المجال حينما نضع في اعتبارنا الاموال والجهود التي يتم انفاقها كل عام على التدريب .

وعلى ذلك ، فأن تقويم التدريب أمر ضروري في كل الظروف والاحوال ، ولكنه أشد ما يكون ضرورة في مثل هذه الظروف الاقتصادية الصعبة التي يمر بها الأردن ، الامر الذي اضحى من الضروري ترشيد الانفاق والافادة الكاملة من الموارد والجهود المبذولة . وحتى من وجهة النظر الادارية فأن التقويم عنصر اساسي في ترشيد العملية التدريبية بجميع مراحلها ، ذلك لان اية جهود للتحسين في هذه العملية يجب أن تستند الى تقويم الممارسات الحالية للتدريب .

وإذا كان التدريب في مجال الإدارة قد أصبح يحتل مكان الصدارة في أولويات الأردن لأنه السبيل إلى تغطية نواحي العجز والقصور في الكفايات الإدارية اللازمة لتحمل أعباء التنمية الاقتصادية الاجتماعية ، فإن تقويم نتائج هذا التدريب يمثل أهمية خاصة في دولة تعاني من ندرة نسبية في مواردها وتحتاج إلى تحقيق الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة ، وبالتالي ، فإن عملية تقويم التدريب سوف تثبت مدى جدوى التدريب ، ومن ثم مدى العائد الذي يتحقق من الأستثمار الذي أنفق فيه .

وفي ضوء هذا الفهم ، واستجابة لحاجة الجهاز الإداري الاردني للدراسات الميدانية في هذا المجال ، تجيء هذه الدراسة استكمالا ووصلا لجهودات ودراسات سابقة وحلقة أساسية من حلقات التنمية الإدارية المستهدفة .

أهمية الدراسة :

لهذه الدراسة أهميتها سواء على المستوى العلمي أو العملي ، فعلى المستوى العلمي ربما تدفع نحو دراسات أخرى في الموضوع ذاته ،* لا سيما أن الدراسات العربية في هذا المجال ما فتئت محدودة ، بحكم أن التدريب ما زال لدى الكثير من المؤسسات نشاطا مهمشاً ، أو أن النظرة إليه ما زالت قاصرة عن اعتباره استثمارا في أهم عنصر من عناصر الإدارة وهو الإنسان ، أو لغير ذلك من الأسباب .

وعلى المستوى العملي ، فإن التعرف على آثار التدريب في أداء العمل يسهم في تحسين كفاءة استخدام الموارد المتاحة ، بما ينعكس ايجابيا على المجتمع . وبكلمات أخرى ، انها توفر للقائد الإداري صورة شاملة عن كيفية استثماره لنشاط التدريب ومدى كفاءة هذا الاستثمار بواقعه الحالي ، كما أن النتائج التي قد تتمخض عنها هذه الدراسة يمكن الاهتداء بها في توجيه برامج التدريب في المنظمات وإرشادها إلى كيفية توظيف هذا النشاط بشكل فعال .

حدود الدراسة :

تعالج هذه الدراسة موضوع تقويم البرامج التدريبية بوحدات القطاعين الحكومي والخاص في الأردن من خلال الاختيار العشوائي لمجموعة من المتدربين التحقوا بدورات تدريب إداري في مركز الاستشارات والخدمات الفنية والدراسات بالجامعة الأردنية ، وذلك خلال الفترة ابريل (نيسان) ٩٥ - يوليو (تموز) ٩٦ . ولما كان هؤلاء المتدربون يعملون في أجهزة حكومية وخاصة ويمثلون مختلف المستويات الإدارية فإنه يمكن تعميم ما سيتم التوصل إليه من نتائج على مختلف وحدات القطاعين الحكومي والخاص في الأردن .

---

* منها على سبيل المثال : - تقويم تخطيط التدريب في وحدات القطاعين العام والخاص : دراسة مقارنة .
- تقويم تنفيذ التدريب في وحدات القطاعين العام والخاص : دراسة ومقارنة .

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة ، اضافة إلى التأكيد على أهمية تقويم التدريب بوصفه استثماراً في أهم عنصر من عناصر الإنتاج ، إلى التعرف على فلسفة ونظرة المتدرب ، سواء كان عاملاً في القطاع الحكومي أو الخاص تجاه التدريب ، والكشف عن أثر الخصائص الوظيفية والشخصية على فعالية أدائه . وبتحديد أكثر ، تهدف الدراسة إلى الاجابة عن الأسئلة التالية :

١ ـ هل للخصائص الوظيفية والشخصية تأثير على تقبل الرؤساء المباشرين للمقترحات المقدمة من قبل المتدربين فيما اكتسبوه من المشاركة في البرامج التدريبية ، واتاحة الفرصة لهم لتطبيقها ؟

٢ ـ هل للخصائص الوظيفية والشخصية تأثير على المتدرب من حيث فلسفته تجاه التدريب وروحه المعنوية وتفكيره الإبداعي ، أو من حيث معلوماته واتجاهاته نحو العمل ، أو من حيث تعامله مع زملائه ومع نتائج عمله ؟

٣ ـ هل للخصائص الوظيفية والشخصية دور في تطبيق أو عدم تطبيق ما اكتسبه من معلومات ومهارات واتجاهات في البرامج التدريبية ؟

فرضيات الدراسة :

تنطلق الدراسات من الفرضيات الاساسية التالية :

١ ـ للخصائص الوظيفية والشخصية تأثير على تقبل الرؤساء المباشرين للمقترحات المقدمة من قبل المتدربين فيما اكتسبوه من المشاركة في البرامج التدريبية واتاحة الفرصة لهم لتطبيقها .

٢ ـ للخصائص الوظيفية والشخصية تأثير على المتدرب سواء من حيث فلسفته تجاه التدريب ، وروحه المعنوية ، وتفكيره الابداعي ، أو من حيث تعامله مع زملائه ، او من حيث نتائج العمل الذي ينهض عليه .

٣ ـ للخصائص الوظيفية الشخصية دور كبير في تطبيق أو عدم تطبيق ما اكتسبه المشاركون من معلومات ومهارات واتجاهات في البرامج التدريبية .

منهجية الدراسة :

أداة الدراسة :

اعتمدت الدراسة في عرض ومناقشة النتائج على الاسلوب الوصفي التحليلي ، وذلك من خلال استبيان تم اعداده بشكل أولي من قبل الباحثين ، ثم قاما بعرضه ، لاختبار صدقه ، على عدد من خبراء الإدارة ، وقاما أيضا بتجريبه على بعض افراد عينة الدراسة الى أن تمت صياغته بشكل نهائي بعد تعديل بعض أجزائه ، وفق ما اشارت اليه ملاحظات الخبراء ، وأكدت عليه نتائج التطبيق العملي * .

وحرصاً من الباحثين على الحصول على اجابات صحيحة أو أقرب ما يكون اليها ، فقد تم التأكيد للمجيبين في صدر الأستبيان على أن ما يتم الإدلاء به من معلومات وآراء ستكون لها صفة السرية ، ولن تستخدم الا لأغراض البحث العلمي .

تم توزيع (١٨٠) استمارة على موظفين التحقوا بدورات تدريب إداري في مركز الإستشارات والخدمات الفنية والدراسات بالجامعة الأردنية من مختلف المستويات الوظيفية (إداريين وتنفيذيين) . وبلغ مجموع الإستمارات المستردة (١٤٠) إستمارة ، اعتمد منها لأغراض التحليل والمعالجة (١٢٣) إستمارة ، واستبعد الباقي لعدم صلاحيته .

تكون الإستبيان من جزأين رئيسيين ، تضمن الجزء الأول بيانات تتعلق بالخصائص الوظيفية والشخصية للموظف المتدرب ، وتضمن الجزء الآخر ثلاثة جوانب ، غطي الجانب الأول مدى تقبل الرؤساء للمقترحات ، ومدى اتاحتهم الفرصة للمتدربين لتطبيق ما اكتسبوه في البرنامج التدريبي (الفقرتان ٢,١) .

وتناول الجانب الثاني أثر البرامج التدريبية على فلسفة المتدرب تجاه التدريب وعلى روحه المعنوية وتفكيره الابداعي ومعلوماته واتجاهاته نحو العمل ، واثرها كذلك على تعامله مع زملائه ، ومع نتائج عمله (الفقرات ٣ ـ ١٣) .

وغطى الجانب الثالث والأخير العوامل المعيقة في تطبيق ما تم اكتسابه في البرامج التدريبية (الفقرات ١٤ ـ ١٨) .

---

* انظر الاستبيان المرفق .

المجيبون عن الإستبيان :

يوضح الجدول رقم (١) توزيع المجيبين حسب جهة العمل ، والمسمى الوظيفي ، والنوع (الجنس) ، والمؤهل العلمي ، والتخصص العلمي ، ومدة الخدمة ، وعدد برامج التدريب والتنمية الادارية التي تمت المشاركة فيها .

ولدى استعراض هذا الجدول ، يتضح ما يلي :

١ ـ يعمل (٢٩ر٠٪) من المجيبين في الوزارات والدوائر الحكومية ، ويعمل (٣٦ر٠٪) منهم في المؤسسات العامة المستقلة ، ويعمل (٣٥ر٠٪) من اجمالي العينة في وحدات القطاع الخاص .

٢ ـ تم التركيز بشكل خاص في اختيار عينة الدراسة على من هم في مستوى الادارة الوسطى من مديري الادارات ونوابهم ورؤساء الأقسام والشعب (٤٨ر٨٪) .

٣ ـ مثل حملة الدرجة الجامعية الاولي نسبة (٤٨ر٠٪) الى إجمالي العينة .

٤ ـ مثلت نسبة الذكور في عينة الدراسة (٥١ر٢٪) الى إجمالي العينة .

٥ ـ توزع المجيبون على تخصصات مختلفة ، مثلت تخصصات الادارة (٣٩ر٨٪) ، ومثلت تخصصات المحاسبة والاقتصاد (١٤ر٦٪) ، ومثلت التخصصات الأخرى نسبة (٤٥ر٦٪) من إجمالي العينة .

٦ ـ شارك (٧٢ر٤) من المجيبين في دورة تدريبية سابقة ، وشارك (١٣ر٨٪) من المجيبين في ثلاث دورات تدريبية سابقة ، وشارك (١٣ر٨٪) منهم في أربع دورات تدريبية سابقة فأكثر .

الأساليب الإحصائية المستخدمة :

اعتمد الباحثان في تحليل النتائج على استخراج النسب المئوية في تحليل الاجابة لكل سؤال حسب مقياس ليكارت الخماسي . وكذلك استخراج الاوساط الحسابية للاجابات والانحرافات المعيارية لها ، ومن ثم استخدام اختبار T لمعرفة أي من الفقرات ذات دلالة احصائية (على افتراض أن المحك هو ما يدل على تحققها بدرجة «غالبا» أو «دائما») . استخدم كذلك اختبار F عن طريق تحليل التباين الاحادي لمعرفة مستوى الدلالة في الفروق بين اجابات أفراد المجتمع ازاء كل فقرة حسب المتغير الوظيفي أو الشخصي .

الدراسات السابقة :

يعتبر استطلاع الدراسات السابقة مسألة مهمة من عدة نواح ، ففيها تجنيب البحث التكرار وإضاعة الجهود في موضوعات تم بحثها ، وفيها وضع البحث في إطاره الصحيح وفي موقعه المناسب من البحوث الأخرى ، وبيان ما يمكن أن يضيفه الى التراث العلمي .

وبالرغم من أن الدراسات التي تناولت عملية التدريب كثيرة ، فإننا سنركز في عرضنا للأدبيات الإدارية على ما له صلة مباشرة بتقييم نشاط التدريب ، وبشكل تلخيصي .

كشف تحليل الدراسات والأبحاث التي أنجزت في العقود الثلاثة الماضية خارج الدول العربية يلي :

١ - إن الأدب الإداري في مجال تقويم التدريب ما زال بحاجة الى المزيد من الإهتمام والبحث .

(Miller, 1990, Mc Evoy and Buller, (1990) Faerman and Ban, 1993)

٢ - ثمة علاقة بين تنمية قدرات ومهارات الموظفين وبين برامج التدريب ، مما أفرز الدعوة الى ضرورة توجيه الجهود نحو تقويم برامج التدريب .

(Solie, 1968, Stromsdorfer, 1968, Nigro and Nigro, 1968, Schenkel and Hudson, 1970, Banner, 1988).

٣ - ثمة علاقة بين إخفاق البرامج التدريبية في تحقيق أهدافها وبين عدم الإهتمام بالمدربين داخل المنظمات والتركيز على خبراء من خارجها الذين عادة ما ينتهي دورهم بإنتهاء البرنامج التدريبي دون متابعة الأثر الفعلي المترتب على تلك البرامج .

. (Strutton, 1994)

٤ - إن نجاح برامج التدريب رهن الى حد كبير بتحفيز المتدربين في المنظمة ، إذ ما دام الموظف ليس محفزا لتحقيق معدلات إنتاجية أفضل فإنه من الخطأ توقع ذلك منه

(Quick, 1991).

٥ ـ إن نجاح برامج التدريب يعتمد أساساً على ارتباط البرامج مباشرة بواجبات ومسؤوليات الوظيفة التي يشغلها المتدرب .

(Prince and Dubnicki, 1985).

٦ ـ ثمة ارتباط عال بين برامج التدريب وفعالية القيادات الإدارية في المنظمات .

(Mahler, 1985).

٧ ـ إن للرئيس المباشر تأثيرا واضحا على جدوى برامج التدريب .

(Robinson, 1985)

٨ ـ ضرورة التعامل مع برامج التدريب كمنظومة متكاملة حتى تتحقق النتائج المرجوة ، ولذا يجب أن ينصرف اهتمام المنظمات الى عمليات تحديد الاحتياجات التدريبية والأهداف التدريبية ، وتصميم البرامج التدريبية ، وتقويم هذه البرامج بناء على قاعدة التكلفة / العائد .

(Milkovich and Boudreau, 1991)

وعلى مستوى الدول العربية ، يمكن القول أن الدراسات فيها ما زالت قليلة وتحتاج الى جهود مكثفة من الباحثين . ويمكن إجمال ما كشفت عنه هذه الدراسات فيما يلي :

١ ـ تتمثل عوائد عملية التدريب في تنمية المعلومات والخبرات ، واكساب المهارات ، وارتفاع معدلات الأداء ، والإرتقاء بطرق العمل ، وتنمية الإتجاهات السلوكية الإيجابية (النعماني ، ١٤٠٧هـ) .

٢ ـ تتحدد عناصر عملية تقويم التدريب في تقويم رد فعل المشاركين ، وتقويم التعلم ، وتقويم السلوك ، وتقويم نواتج الأداء التنظيمي (طلبة ، ١٩٩٠) .

٣ ـ ثمة مشاكل تعترض عملية التقويم عند مستويات رد الفعل ، والسلوك ، والتعلم ، والمستوى التنظيمي . وتعزى الصعوبة عند مستوى رد الفعل الى درجة الغموض في ردود فعل المتدربين ، في حين تكمن المشكلة في مستويات السلوك ، والتعلم ، والتنظيم في صعوبة تحديد المعايير التي بموجبها نطلق الأحكام على التدريب (كعبور ، ١٩٩٠) .

٤ ـ إن عملية ترشيح الأفراد المطلوب تدريبهم تعكس رغبة منظماتهم لا رغبة المرشحين ، وأن المتدربين العاملين في وظائف ذات علاقة مباشرة بموضوع التدريب حققوا مستوى أعلى من المعلومات والمهارات مقارنة بغيرهم ممن ليس لهم علاقة مباشرة بموضوع التدريب . وأن ثمة تفاوتا في فعالية أساليب التدريب المستخدمة في البرامج التدريبية المختلفة (ياغي ، ١٩٨٧) .

٥ ـ إن تحديد الأهداف التدريبية أساس التقويم الذاتي والخارجي (صالح ، ١٩٨٦) .

٦ ـ إن أهداف البرامج التدريبية ليست محددة تحديدا دقيقا ، مما يجعل الحكم على فعاليتها أمرا تكتنفه صعوبات كثيرة (الجبالي ، ١٩٩٢) .

٧ ـ ثمة ارتباط قوي بين فعالية برامج التدريب ووضوح أهداف الوظيفة التي يشغلها المتدرب ومستقبله ا(الفضلي ، ١٩٩٥) .

٨ ـ ثمة محدودية في إعداد المدربين ومجالات تخصصهم مقارنة بالمسؤوليات والواجبات الملقاه على عواتقهم . كما أن هناك نقصا في برامج تدريب المدربين ، إضافة إلى وجود بعض العقبات المالية والإدارية التي تضعف من الإمكانات التدريبية (العواملة ، ١٩٩١ ، القبلان ، ١٩٨٦) .

إن مجمل ما نستهدف استخلاصه من الإشارة إلى هذه الأعمال أنها تؤكد على تنامي الوعي بأهمية تقويم التدريب ، مما يوجب الإهتمام بإجراء المزيد من الدراسات الميدانية في مختلفة بيئات الإدارة في الدول العربية ، ونشر نتائجها لتعميق الوعي بأهمية هذه العملية وضرورة استثمار النشاط التدريبي بفعالية لتحقيق أفضل النتائج الممكنة .

عرض النتائج ومناقشتها

يتضمن هذا الجزء من الدراسة عرضا للنتائج التي توصل اليها الباحثان مع تفسير لهذه النتائج ومناقشتها ، بهدف اختبار صحة الافتراضات الخاصة بها ، وذلك على النحو التالي :

نتائج اختبار الافتراض الأول :

يشير الافتراض الأول من الدراسة الى أن للخصائص الوظيفية والشخصية تأثيراً على

تقبل الرؤساء المباشرين للمقترحات المقدمة من قبل المتدربين فيما اكتسبوه من المشاركة في البرامج التدريبية واتاحة الفرصة لهم لتطبيقها .

لاختبار صحة هذا الافتراض ، اعتمد الباحثان في تحليل النتائج على استخراج الانحرافات المعيارية والاوساط الحسابية للاجابات عند كل مستوى خصيصة من الخصائص الوظيفية والشخصية للفقرتين الاولى والثانية من قائمة الاستبيان ، وذلك حسب مقياس ليكارت الخماسي .

ومن ثم جرى استخدام اختبار T لمعرفة مستوى الدلالة الإحصائية للفقرتين المشار اليهما (جدول رقم ٢) (على افتراض ان المحك هو «أحيانا» ، ويساوي ٣) ، حتى اذا كانت هناك دلالة فذلك يعني ان ما أدلى به المجيبون يشير الى تحققها بدرجة «دائماً» أو بدرجة «غالباً» .

أشارت نتيجة أختبار F الى وجود فروق ذات دلالة احصائية بين خمسة من هذه الخصائص الوظيفية والشخصية (جهة العمل ، المسمى الموظيفي ، المؤهل العلمي ، مدة الخدمة ، عدد برامج التدريب والتنمية الادارية) ، كما هي موضحة في جدول رقم (٣) .

كما أشارت الى عدم وجود أية فروق ذات دلالة احصائية بالنسبة لخصيصتي النوع ، والتخصص العلمي . وعليه ، فأن الباحثين يقبلان الافتراض الأول بالنسبة لمتغيرات جهة العمل ، والمسمى الوظيفي ، المؤهل العلمي ، مدة الخدمة ، وعدد برامج التدريب والتنمية الادارية ، ولكنهما يرفضانه بالنسبة لمتغيري النوع (الجنس) ، والتخصص العلمي .

ولتحديد الفروق بين الخصائص الوظيفية والشخصية الخمسة المشار اليها ازاء الفقرتين المذكورتين تم اجراء تحليل التباين الاحادي (جدول رقم ٤) ، فكانت النتائج على النحو التالي :

١ ـ فيما يتعلق بالخصيصة الأولى (العمل) :

تبين من خلال نتائج تحليل التباين الاحادي ان ثمة دلالة احصائية بين موظفي الوزارات والمؤسسات العامة المستقلة كما تبين من خلال اجراء الاختبار البعدي (جدول رقم ٥) ان موظفي الوزارات يرون ان الرؤساء المباشرين يتقبلون المقترحات المقدمة من المتدربين ،

كما أن الرؤساء يتيحون الفرصة أمام المتدربين لتطبيق ما اكتسبوه من المشاركة في البرنامج التدريبي ، ولكن بدرجة أقل مما عليه الحال في وحدات القطاع الخاص أو في المؤسسات العامة المستقلة .

٢ ـ فيما يتعلق بالخصيصة الثانية (المسمى الوظيفي) :

تبين من خلال نتائج تحليل التباين الاحادي أن ثمة دلالة احصائية بين الموظفين ممن هم في وظيفة «مدير ادارة» أو «نائب مدير ادارة» ، ومن هم كذلك في وظيفة «رئيس قسم» أو «رئيس شعبة» ، وممن يشغلون وظيفة غير إشرافية . كما تبين من خلال اجراء الاختبار البعدي (جدول رقم ٦) ان الموظفين غير الاشرافيين يرون أن الرؤساء لا يتقبلون المقترحات المقدمة من المتدربين ، ولا يتيحون الفرصة أمامهم لتطبيق ما اكتسبوه من المشاركة في البرنامج التدريبي بدرجة اكبر مما يراه الموظفون الذين يشغلون وظيفة «مدير ادارة» أو «نائب مدير ادارة» ، كذلك يرى الموظفون الذين يشغلون وظيفة «رئيس قسم» أو «رئيس شعبة» أن الرؤساء لا يتقبلون المقترحات ولا يتيحون الفرصة لتطبيق ما تم اكتسابه من المشاركة في البرنامج التدريبي ولكن بدرجة أقل مما يراه الموظفون غير الاشرافيين .

٣ ـ فيما يتعلق بالخصيصة الثالثة (المؤهل العلمي) :

تبين من خلال نتائج تحليل التباين الاحادي ان ثمة دلالة احصائية بين مستويات التأهيل العلمي (الثانوية العامة فما دون ، الجامعية المتوسطة ، الدرجة الجامعية الأولى فما فوق) . كما تبين من خلال اجراء الاختبار البعدي (جدول رقم ٧) ان الموظفين من حملة الدرجة الجامعية الأولى فما فوق يرون ان الرؤساء لا يتقبلون المقترحات المقدمة من المتدربين ، ولا يتيحون الفرصة أمامهم لتطبيق ما تم اكتسابه من المشاركة في البرنامج التدريبي .

٤ ـ فيما يتعلق بالخصيصة الرابعة (مدة الخدمة) .

تبين من خلال نتائج تحليل التباين الأحادي ان ثمة دلالة احصائية بين مستويات مدة الخدمة (أقل من ٢ ، ٢ ـ أقل من ٤ ، ٤ فأكثر) ، كما تبين من خلال اجراء الاختبار البعدي (جدول رقم ٨) ان الموظفين الذين تقع مدد خدماتهم بين أربع سنوات فأكثر يرون ان الرؤساء

يتقبلون المقترحات من المتدربين ، ويتيحون الفرصة أمامهم لتطبيق ما تم اكتسابه من المشاركة في البرنامج التدريبي ، ولكن بدرجة أقل من الموظفين ذوي الخبرة الأقل .

٥ ـ فيما يتعلق بالخصيصة الخامسة (عدد برامج التدريب والتنمية الادارية) :

تبين من خلال نتائج تحليل التباين الاحادي ان ثمة دلالة احصائية بين مستويات عدد برامج التدريب والتنمية الادارية (أقل من ٢ ، ٢ ـ أقل من ٤ ، ٤ فأكثر) . كما تبين من خلال اجراء الاختبار البعدي (جدول رقم٩) ان الموظفين الذين شاركوا في أربع دورات تدريبية فأكثر يرون أن الرؤساء لا يتقبلون المقترحات المقدمة من المتدربين ، ولا يتيحون الفرصة أمامهم لتطبيق ما تم اكتسابه من البرنامج .

نتائج اختبار الافتراض الثاني :

يشير الافتراض الثاني من الدراسة الى أن للخصائص الوظيفية والشخصية تأثيراً على المتدرب ، سواء من حيث فلسفته تجاه التدريب وروحه المعنوية وتفكيره الابداعي ، أو من حيث معلوماته واتجاهاته نحو العمل ، أو من حيث تعامله مع زملائه ، أو من حيث نتائج عمله .

لاختبار صحة هذا الافتراض ، اعتمد الباحثان في تحليل النتائج علي استخراج الانحرافات المعيارية والأوساط الحسابية للاجابات عند كل مستوى خصيصة من الخصائص الوظيفية والشخصية لفقرات الاستبيان الواقعة بين ٣ و ١٣ ، وذلك حسب مقياس ليكارت الخماسي . ومن ثم جرى استخدام اختبار T لمعرفة مستوى الدلالة الاحصائية للفقرات المشار اليها (جدول رقم ٢) (على افتراض ان المحك هو «أحيانا» ، ويساوي ٣) ، حتى اذا كانت هناك دلالة فذلك يعني ان ما ادلى به المجيبون يشير الى تحققها بدرجة «دائماً» أو بدرجة «غالباً» .

استخدم الباحثان كذلك اختبار F عن طريق تحليل التباين ANOVA ، لمعرفة مستوى الدلالة الاحصائية للفروق بين اجابات افراد العينة (بمستوى معنوية ٠,٠٥) ازاء كل فقرة من تلك الفقرات حسب الخصائص الوظيفية والشخصية .

اشارات نتيجة اختبار F الى وجود فروق ذات دلالة احصائية بين خمس من هذه الخصائص الوظيفية والشخصية (جهة العمل ، النوع ، المؤهل العلمي ، التخصص العلمي ، مدة الخدمة) كما هي موضحة في الجدول رقم (٣) ، كما اشارت الى عدم وجود أية فروق ذات دلالة احصائية بالنسبة لخصيصتي المسمى الوظيفي ، وعدد برامج التدريب والتنمية الادارية . وعليه ، فأن الباحثين يقبلان الافتراض الثاني بالنسبة لخصائص جهة العمل ، والنوع (الجنس) ، والمؤهل العلمي ، والتخصص العلمي ، ومدة الخدمة ،ولكنهما يرفضانه بالنسبة لخصيصتي المسمى الوظيفي ، وعدد برامج التدريب والتنمية الادارية .

ولتحديد الفروق بين الخصائص الوظيفية والشخصية الخمس المشار اليها ازاء الفقرات المذكورة تم اجراء تحليل التباين الاحادي (جدول رقم ٤) ، فكانت النتائج على النحو التالي :

١ ـ فيما يتعلق بالخصيصة الاولى (جهة العمل) :

تبين من خلال نتائج تحليل التباين الاحادي ان ثمة دلالة احصائية بين موظفي الوزارات ، والمؤسسات العامة المستقلة ، ووحدات القطاع الخاص . كما تبين من خلال اجراء الاختبار البعدي (جدول رقم ١٥) أن الأثر الايجابي ، بمختلف ابعاده المنوه عنها في الافتراض الثاني لهذه البرامج ، أوضح منها في وحدات القطاع الخاص عنها في وحدات القطاع الحكومي .

٢ ـ فيما يتعلق بالخصيصة الثانية (النوع «الجنس») :

تبين من خلال نتائج تحليل التباين الاحادي أن ثمة دلالة احصائية بين الموظفين والموظفات سواء في وحدات القطاع الحكومي او في القطاع الخاص . كما تبين من خلال اجراء الاختبار البعدي (جدول رقم ١١) ان الموظفات النساء يرين أن الأثر الايجابي ، بمختلف أبعاده المنوه عنها في الافتراض الثاني لهذه البرامج ، أكثر وضوحا مما يراه الموظفون الذكور .

٣ ـ فيما يتعلق بالخصيصة الثالثة (المؤهل العلمي) :

تبين من خلال نتائج تحليل التباين الاحادي ان ثمة دلالة احصائية بين مستويات

التأهيل العلمي (الثانوية العامة فما دون) ، الجامعية المتوسطة ، الدرجة الجامعية الأولى فما فوق) . كما تبين من خلال اجراء الاختبار البعدي (جدول رقم ١٢) أن الموظفين من حملة الثانوية العامة فما دون يرون ان الأثر بمختلف أبعاده المنوه عنها في الافتراض الثاني لهذه البرامج ، أوضح مما يراه الموظفون من حملة الدرجة الجامعية المتوسطة ، والدرجة الجامعية الأولى فما فوق .

٤ ـ فيما يتعلق بالخصيصة الرابعة (التخصص العلمي) :

تبين من خلال نتائج تحليل التباين الاحادي أن ثمة دلالة احصائية بين مستويات التخصص العلمي (ادارة ، محاسبة أو اقتصاد ، أخرى) . كما تبين من خلال اجراء الاختبار البعدي (جدول رقم ١٣) ان الموظفين ذوي تخصص الادارة يرون أن الأثر الايجابي ، بمختلف أبعاده المنوه عنها في الافتراض الثاني لهذه البرامج ، أوضح مما يراه الموظفون من ذوي تخصصات المحاسبة أو الأقتصاد أو ذوي التخصصات الأخرى .

٥ ـ فيما يتعلق بالخصيصة الخامسة (مدة الخدمة) :

تبين من خلال نتائج تحليل التباين الاحادي أن ثمة دلالة احصائية بين مفردات عينة الدراسة على مستويات مدة الخدمة (أقل من ٢ ، ٢ ـ أقل من ٤،٤ فأكثر) ، كما تبين من خلال اجراء الاختبار البعدي (جدول رقم ١٤) ان الاثار الايجابية للبرامج التدريبية كانت اقوى لدى الموظفين الذين امتدت خدماتهم الى أقل من سنتين من الموظفين الذين امتدت خدماتهم الى أكثر من سنتين .

نتائج اختبار الافتراض الثالث :

يشير الافتراض الثالث من الدراسة الى أن للخصائص الوظيفية والشخصية دوراً كبيراً في تطبيق أو عدم تطبيق ما اكتسبه المشاركون من معلومات واتجاهات في البرامج التدريبية .

لاختبار صحة هذا الافتراض ، اعتمد الباحثان في تحليل النتائج على استخراج الانحرافات المعيارية للأوساط الحسابية للاجابات عند كل مستوى خصيصة من الخصائص

الوظيفية والشخصية للفقرات (١٤ ـ ١٨) من قائمة الاستبيان ، وذلك حسب مقياس ليكارت الخماسي .

ومن ثم جرى استخدام اختبار T لمعرفة مستوى الدلالة الاحصائية للفقرات المشار اليها (جدول رقم ٢) (على افتراض ان المحك هو «أحياناً» ، ويساوي ٣) ، حتى اذا كانت هناك دلالة فذلك يعني أن ما أدلي به المجيبون يشير الى تحققها بدرجة «دائما» أو بدرجة «غالبا» .

استخدم الباحثان كذلك اختبار F عن طريق تحليل التباين الاحادي ANOVA ، لمعرفة مستوى الدلالة الاحصائية للفروق بين اجابات افراد العينة (بمستوى معنوية ٠,٠٥) ازاء كل فقرة من تلك الفقرات حسب المتغيرات الوظيفية والشخصية .

أشارت نتيجة اختبار F الى وجود فروق ذات دلالة احصائية بين اثنتين من الخصائص الوظيفية (المؤهل العلمي ، وعدد برامج التدريب والتنمية الادارية) كما هي موضحة في جدول رقم (٣) .

كما أشارت الى عدم وجود أية فروق ذات دلالة احصائية بالنسبة لخصائص جهة العمل ، والمسمى الوظيفي ، والنوع ، والتخصص العلمي ، ومدة الخدمة ، وعليه ، فأن الباحثين يقبلان الافتراض الثالث بالنسبة لخصائص المؤهل العلمي ، وعدد برامج التدريب والتنمية الادارية ، ولكنهما يرفضانه بالنسبة لمتغيرات جهة العمل ، والمسمى الوظيفي ، والنوع (الجنس) ، والتخصص العلمي ، ومدة الخدمة . ولتحديد الفروق بين الخصائص الوظيفية والشخصية الاثنتين المشار اليهما ازاء الفقرات المذكورة ، تم اجراء تحليل التباين الاحادي (جدول رقم ٤) ، فكانت النتائج على النحو التالي :

١ ـ فيما يتعلق بالخصيصة الاولى (المؤهل العلمي) :

تبين من خلال نتائج تحليل التباين الاحادي ان ثمة دلالة احصائية بين مستويات التأهيل العلمي (الثانوية العامة فما دون ، الجامعية المتوسطة ، الدرجة الجامعية الأولى فما فوق) .

كما تبين من خلال اجراء الاختبار البعدي(جدول رقم ١٥) ان الموظفين من حملة

الدرجة الجامعية الأولى فما فوق لا يعانون من وجود عوامل معيقة تحول دون تطبيق ما اكتسبوه من المشاركة في البرامج التدريبية ، في حين ان الموظفين من حملة الدرجة الجامعية المتوسطة يعانون بدرجة قليلة من وجود عوامل معيقة تحول دون تطبيق ما اكتسبوه من المشاركة في البرامج التدريبية . أما الموظفون من حملة الشهادة الثانوية العامة فما دون فانهم يرون وجود معوقات تحول دون تطبيق ما اكتسبوه من المشاركة في البرامج التدريبية .

٢ ـ فيما يتعلق بالخصيصة الثانية (عدد برامج التدريب والتنمية الادارية) :

تبين ممن خلال نتائج تحليل التباين الاحادي ان ثمة دلالة احصائية بين مستويات عدد برامج التدريب والتنمية الادارية (أقل من ٢ ، ٢ ـ أقل من ٤ ، ٤ فأكثر) . كما تبين من خلال اجراء الاختبار البعدي (جدول رقم ١٦) ان الموظفين الذين شاركوا في أربع دورات تدريبية فأكثر يعانون من وجود عوامل معيقة تحول دون تطبيق ما اكتسبوه من المشاركة في البرامج التدريبية بدرجة اكبر من نظرائهم الذين شاركوا في عدد أقل من الدورات .